شجرة النور الزكية

فى طبقات المالكية

التتمة

تأليف

العلامة الجليل الاستاذ الشيخ

محمد بن محمد مخلوف

القاهرة

١٣٥٠

المطبعة السلفية ـ ومكتبتها

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

تمهيد

ذكرنا فيما تقدم ما أمكن ذكره من التراجم والمناقب لبعض الصحابة والتابعين، والائمة المهتدين، والعلماء المشهورين. وهم نحو الثمانية عشر مائة. من أعز فريق وأفضل فئة، في طبقات على الترتيب الذي قصدناه، والاسلوب الذي أصلناه. غير أن ما ذكرناه، بالنسبة الى ما تركناه، قليل وما لا يدرك كله لا يترك قله. وعين الرحمة، وينبوع كل فضيلة وحكمة. هو واسطة عقدهم، ومركز دائرة مجدهم ﷺ وكرم وعظم. وفي سلك تلك الطبقات الكثير من الصحابة والتابعين، والقراء والمحدثين. والائمة المجتهدين. والعلماء المقلدين، والصوفية والمتكلمين. والشعراء واللغويين والنحويين، والقضاة والامراء والسلاطين. والملوك العادلين. وهؤلاء السادات، قاموا بالواجبات، التي هي غاية الغايات. تهم المسلمين في دينهم ودنياهم، وبها تحصل السعادة في أخراهم. فمنهم من ساس الامة وقادها، وبين ما لها وما عليها وافادها. وجاب البلاد، وهذب العباد. وأزال البغي والفساد، واستوسع في الفتوحات. حتى دخل الناس في هذا الدين الحنيف أفواجا أفواجا من سائر الجهات، ومنهم من حث على الجد والكد والاستمرار على الاعمال، بما يعود بالفائدة في الحال والمآل. وقد امتن الله سبحانه على عبيده في غير آية فقال ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعاً منه﴾ وقال عليه الصلاة والسلام «اعمل عمل امرىء يظن أن لا يموت أبدا، واحذر حذر امرىء يخشى أن يموت غدا» رواه البيهقي عن ابن عمر. ومنهم من ألف في الفن الذي جنح اليه، وعول في التحصيل عليه. ففسر وقرر ووضح، وبين ورجح. ورتب وهذب ونقح، وعدل وجرح. واستعمل ما لديه من الوسائل، وأيد ذلك بالبراهين والدلائل. والمنقول والمعقول، وكل مفيد يمكن به الوصول. فأحاط بما ألف خبرا، ودون علم الشريعة

نظما ونثرا . بأفصح عبارة ، وألطف اشارة . وفصيح اللسان منهم والقلم ، قام على المنابر فى المحافل خطيباً فى الامر الذى يهم . نخطب الخطب البارعة المذكرة ، الجامعة النافعة المؤثرة . بأبلغ لسان ، وأبين بيان ونسج الشعراء فى قصائدهم الطنانة على هذا المنوال ، وأتوا بما يعتمد عليه فى الاقوال والافعال . وبما تحمد عقباه فى الحال والمآل . فهؤلاء الاعلام ، هداة الاسلام مهدوا للامة طرق ارشادها ، وما يفيد فى أمر معاشها ومعادها . بما ذكر وبضرب الامثال والنصح بجوامع الكلم ، والمواعظ والرقائق والحكم . قال تعالى وهو أصدق القائلين ﴿ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ كل ذلك باللغة العربية الفصيحة التى جاء بها الكتاب المبين قال جل جلاله وعز كماله ﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون ﴾ وحثوا على التعليم والتعلم ليتم التفقه فى الدين ويحصل التقدم . فالعلم وسيلة النفوس الشريفة الى المطالب المنيفة والسبيل فى الآخرة الى السعادة وفى الدنيا الى النحلة عادة قال عز من قائل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر أولو الالباب ﴾ وعن كميل بن زياد أن علياً رضى الله عنه قال يا كميل ان هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها للخير . الناس ثلاث : فعالم ربانى ومتعلم فى سبيل نجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجأوا منه الى ركن وثيق . العلم خير من المال . العلم يحرسك وأنت تحرس المال . العلم يزكو على الانفاق والمال تنقصه النفقة . العلم حاكم والمال محكوم عليه . العلم دين يدان به يكسب الانسان الطاعة فى حياته وجميل الاحدوثة بعد وفاته مات خزان الاموال وهم أحياء العلماء باقون ما بقى الدهر ، أشخاصهم مفقودة وأشباحهم فى القلوب موجودة اه . من سراج الملوك . وفى هذا المعنى أنشد أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسى :

أخو العلم حى خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يظن من الاحياء وهو عديم

وقال أيضاً كرم الله وجهه فى بعض خطبه : اعلموا أن الناس أبناء ما يحسنون وقدر كل امرىء ما يحسن . وهو كلام لم يسبق به أحد فيه حث على طلب العلم ، ونظم ذلك بعضهم :

تلوم على ان رحت للعلم طالباً ... وأجمع من عند الرواة فنونه
فيالائمى دعنى اغالى بهجتى ... فقيمة كل الناس ما يحسنونه

وفى كتاب الاعتصام أن الله سبحانه شرف أهل العلم ورفع أقدارهم وعظم مقدارهم ودل على ذلك الكتاب والسنة والاجماع بل قد اتفق العقلاء على فضيلة العلم وأهله وانهم المستحقون شرف المنازل وهو مما لا ينازع فيه عاقل . واتفق أهل الشرائع على أن علوم الشريعة أفضل العلوم وأعظمها أجرا عند الله يوم القيامة ولا علينا أساءنا بعض الفرق فى تعيين العلوم أعنى العلوم التى نبه الشارع على مزيتها وفضيلتها أو لم يساءنا بعد الاتفاق من الجميع على

الافضلية واثبات المزية وأيضاً فان علوم الشريعة منها ما يجرى مجرى الوسائل بالنسبة الى السعادة الاخروية ومنها ما يجرى مجرى المقاصد والذى يجرى مجرى المقاصد أعلى مما ليس كذلك بلا نزاع بين الفقهاء أيضاً كعلم العربية بالنسبة الى علم الفقه فانه كالوسيلة فعلم الفقه أعلى . واذا ثبت هذا فأهل العلم أشرف الناس وأعظم منزلة بلا اشكال ولا نزاع وانما وقع الثناء فى الشريعة على أهل العلم من حيث اتصافهم بالعلم لا من جهة أخرى ودل على ذلك وقوع الثناء عليهم مقيداً بالاتصاف به فهو إذاً العلة فى الثناء ولولا ذلك الاتصاف لم يكن لهم مزية على غيرهم ومن ذلك صار العلماء حكاماً على الخلائق أجمعين قضاء وفتيا وارشاداً لانهم اتصفوا بالعلم الشرعى الذى هو حاكم بالاطلاق ثم قال بعد تفصيل وكلام طويل فعلى كل تقدير لا يتبع أحد من العلماء الا من هو متوجه نحو الشريعة قائم بحجتها حاكم باحكامها جملة وتفصيلا وان من وجد متوجهاً غير تلك الوجهة فى جزئية من الجزئيات أو فرع من الفروع لم يكن حاكما ولا استقام أن يكون مقتدى به فيما حاد به عن صوب الشريعة البتة اهـ . وقال الامام الغزالى ان أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات وما أشبه ذلك انما هى قانون السياسة وضبط الجمهور الذين يتنازعون بحكم شهواتهم فالفقيه معلم السلطان ومرشده الى قانون سياسة الخلق وهذا فى الحقيقة حراسة للدنيا والدنيا بها يتم الدين ، فالفقه الذى عند الامة الاسلامية انما هو القانون والقانون يحفظ البلاد والعباد وبحفظ هؤلاء يتم الدين . وقال الحسن البصرى رضى الله عنه : العلماء سراج الازمنة فكل عالم مصباح زمانه يستضىء به أهل عصره ولولا العلماء لكان الناس فى عمى كالبهائم ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضا ولله در عبد الله بن المبارك حيث قال :

لولا الخلافة ما قامت لنا سبل ... وكان أضعفنا نهباً لأقوانا

وكما أن الله سبحانه شرف العلم وأهله شرف الحكام العادلين . فى الصحيح « سبعة يظلهم الله بعرشه يوم لاظل الا ظله امام عادل » والوعيد الذى جاء فى حقهم انما هو فى حق غير العادل فى الجامع الصغير عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « ان أحب الناس الى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلساً امام عادل وأبغض الناس الى الله تعالى وأبعدهم منه امام جائر » رواه الترمذى والامام أحمد فى مسنده . وقال سفيان الثورى : صنفان اذا صلحا صلحت الأمة واذا فسدا فسدت الأمة الملوك والعلماء . والملك العادل هو الذى يقضى بكتاب الله عز وجل ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله . فى الجامع الصغير عن معقل بن يسار « أيما وال ولى شيئاً من أمر أمتى فلم ينصح لهم ويجتهد كنصيحته وجهده لنفسه كبه الله تعالى على وجهه يوم القيامة فى النار » رواه الطبرانى فى الكبير . وفى سراج الملوك : العدل النبوى بأن يجمع السلطان الى نفسه حملة العلم الذين هم حفاظه ورعاته وفقهاؤه وهم أولياء الله تعالى

والقائمون بأمر الله والحافظون لحدوده والناصحون لعباده . روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال « الدين النصيحة ثلاثا . قلنا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » وأن يتخذ العلماء شعاراً والصالحين دثاراً وأخلق بملك يدور بين هاتين الخصلتين أن تقوم عمده ويطول أمده . ثم قال : ويجب ترفيع مجالسهم وتمييز مواضعهم عمن سواهم . قال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » وفيه استمالة لقلوب الرعية وخلوص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته ، فواجب على السلطان أن لا يقطع أمراً دونهم ولا يفصل حكما الا بمشاورتهم لانه فى ملك الله يحكم وفى شريعته يتصرف ، وأقل الواجب على السلطان أن ينزل نفسه مع الله منزلة ولاته ولم يأمن سطوته واذا امتثل أوامره وازدجر من زواجره حل منه محل الرضا . فهذا طريق اقامة العدل الشرعى والسياسة الاسلامية الجامعة لوجوه المصلحة الآخذة لازمة التدبير السالمة من العيوب المبعدة لاقامة الدنيا والدين ، فكما أن الملك الحازم لايتم له حزمه إلا بمشاورة الوزراء الاخيار كذلك لايتم له عدله إلا باستمالة العلماء الابرار اه وفيه قال الله تعالى « ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » هاته الآية فى السلاطين على ما اقتضته من السياسة العامة التى فيها إبقاء الممالك وثبوت الدول ثم سمى المنصورين وأوضح شرائع النصر فقال « الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » فضمن الله تعالى النصر للملوك وشرط عليهم كما ترى ، فمن تضعضعت قواعدهم وانتقض عليهم من أطراف ممالكهم أو ظهر عليهم عدو أو باغى فتنة أو حاسد نعمة أو اضطربت عليهم الامور فليلجأوا الى الله تعالى باصلاح مابينه وبينهم باقامة ميزان القسط الذى شرعه الله لعباده وركوب سبيل العدل والحق الذى قامت به السماوات والارض واظهار شرائع الدين ونصرة المظلوم والأخذ على الظالم وكف يد القوى عن الضعيف روى أن النبي ﷺ قال « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » وفيه وينبغى للسلطان أن يولى الافضل فالافضل وان كان على خلاف ذلك كان سيء النظام ، وينبغى أن يكون الاقرب اليه أهل العلم والعقل والادب والرأى والاصالة والشرف والكمال من كل قبيلة وان كان على خلاف ذلك كان نقصاً . انتهى

واعلم أنه اقتضت حكمة هذا الدين أن يكون الخليفة رئيسه السياسى والدينى وهى فى هاته الأمة دينية نافعة فى الدنيا والآخرة وتصرفه الدينى مختص بخطط ومراتب لاتعرف إلا للخلفاء الاسلاميين . منها الصلاة والقضاء والجهاد والحسبة وهى بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين (١) وصارت بعد ذلك ملكا دنياويا بحتا اذ ترك الخلفاء أهم أصل من أصول الدين

(١) قوله عهد الخلفاء الراشدين : اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الاولى من دول الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ومدتها تقرب من ثلاثين سنة

وهى الصلاة بالناس التى استخلف بها رسول الله ﷺ أبا بكر فكان الخليفة على الأمة فى الدين كما صار أميراً عليها فى أمور سياستها فى الدنيا . وعقد ولى الدين ابن خلدون فصلا فى معنى الخلافة والامامة قال فيه : اذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها كانت سياسة دينية نافعة فى الدنيا والآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فانها كلها عبث وباطل اذ غايتها الموت والفناء والله سبحانه وتعالى يقول « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً » فالمقصود منهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة فى آخرتهم صراط الله الذى له مافى السماوات وما فى الأرض ، فجاءت الشرائع بحملهم ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى فى الاجتماع الانسانى فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع . وقال فى فصل الخطط الدينية : تبين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع يتصرف فى الامرين أما فى الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية الذى هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ، وأما فى سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى وهو ضرورى للبشر وان رعاية مصالحه كذلك لئلا يفسد ان أهملت اه

اذا علمت ذلك وظهر لك ما هناك علمت علم اليقين أن بين القضاة والعلماء والملوك والامراء وأهل الرئاسة وأرباب السياسة الارتباط الشرعى الذى هو فى سياسة الملك مرعى وقد ذكرنا فى المقصد بعض أعيان الفريق الاول وبقى علينا ذكر البعض من الفريق الثانى الذين عليهم فى ادارة الملك المعول فى تتمة أذكر فيها أئمة أعيان الاعيان مرجوعا اليهم فى كل مهمة حيث كانوا رجال علم وأدب وهمم سامية كاسد بن الفرات وسحنون وسعدون الخولانى وأضرابهم من عظماء الرجال الذين تركوا ثناء عاطراً وذكراً خالداً وهم فى الحقيقة كالوزراء لمعاصريهم من الملوك والامراء منتخبون من طبقات المقصد على مقتضى ترتيبها بألطف اشارة وأفصح عبارة تمهيداً لذكر معاصرى كل طبقة منها من الملوك والامراء فى قطر افريقية وذكرهم كذلك خلاصة نقية وتمهيداً لتنبيهات مهمة جديرة بالاعتبار عند ذوى الانظار يعلم منها سيرة السلف وما آل اليه أمر الخلف من زمن البعثة الى هذا الوقت ، فبعضهم ارتكب مايؤدى الى الخسران والخذلان والمقت وبعضهم مستور الحال وبعضهم جمع الفضائل ونسجها على أحسن منوال وهذا فى الحقيقة من الطراز الاول وعليه فى أمور الدين والدنيا والمعول وتعلم ما حصل لتلك الاجيال فى القرون الخالية من الحوادث والاحوال كبسط النعم وسلبها وما حصل فى ذلك من الاطوار والادوار وكيفية انتشار مذهب مالك بافريقية وغيرها من الاقطار والامصار وانتشار العلوم واتساعها وانحطاطها فى بعض الجهات وانقطاعها ، ومن المعلوم أن العلوم والمعارف لاتنمو وتتسع والتقلب فى النعم لايسمو ويرتفع إلا بعد الامن والاطمئنان ومد رواق الراحة والعافية وما يؤدى الى العمران وجمع الكلمة وبسط العدل وارتكاب الفضائل واجتناب الرذائل وعدم الغفلة عن الله وما هو عنا بغافل

فائدة

فى خاتمة بداية المجتهد الاشارة الى تقسيم الفضائل ونصه ببعض اختصار الأحكام الشرعية تنقسم الى قسمين : قسم يقضى به الحكام وجل ماذكرناه فى هذا الكتاب داخل فى هذا القسم . وقسم لايقضى به الحكام وهذا أكثره داخل فى المندوب اليه ، مثل رد السلام وتشميت العاطس وغير ذلك . وقد رأينا أن نذكر من هذا الجنس المشهور منه ان شاء الله . وينبغى قبل هذا أن تعلم ان السنن المشروعة العملية المقصود منها هو الفضائل النفسانية . فمنها ما يرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه ، وشكر من يجب شكره وفى هذا الجنس تدخل العبادات وهذه هى السنن الكرامية . ومنها مايرجع الى الفضيلة التى تسمى عفة ، وهذه صنفان السنن الواردة فى المطعم والمشرب والسنن الواردة فى المناكح . ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكف عن الجور . فهذه هى أجناس السنن التى تقتضى العدل فى الأموال والأبدان . وفى هذا الجنس يدخل القصاص والحروب والعقوبات ، لأن هذه كلها انما يطلب بها العدل . ومنها السنن الواردة فى الاعراض . ومنها السنن الواردة فى جمع الأموال وتقويمها وهى التى يقصد بها طلب الفضيلة التى تسمى السخاء ، وتجنب الرذيلة التى تسمى البخل . والزكاة تدخل فى هذا الباب من وجه ، وتدخل أيضاً فى باب الاشتراك فى الأموال ، وكذلك الأمر فى الصدقات . ومنها سنن واردة فى الاجتماع الذى هو شرط فى حياة الانسان وحفظ فضائله العملية والعلمية ، وهى المعبر عنها بالرياسة . ولذا ألزم أيضاً أن يكون سنن الائمة والقوام بالدين . ومن السنن المهمة حين الاجتماع السنن الواردة فى المحبة والبغضة . والتعاون على اقامة هذه السنن وهو الذى يسمى النهى عن المنكر والأمر بالمعروف وهى المحبة والبغضة أى الدينية التى هى اما من قبل الاخلال بهذه السنن واما من قبل سوء المعتقد فى الشريعة . وأكثر مايذكر الفقهاء فى الجوامع من كتبهم ماشذ عن هذه الأجناس الأربعة التى هى فضيلة العفة وفضيلة العدل وفضيلة الشجاعة وفضيلة السخاء ، والعبادة التى هى كالشروط فى تثبيت هذه الفضائل اه

الطبقة الاولى

منحصرة فيمن أنزل عليه القرآن وجاء بالشريعة المطهرة ﷺ وكرم وعظم

اعلم انه ﷺ أرسل رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجا منيراً على

رأس الاربعين سنة(١) وأول مابدئ به من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لايرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح . وأول ما نزل عليه من القرآن « اقرأ باسم ربك » كما في الصحيح قال الألوسي وعليه أكثر الائمة ثم فتر الوحي ثلاث سنين ثم نزل عليه القرآن وحمى وتتابع منجما بحسب الوقائع في ظرف عشرين سنة سمعه منه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وعملوا به وبلغوه لقوله ﷺ « فليبلغ الشاهد الغائب » وكذلك أخذوا عنه السنن التي سنها ولم ينتقل ﷺ حتى ترك الدين تام الأصول . روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه انه قال : قال رسول الله ﷺ « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما : كتاب الله وسنتي ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض » . وروى أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ولفظه : « وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون فقلنا يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا فقال : أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وان تأمر عليكم عبد وانه من يعش منكم فيرى اختلافا كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ واياكم ومحدثات الأمور فان كل بدعة ضلالة » . وفي جامع المعيار عن الامام المازري : « القرآن قاعدة الاسلام وقطب الأحكام ومفزع أهل الملة ووزرهم وآية رسولهم ودليل صدق دينهم » اه والقرآن فيه تبيان كل شيء ، جامع لكل فضيلة وناه عن كل رذيلة ، يدعو الى الاخاء والاتحاد والاجماع والعدل والاحسان واجتناب البغي والفساد ، طأطأت الرءوس لسلطانه ، وانصاع أبلغ العرب لبلاغته وبيانه ، ونهض به الاسلام نهضة لم تعهد ، واستعذبته النفوس والقلوب ، وحصل به غاية المطلوب . في أوائل تبصرة ابن فرحون ان الله تعالى أكمل لنبيه ﷺ دينه القويم وهدى به من يشاء الى الصراط المستقيم ، وأسس شرعه المطهر على أحسن الطرائق وأحكم القواعد ، وشيده بالتقوى والعدل وجلب المصالح ودرء المفاسد ، وأيده

(١) قوله على رأس الاربعين أي بينما كان يتعبد بحراء حسب عادته اذ جاء الوحي وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده عليه الصلاة والسلام فيكون عمره اذ ذاك بالضبط أربعين سنة قمرية وستة أشهر وأياما والى ذلك الاشارة في قوله تعالى « ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » . والمراد بيوم التقاء الجمعين يوم بدر وكان في صبيحة يوم الثلاثاء سابع عشر رمضان من السنة الثانية للهجرة وقد جعله علما لاول يوم نزل فيه القرآن وهي التي قال فيها الكتاب « انا أنزلناه في ليلة القدر » وهو السبب في تخصيص الاسلام شهر رمضان بالصيام لأنه الشهر الذي كان يتعبد فيه الرسول ﷺ بحراء ونزل عليه القرآن فيه لأول مرة « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » وجعلت نهايته عيداً تذكاراً لذلك الأمر العظيم

من محاضرات الخضري باختصار

بالأدلة الموضحة للحق وأسبابه المرشدة الى ايصال الحق لأربابه ، وحماه بالسياسة الجارية على سنن الحق وصوابه . ولذا قال تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لامبدل لكلماته » . فالمراد بالكلمات القرآن العظيم تمت دلائله وحججه وأوامره ونواهيه وأحكامه وبشارته وانذاره قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم » . وفيها فى طالعة القسم الثالث : السياسة نوعان ، سياسة ظالمة الشرع يحرمها ، وسياسة عادلة تخرج الحق من الظالم وترفع كثيراً من المظالم وترد أهل الفساد ويتوصل بها الى المقاصد الشرعية . فالشريعة يجب المصير اليها والاعتماد فى اظهار الحق عليها وهى باب واسع تضل فيه الافهام وتزل فيه الاقدام واهماله يضيع الحقوق ويبطل الحدود ويجرئ أهل الفساد ويعين أهل العناد والتوسع فيه يفتح باب المظالم الشنيعة ويوجب سفك الدماء وأخذ الأموال بغير الشريعة ولذا سلكت فيه طائفة مسلك التفريط المذموم فقطعوا النظر عن هذا الباب الا فيما قل ظنا منهم أن تعاطى ذلك مناف لقواعد الشريعة فسدوا من طرق الحق سبيلا واضحة وعدلوا الى طريق العناد الفاضحة لأن فى انكار السياسة الشرعية رد النصوص الشرعية وتغليطاً للخلفاء الراشدين رضى الله تعالى عنهم . وطائفة سلكت فى هذا الباب مسلك الافراط فتعدوا حدود الله تعالى وخرجوا عن حدود الشرع الى أنواع الظلم والبدع والسياسة وتوهموا ان السياسة الشرعية قاصرة عن سياسة الخلق ومصلحة الأمة وهو جهل وغلط فاحش . قال عز من قائل : « اليوم أكملت لكم دينكم » فدخل فى هذا جميع مصالح العباد الدينية والدنياوية . وقال ﷺ : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا كتاب الله وسنتى » وطائفة توسطت وسلكت مسلك الحق وجمعوا بين السياسة والشرع فقمعوا الباطل ودحضوه ونصفوا الشرع ونصروه . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم . انتهى

وفى الاعتصام ان الله تعالى أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيها تبيان كل شئ يحتاج اليه الخلق فى تكاليفهم التى أمروا بها وتعبداتهم التى طوقوها فى أعناقهم ولم يمت ﷺ حتى كمل الدين بشهادة الله تعالى حيث قال « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » والمراد بالكمال بحسب ما يحتاج اليه من القواعد الكلية التى يجرى عليها مالانهاية له من النوازل والجزئيات انتهى

وفى أوائل بداية المجتهد ان الطرق التى تلقيت منها الاحكام عن النبى ﷺ بالجنس ثلاثة اما لفظ واما فعل واما اقرار . وأما ماسكت عنه الشارع من الأحكام فقال الجمهور ان طريق الوقوف عليه هو القياس . وقال أهل الظاهر القياس فى الشرع باطل وماسكت عنه الشارع فلا حكم له ، ودليل العقل يشهد بقبوله وذلك أن الوقائع بين أشخاص الأناسى غير متناهية [1] والنصوص والافعال والاقرارات متناهية ومحال أن يقابل مالا يتناهى بما يتناهى اه . وزبدة

(١) قوله غير متناهية وكذلك جهات الاستدلال غير متناهية

القول أن القانون الاسلامى هو القرآن العظيم وسنة نبيه الكريم . قال تعالى « وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس مانزل اليهم » وقال « مافرطنا فى الكتاب من شىء » ثم استنباط المجتهدين من الكتاب والسنة ، وقد اعتنى المجتهدون بحفظ مقاصد الشريعة فى الخلق لانها جاءت لاخراج المكلف عن داعية هواه فى جميع الاحوال من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو ضرورى للاجتماع الانسانى فاجرته على قانون مستقيم ومنهاج من الدين قويم فى شروط صاحبه ، ومايجب عليه من العدل والدين والامانة واتباع المصلحة وغير ذلك مما هو مقرر فى كتب الدين ومن له مساس بالفقه لا يخفى عليه أن أحكام الشرع تدور مع المصالح والمفاسد وتختلف باختلاف الاحوال والازمان قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور . فى روح المعانى عند قوله عز من قائل « ان الذين يحادّون الله ورسوله » أى يعادونهما ويشاقونهما . قال ناصر الدين البيضاوى : ويضعون أو يختارون حدوداً غير حدود الله تعالى ورسوله ﷺ . وقال شيخ الاسلام سعد الله جلبى : وعلى هذا ففيه وعيد عظيم للملوك وامراء السوء الذين وضعوا أموراً خلاف ما حده الشرع وسموها القانون . قال شهاب الدين الخفاجى بعد نقله ما ذكر وقد صنف العارف بالله الشيخ بهاء الدين رسالة فى كفر من يقول يعمل بالقانون والشرع اذا قابل بينهما وقد قال تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » وقد وصل الدين الى رتبة من الكمال لا يقبل التكميل واذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ولكن أين من يعقل انتهى . وليتنى رأيت هاته الرسالة ووقفت على ما فيها فان اطلاق القول بالكفر مشكل عندى فتأمل ، ثم انه لا شبهة فى أنه لا بأس بالقوانين السياسية اذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يحسن بها الانتظام ويصلح أمر الخاص والعام ومنها تعيين مراتب التأديب والزجر على معاصى وجنايات لم ينص الشارع فيها على حد معين بل فوض الامر فى ذلك لرأى الامام فليس ذلك من المحادة لله تعالى ورسوله ﷺ فى شىء بل فيه استيفاء حق الله تعالى على أتم وجه لما فيه من الزجر على المعاصى وهو أمر مهم للشارع عليه الصلاة والسلام ويرشد اليه ما فى تحفة المحتاج أن يستوفى التعزير اذا عفا صاحب الحق لأن الساقط بالعفو هو حق الآدمى والذى يستوفيه الامام هو حق الله تعالى للمصلحة وفى كتاب الخراج لأبى يوسف اشارة الى ذلك أيضاً ولا يعكر على ذلك ونحوه قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم » لأن المراد كماله من حيث تضمنه ما يدل على حكمة الله تعالى خصوصاً أو عموماً ويرشد لهذا عدم النكير على أحد من المجتهدين اذا قال بشىء لم يكن منصوصاً عليه بخصوصه ومن ذلك ما ثبت بالقياس باقسامه نعم القانون الذى يكون وراء ذلك فان كان مصادماً لما نطقت به الشريعة الغراء زائغاً عن سنن المحجة البيضاء فيه ما فيه كما لا يخفى على العارف النبيه والآية نزلت فى كفار قريش اه

صلة بها

ان القرآن هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة مع الابانة عن فضل المعنى الذى به باين سائر الكلام

اعلم أن فى آى القرآن العبرة لمن اعتبر ، والذكرى لمن اذكر ، والبيان لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . فى تفسير الامام المفسر المجتهد أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى عند تفسير الفاتحة ما نصه :

مسألة يسأل عنها أهل الالحاد الطاعنون فى القرآن ان سألنا منهم سائل فقال انك قد قدمت فى أول كتابك هذا فى وصف البيان بأن أعلاه درجة وأشرفه مرتبة أبلغه فى الابانة عن حاجة المبين به عن نفسه وأبينه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه . وقلت مع ذلك ان أولى البيان بأن يكون كذلك كلام الله جل ثناؤه بفضله على سائر الكلام وبارتفاع درجته على أعلى درجات البيان . فما الوجه اذ كان الأمر على ما وصفت فى اطالة الكلام بمثل سورة أم القرآن بسبع آيات وقد حوت معانى جميعها منها آيتان وذلك قوله « ملك يوم الدين اياك نعبدواياك نستعين » اذ كان لاشك ان من عرف « ملك يوم الدين » فقد عرفه بأسمائه الحسنى وصفاته المثلى وان من كان لله مطيعاً فلا شك انه لسبيل من أنعم الله عليه فى دينه متبع ، وعن سبيل من غضب عليه وضل معتدل . فما فى زيادة الآيات الخمس الباقية من الحكمة التى لم تحوها الآيتان اللتان ذكرنا . قيل له ان الله تعالى جمع لنبينا محمد ﷺ ولأمته بما أنزل اليه من كتابه معانى لم يجمعهن بكتاب أنزله الى نبى قبله ولا لأمة من الامم قبلهم وذلك ان كل كتاب أنزله جل ذكره على نبى من أنبيائه قبله فانما أنزله ببعض المعانى التى يحوى جميعها كتابه الذى أنزله الى نبينا محمد ﷺ كالتوراة التى هى مواعظ وتفصيل والزبور الذى هو تحميد وتمجيد والانجيل الذى هو مواعظ وتذكير لا معجزة فى واحد منها تشهد لمن أنزل اليه بالتصديق والكتاب الذى أنزل على نبينا محمد ﷺ يحوى معانى ذلك كله ويزيد عليه كثيراً من المعانى التى سائر الكتب غيره منها خال وقد قدمنا ذكرها فيما مضى من هذا الكتاب . ومن أشرف تلك المعانى التى فضل بها كتابنا سائر الكتب قبله نظمه العجيب ووصفه الغريب وتأليفه البديع الذى عجزت عن نظم مثل أصغر سورة منه الخطباء ، وكلت عن وصف شكل بعضه البلغاء ، وتحيرت فى تأليفه الشعراء ، وتبلدت قصوراً عن أن تأتى بمثله لديه افهام الفهماء . فلم يجدوا له الا التسليم والاقرار بانه من عند الواحد القهار مع ما يحوى مع ذلك من المعانى التى هى ترغيب وترهيب وأمر وزجر وقصص وجدل ومثل وما أشبه ذلك من المعانى التى لم تجتمع فى كتاب أنزل

الى الارض من السماء فهما يكن فيه من اطالة على نحو ما فى أم القرآن فلما وصفت قبل من ان الله جل ذكره أراد ان يجمع بوصفه العجيب ونظمه الغريب المنعدل على أوزان الاشعار وسجع الكهان وخطب الخطباء ورسائل البلغاء العاجز عن وصف مثله جميع الانام وعن نظم نظيره كل العباد الدلالة على نبوة نبينا محمد ﷺ وبما فيه من تحميد وتمجيد وثناء عليه تنبيه للعباد على عظمته وسلطانه وقدرته وعظم مملكته ليذكروه بآلائه ويحمدوه على نعمائه فيستحقوا به منه المزيد ويستوجبوا عليه الثواب الجزيل وبما فيه من نعت من أنعم عليه بمعرفته وتفضل عليه بتوفيقه لطاعته تعريف عباده ان كل ما بهم من نعمة فى دينهم ودنياهم فمنه ليصرفوا رغبتهم اليه ويبتغوا حاجاتهم من عنده دون ما سواه من الآلهة والانداد وبما فيه من ذكره ما حل بمن عصاه من مثلاته وأنزل بمن خالف أمره من عقوباته ترهيب عباده من ركوب معاصيه والتعرض لما لا قبل لهم به من سخطه فيسلك بهم فى النكال والنقمات سبيل من ركب ذلك من الهلاك فذلك وجه اطالة البيان فى سورة أم القرآن وفيما كان نظيراً لها من سائر سور القرآن وذلك هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة . انتهى

وقد وصف البيان ، فى أول كتابه بأبين بيان . ومحل الحاجة منه :

لا شك ان أعلى منازل البيان درجة وأسنى مراتبه مرتبة أبلغه فى حاجة المبين نفسه وأبينه عن مراد قائله وأقربه من فهم سامعه فان تجاوز ذلك المقدار وارتفع عن وسع الانام وعجز عن أن يأتى بمثله جميع العباد كان حجة وعلما لرسل الواحد القهار كما كان حجة وعلما لها احياء الموتى وابراء الأبرص وذوى العمى بارتفاع ذلك عن مقادير أعلى منازل طب المتطببين وأرفع مراتب علاج المعالجين الى ما يعجز عنه جميع العالمين وكالذى كان لها حجة وعلما قطع مسافة شهرين فى الليلة الواحدة بارتفاع ذلك عن وسع الانام وتعذر مثله على جميع العباد وان كانوا على قطع القليل من المسافة قادرين واليسير منه فاعلين فاذا كان ماوصفنا من ذلك كالذى وصفنا فبين ان لا بيان أبين ولا حكمة أبلغ ولا منطق أعلى ولا كلام أشرف من بيان ومنطق تحدى به امرؤ قوما فى زمان هم فيه رؤساء صناعة الخطب والبلاغة وقيل الشعر والفصاحة والسجع والكهانة كل خطيب منهم وبليغ وشاعر منهم وفصيح وكل ذى سجع وكهانة فسفه أحلامهم وقصر معقولهم وتبرأ من دينهم ودعا جميعهم الى اتباعه والقبول منه والتصديق به والاقرار بانه رسول اليهم من ربهم وأخبرهم ان دلالته على صدق مقالته وحجته على حقيقة نبوته ما أتاهم به من البيان والحكمة والفرقان بلسان مثل ألسنتهم ومنطق موافقة معانيه معانى منطقهم ثم أنبأ جميعهم انهم عن أن يأتوا بمثل بعضه عجزة ومن القدرة عليه نقصة فأقر جميعهم بالعجز وأذعنوا له بالتصديق وشهدوا على أنفسهم بالنقص . انتهى من تفسير أبى جعفر بن جرير الطبرى

وفى خلاصة تاريخ العرب أشهر معجزاته ﷺ القرآن الكريم لاشتهار البلاغة والفصاحة فى زمنه عند قريش الذين كانوا يفتخرون بحسن الكلام ويتغالون فيه كما كان احياء الموتى

لعيسى والثعبان لموسى زمن اشتهار السحر والنفس الطيب لداود زمن اشتهار الموسيقى وتلا ﷺ على عباد الاصنام أول سورة فصلت و بلغ « قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أنداداً » الى أن قال « ولكم فيها ماتدعون نزلا من غفور رحيم » وكان من أراد الله هدايته يسمع القرآن فيسلم كعمر رضى الله عنه فانه توجه بسيفه لقتل النبى ﷺ فقيل له لا تفعل لئلا يقتلك بنو عبد مناف ولكن اردع خبابا واختك وابن عمك سعيد بن زيد فانهم أسلموا فقصدهم وهم يتلون سورة طه فسكتوا فسألهم عما سمعه فأنكروه فضرب أخته فشجها قائلا أريني ما كنتم تقرأونه وخافت على الصحيفة فعاهدها على أن يردها اليها فدفعتها وقرأها وقال ما أحسن هذا وأكرمه ، ثم توجه الى النبى ﷺ فأسلم اه

وفيها بعد نقل آياً من القرآن فى الآداب مانصه : مافرط القرآن فى شىء من الآداب التى قوامها الحكمة ورأسها العدل والاحسان وغايتها قصد سبيل الحق والصد عن محجة الضلالة والخروج من ظلمات الرذائل الى نور الفضائل والتطهير من شوائب النقص والتحلى بزينة الكمال وما قصدنا بايراد ماسلف الا أن يكون لهذه الامة الشريفة دليل تقدس غايتها وحرمة مذهبها ورفعة حكمتها وموافقتها لما نزل من قبل على الرسل الكرام فبذلك يهتدى البصير الى فضل القرآن المجيد اذ جمع فأوعى ما أوتيه النبيون من قبل من البينات . انتهى من خلاصة تاريخ العرب للعالم المنصف سيديو وقصة اسلام عمر رضى الله عنه سنذكرها فى خلافته

درة

اعلم انه جرت عادة الله أن أوامره لا تخلو من حكمة فان ظهرت فهى معقولة المعنى والا فتعبد وذلك لانا استقرأنا عادة الله تعالى فوجدناها جالبة للمصالح دارئة للمفاسد ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما « اذا سمعت نداء الله فهو انما يدعوك لخير أو يصرفك عن شر كايجاب الزكاة والنفقات لسد الخلات وأرش جبر الجنايات المتلفات وتحريم القتل والزنا والسكر والسرقة والقذف صونا للنفوس والانساب والعقول والأموال والاعراض عن المفسدات » . اه حطاب

جوهرة

فى الاعتصام ان الله عز وجل أنزل القرآن عربيا لاعجمة فيه بمعنى انه جار فى ألفاظه ومعانيه وأساليبه على لسان العرب قال تعالى : « انا جعلناه قرآنا عربيا » وقال : « قرآنا عربياً غير ذى عوج » وقال : « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين » وكان المنزل عليه القرآن عربيا أفصح من نطق بالضاد وهو محمد بن عبد الله ﷺ وكان الذين بعث فيهم عربا أيضا يجرى الخطاب به على معتادهم فى لسانهم فليس فيه شىء من

الالفاظ والمعانى الا وهو جار على ما اعتادوه ولم يدخله شيء بل نفى عنه أن يكون فيه شيء عجمى فقال تعالى « ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » وقال « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته آعجمى وعربى » هذا وان كان بعث للناس كافة فان الله جعل جميع الامم وعامة الالسنة فى هذا الامر تبعاً للسان العرب واذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى الا من الطريق الذى نزله عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها اه

فـــريدة

فى الاعتصام أن الله بعث الينا محمداً ﷺ رحمة للعالمين حسبما أخبر فى كتابه ، وقد كنا قبل طلوع ذلك النور الاعظم لانهتدى سبيلا ولا نعرف من مصالحنا الدنياوية إلا قليلا على غير كمال ولا من مصالحنا الأخروية كثيراً ولا قليلا ، بل كان كل أحد يركب هواه وان كان فيه ما فيه ويطرح هوى غيره فلا يلتفت اليه فلا يزال الاختلاف بينهم والفساد فيهم يخص ويعم حتى بعث الله نبيه ﷺ لزوال الريب والالتباس وارتفاع الخلاف بين الناس كما قال تعالى « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين ـ الى قوله ـ فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق باذنه » وقوله « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » ولم يكن حاكم بينهم فيما اختلفوا فيه إلا وقد جاءهم بما ينظم به شملهم وتجتمع به كلمتهم وذلك راجع الى الجهة التى من أجلها اختلفوا وهو مما يعود عليهم بالصلاح فى العاجل والآجل ويدرأ عنهم الفساد على الاطلاق فاحتفظت الأديان والدماء والعقول والانساب والاموال من طريق يعرف مأخذها العلماء وذلك القرآن العظيم بل المنزل على النبى ﷺ قولا وعملا واقراراً ، ولم يردوا الى تدبير أنفسهم للعلم بأنهم لا يستطيعون ذلك ولا يستقلون بدرك مصالحهم ولا تدبير أنفسهم ، فاذا ترك المبتدع هذه المهمات العظيمة والعطايا الجزيلة وأخذ فى استصلاح نفسه ودنياه بما لم يجعل الشرع عليه دليلا فكيف له بالعصمة والدخول تحت هذه الرحمة وقد حل يده من حبل العصمة الى تدبير نفسه فهو حقيق بالبعد عن الرحمة . قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولاتفرقوا » بعد قوله « واتقوا الله حق تقاته » فاشعر أن الاعتصام بحبل الله هو تقوى الله حقاً وأن ما سوى ذلك تفرقة لقوله « ولا تفرقوا » والفرقة من أحسن أوصاف المبتدعة لانه خرج عن حكم الله وباين جماعة الاسلام . روى عبد الله بن حميد عن عبد الله : أن حبل الله الجماعة . وعن قتادة : حبل الله المتين هو القرآن وسننه وعهده الى عباده الذى أمر أن يعتصم بما فيه من الخير والثقة وأن يتمسكوا به ويعتصموا بحبله ومن ذلك قوله تعالى « واعتصموا بالله هو مولاكم » اه . وفيه لولا أن من الله على الخلق ببعثة الانبياء لم تستقم لهم حياة ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم وهذا معلوم بالنظر فى أخبار الاولين والآخرين . وفيه أيضاً الشريعة موضوعة لاخراج المكلف

عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله ، وهى حجة على الخلق كبيرهم وصغيرهم مطيعهم وعاصيهم برهم وفاجرهم بل ان المرسلين بها صلوات الله عليهم داخلون تحت أحكامها ، فأنت ترى أن نبينا محمداً ﷺ مخاطب بها فى جميع أحواله وتقلباته مما اختص به دون أمته أو كان عاما له ولأمته كقوله تعالى « يا أيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك ـ الى قوله ـ خالصة لك من دون المؤمنين » الى سائر التكاليف التى وردت على كل مكلف والنبى فيهم فالشريعة هى الحاكمة على الاطلاق والعموم عليه وعلى جميع المرسلين وهى الطريق الموصل والهادى الاعظم . ألا ترى الى قوله تعالى « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا » فهو عليه الصلاة والسلام أول من هداه الله بالكتاب والايمان ثم من اتبعه فيه والكتاب هو الهادى والوحى المنزل عليه مرشد ومبين لذلك الهدى والخلق مهتدون بالجميع . ولما استنار قلبه وجوارحه عليه السلام وظاهره وباطنه بنور الحق علماً وعملا صار هو الهادى الأول لهذه الامة والمرشد الاعظم حيث خصه الله دون الخلق بانزال ذلك النور عليه واصطفاه من جملة من كان مثله فى الخلقة البشرية اصطفاء أوليا لامن جهة كونه بشراً عاقلا مثلا لاشتراكه مع غيره فى هذه الاوصاف ولا لكونه من قريش مثلا دون غيرهم وإلا لزم ذلك فى كل قريش ، ولا لكونه من بنى عبد المطلب ولا لكونه عربيا ولا لغير ذلك بل من جهة اختصاصه بالوحى الذى استنار به قلبه وجوارحه فصار خلقه القرآن حتى نزل فيه « وانك لعلى خلق عظيم » وانما كان خلقه القرآن لأنه حكم الوحى على نفسه حتى صار فى علمه وعمله على وفقه فكان للوحى موافقاً قائلا مذعناً ملبياً نداءه واقفاً عند حكمه ، وهذه الخاصة كانت من أعظم الأدلة على صدقه فيما جاء به إذ قد جاء بالأمر وهو مؤتمر وبالنهى وهو منته وبالوعظ وهو متعظ وبالتخويف وهو أول الخائفين وبالترجية وهو سائق دابة الراجين ، وحقيقة ذلك كله جعله الشريعة المنزلة عليه حجة حاكمة عليه ودلالة له على الصراط المستقيم الذى سار عليه ﷺ ولذا صار عبداً لله حقاً وهو أشرف اسم تسمى به العباد . قال تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام » « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده » « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا » وما أشبه ذلك من الآيات التى وقع مدحه فيها بصفة العبودية ، واذا كان ذلك فسائر الخلق حريون بأن تكون الشريعة حاكمة عليهم ومناراً يهتدون بها الى الحق وشرفهم انما يثبت بحسب ما اتصفوا به من الدخول تحت أحكامها والعمل بها قولا واعتقاداً وعملا لا بحسب عقولهم فقط ولا بحسب شرفهم فى قومهم فقط لان الله تعالى انما أثبت الشرف بالتقوى لاغير لقوله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فمن كان أشد محافظة على اتباع الشريعة فهو أولى بالشرف ومن كان دون ذلك لم يكن أن يبلغ فى الشرف مبلغ الاعلى فى اتباعها . فالشرف إذاً انما هو بحسب المبالغة فى تحكيم الشريعة اهـ ببعض اختصار

خلاصة

فى العلوم التى تفرعت من القرآن أو نشأت لخدمته

اعلم أن العرب فى صدر الاسلام حفظوا القرآن وليس فى أيديهم من الكتب غيره يقرأونه ويتعظون به ويتحاكمون اليه وقد عجبوا بأسلوبه ودهشوا ببلاغته لانه ليس من قبيل ما كانوا يعرفونه من نثر الكهان المسجع ونظم الشعراء المقفى الموزون وقد خالف كليهما وفيه من البلاغة وأساليب التعبير ما لم يكن له شبيه فى لسانهم ، فسحروا بأسلوبه وبما حواه من الشرائع والاحكام والاخبار ، فأصبح همهم تلاوته وتفهم أحكامه ، لانه قاعدة الدنيا والدين وبه تتأيد السلطة والخلافة وهو أول كتاب أخذوا فى قراءته وحفظه

القراءات السبع

واختلفوا فى قراءة بعض آياته . فتولدت القراءات السبع نسبة الى سبعة من القراء — تقدم ذكرهم فى المقدمة — وتفرع بتوالى الاعصر الى سبعة علوم هى : علم الشواذ ، وعلم مخارج الحروف ، ومخارج الالفاظ ، والوقوف ، وعلل القرآن ، وكتابة القرآن ، وآداب كتابة المصحف . وفى كل من هذه العلوم قواعد وكتب ، وأكثر العلوم الاسلامية نشأت من القرآن أو تولدت خدمة له ولا يكاد يخلو علم من تأثير القرآن عليه رأساً أو ضمناً

النحو

أول شيء احتاجوا اليه فى ضبط القرآن النحو ، وكان الباعث على التعجيل فى ضبطه وضبط قواعده ما شاهدوه من لحن الناس فى قراءة القرآن بعد الفتوح وانتشار العرب فى الآفاق ، وقد تمت قواعده ولم يتم القرن الثانى للهجرة أى نضج فى قرن وبعض القرن ، واليونان لم يتم علم النحو عندهم الا بعد انشاء دولتهم بعدة قرون ، ولم يضع الرومان نحو اللغة اللاتينية الا بعد قيام دولتهم بستة قرون . ويفتقر علم النحو فى تأييد قواعده الى معرفة كلام العرب وأساليبهم

التفسير وعلم الادب

ولما أخذ العلماء فى تفسير القرآن احتاجوا أيضاً الى ضبط معانى الفاظه وتفهم أساليب عبارته فجرهم ذلك الى البحث فى أساليب العرب وأقوالهم وأشعارهم وأمثالهم وهو علم الادب

المشتمل على الفنون الادبية والعلوم المتعلقة بالالفاظ وهى تزيد على العشرين علماً كالنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع والعروض ، والفضل فى تعجيل ظهورها للقرآن

الحديث

واحتاجوا فى تفسير القرآن أيضاً الى تفهم الحديث لانهم كانوا اذا أشكل عليهم فهم آية أو اختلفوا فى تفسيرها أو حكم من أحكامها استعانوا بأقوال النبى ﷺ على استيضاحها ، فلما تفرق الصحابة فى الارض تفرقت الاحاديث معهم فاشتغل جماعة من المفكرين فى جمعها وتدوينها وتولد من ذلك العلوم المتعلقة بالحديث وهى التى مر بيانها بخاتمة المقصد . والتفسير نفسه لما نضج تفرع الى علوم كثيرة مذكورة فى مفتاح السعادة وهى تزيد على السبعين علماً ولكل منها علماء ومصنفات ومناظرات ، وكان للعلوم اللغوية ارتباط بالعلوم الشرعية ، لا يستطيع الطالب اتقان الواحدة ان لم يتقن الاخرى

الفقه

ولما صار الاسلام دولة احتاج امراؤه الى ما يقضون به بين رعاياهم فى أحوالهم الشخصية ومعاملاتهم المدنية فكان معولهم على القرآن والحديث فاستنبطوا منهما الشريعة وأحكامها وهو الفقه بفروعه المشهورة علم النظر والمناظرة والجدل والفرائض والشروط والقضاء والتشريع والفتاوى ونحوها

السير والتاريخ

ولما اشتغل المسلمون فى جمع القرآن وجمع الاحاديث احتاجوا الى تحقيق الاماكن والاحوال التى كتبت بها أو قيلت فيها الاحاديث فعمدوا الى جمع السيرة النبوية ودونوها واضطروا لتحقيق مسائل الحديث والفقه والنحو والادب الى البحث فى أسانيدها والتفريق بين ضعيفها ومتينها فجرهم ذلك الى النظر فى الرواة وتراجمهم وسائر أحوالهم وقسموا رواة كل فن الى طبقات ، فتألف من ذلك تراجم العلماء والادباء والفقهاء والنحاة وغيرهم مما يعبرون عنه بالطبقات كطبقات الشعراء وطبقات المفسرين أو النحاة أو الفقهاء أو الحفاظ أو النسابين أو غيرهم . وكان ذلك أساً لعلم التاريخ وزد على ذلك ما فى القرآن من الآيات الحاثة على الاشتغال بالتاريخ أو بالاخبار للعبرة والموعظة كقوله جل ذكره « لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب »

الجغرافيا

ومن الاسباب التى ساعدت على وضع علم الجغرافيا وتقويم البلدان الاسفار فى طلب الحديث من حملته والحج الى مكة والرغبة فى تطبيق القواعد الفقهية ويفتقر ذلك الى معرفة حال البلاد وكيفية فتحها صلحاً أو عنوة وقد جر ذلك الى تعرف البلاد ومواطنها ومع ذلك فان فى القرآن نصوصاً تحض على طلب هذا العلم كقوله جل جلاله «أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور» وقوله «قل سيروا فى الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وغير ذلك . وقد ذكرنا فضيلة التاريخ والجغرافيا فى صدر المقصد من هذا المؤلف

الخطابة

هذا ما كان من تأثير القرآن فى آداب الجاهلية وهناك تأثير أحدثه القرآن أيضاً فى الآداب التى كانت شائعة قبل الاسلام فغير أسلوبها ورقاها وأهمها الخطابة والشعر من الفنون الادبية الجاهلية التى زادها الاسلام رونقاً وبلاغة وارتفعت زمن الصحابة والتابعين والفضل فى ذلك عائد للكتاب المبين من وجوه منها أن القرآن وان كان نزل بلغة القوم التى بها يتخاطبون وبفصاحتها يتفاخرون الا أن أساليبه العالية أعجزت فصحاءهم وأخذت بمسامع قلوبهم وأكسبتهم ملكة من البلاغة فى تحسين الاساليب العالية ، ولذا كانوا يعيبون الخطيب المصقع اذا لم يكن فى كلامه شىء من آداب القرآن . روى الحافظ عن الهيثم بن عدى أنهم ــ يعنى العرب ــ كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع آية من آى القرآن فان ذلك مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع ومنها ما جاء فى القرآن من الترغيب والترهيب على الاسلوب العجيب البالغ حد الاعجاز فى التأثير على الضمائر والاخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن فى أساليب الوعظ الخطابى عند حلول الازمات والحاجة الى تأليف قلوب الجماعات حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ما لا يدفع بالبيض المرهفات ، ويملك بها من قلوب الرجال ما لا تملكه البدر [1] كما صنع أبو بكر رضى الله عنه فى خطبته يوم السقيفة التى امتلك بها قلوب المهاجرين والانصار وصرف عن الامة فتنة هى من الامور الكبار ، وكان الخطباء فى صدر الاسلام يخطبون الناس عند طروء كل حادث جلل فلا تقييد لوقت ولا تكليف لقول فكانوا يجمعون المسلمين تارة لاعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ووقتاً لتحذيرهم وآخر لوعظهم وتذكيرهم

(١) قوله البدر جمع بدرة وهى الكمية العظيمة من المال

الشعر

أما الشعر فقد كان له أعظم التأثير في قلب العربي يحركه كما يحرك الهواء ريشة في الجو وكان عندهم بمثابة الجرائد في هذا الوقت ، ينطق الشاعر عندهم بكلمته فتتلقاها الاسماع وتدور بعد ذلك على ألسنتهم ، وكانت أسواقهم التي بها يجتمعون لالقاء أشعارهم ومبادلة متاجرهم بالقرب من البيت الحرام وهي عكاظ ومجنة وذو مجاز

وبالجملة فان للقرآن تأثيراً عظيم الاهمية لم يوفق لغير القرآن من الكتب الدينية في الامم الاخرى وفي آداب اللغة العربية الفصحى وفي أخلاق أصحابه ممن سواه لانهم مكلفون بحفظه قبل كل علم وهم أطفال وهو داخل في كل شيء من الامور الدينية والدنيوية وأساس شرائعهم القضائية وقاعدة معاملاتهم اليومية وأحوالهم العائلية حتى الطعام والشراب واللباس والنوم والغسل وكل شيء يمكن استنباطه منه وتجد له مثلا فيه . وهذا لا تراه في غيره من الكتب السماوية

فصل

اذكر فيه الوازع والحرية

فأقول ان الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا أرشد اليها وحث عليها . والشرائع انما شرعت للسعادة البشرية وقوام الحالة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الارادة بل يماشي الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم فيها حق من حقوق الحرية ما دامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه أمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيمناً عليه فالحرية متيدة بقيد نفسي وخارجي فالنفسي هو الزاجر الديني والفضيلة الذاتية في مطاوعة الزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية والخارجي هو الوازع وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون وليس في كلا القيدين معنى العبودية أو منع الحرية وانما هو امساك النفس عن الاندفاع في تيار الهوى الذي يلحق الانسان بالبهائم فهاته الفضيلة وسط وطرفاها رذيلة افراط وتفريط وكلاهما رجوع البهيمية فالحرية بالقيد المذكور فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتخلصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الانسانية التي سوغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تترك بارادة سواه مالكا لثمرة عمله لا حق لآخر بحرمانه منها مالكا لامنه لا لسلطان آخر يسلب

منه ذلك ، ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسعى ليموت هو ويحيي من عداه

البشارة بالسعادة والنذارة بالشقاوة

والبشارة المطلقة لاتكون الا بخير (١) والانذار الابلاغ ولا يكون إلا فى التخويف . اذا علمت ذلك فاعلم أن الشريعة جاءت بها الرسل لتدعو الناس الى السعادة والنجاة من الشقاوة قال تعالى : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين » فالسعادة تكون بالاقرار لله تعالى بالوحدانية ولمحمد بالرسالة والاتباع لما جاء به وسنه من فعل المأمورات واستجلاب الفضائل واجتناب الرذائل وجمع الكلمة وبسط العدل ورفع مقام العلم واستعمال غاية الجهد فى اتخاذ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . قال عز كاله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » مامن شيء يحتاج اليه الناس فى أمر دينهم مما يجب أن يترك أو يؤتى إلا وقد اشتملت عليه هذه الآية . فى روح المعانى أن الآية كما أخرج البخارى فى الأدب والبيهقى فى شعب الايمان والحاكم وصححه عن ابن مسعود : أجمعُ آية للخير والشر . وأخرج أبو نعيم عن عبد الملك بن عمير قال : بلغ أكثم بن صيفى مخرج النبى ﷺ فأراد أن يأتيه فأبى قومه فانتدب رجلين فأتيا رسول الله ﷺ فقالا نحن رسل أكثم يسألك من أنت وما جئت به ؟ فقال النبى ﷺ « أنا محمد بن عبد الله عبدُ الله ورسوله » ثم تلا عليهم هذه الآية . قالوا ردد علينا هذا القول ، فردد عليه الصلاة والسلام حتى حفظوه فأتيا أكثم فأخبراه ، فلما سمع الآية قال : إنى لأراه يأمر بمكارم الأخلاق وينهى عن مذامها فكونوا فى هذا الأمر رأساً ولا تكونوا فيه أذنابا . وروى عن ابن عباس أن هذه الآية كانت سبب استقرار الايمان فى قلب عثمان بن مظعون بعد أن أسلم محبة فى النبى ﷺ . ولجمعها ماجمعت أقامها عمر بن عبد العزيز حين آلت الخلافة اليه مقام ما كان بنوأمية يجعلونه فى اواخر خطبهم من سب على كرم الله وجهه وكان ذلك من أعظم مآثره رضى الله عنه . وقال غير واحد : لو لم يكن فى القرآن غير هذه الآية الكريمة لكفت فى كونه تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين . ولعل ايرادها عقب قوله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً » للتنبيه عليه . انتهى باختصار

أما الشقاوة فانها تكون باجتناب المأمورات وارتكاب الرذائل والمحرمات واتباع البدع والشهوات وايثار اللذات كالفجور وقول الزور وشرب الخمور وحب الظهور والدخول تحت معاصى الله ومساخطه جهلا باستدراج الله وأمناً لمكره . قال جل ذكره « وضرب الله مثلا

(١) قوله المطلقة : وتكون بالشر اذا كانت مقيدة كقوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم »

قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وقال « واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » فى روح المعانى : المراد بالفتنة الذنب . وفسر بنحو اقرار المنكر والمداهنة فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع . وفيه عند قوله عز من قائل « يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم » أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « ثلاث هن رواجع : المكر والنكث والبغى » ثم تلا عليه الصلاة والسلام « يا أيها الناس انما بغيكم على أنفسكم » « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » « ومن نكث فانما ينكث على نفسه » وأخرج ابن مندويه عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « لو بغى جبل على جبل لدك الباغى » والبغى هو الظلم الظاهر الذى لايخفى قبحه على أحد . وفى ذلك من الزجر مالا يخفى اه

لايأمن الدهرَ ذو بغى ولو ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل

فصدور مثل تلك المخالفات سالبة للنعم جالبة للنقم وإثارة الفتن والمصائب والاحن وفقد الراحة والهوان وقلة العمران وخراب الديار والمنازل والفناء فى الشعوب والقبائل . قال تعالى « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » والخلاصة ان السعادة والشقاوة مقترنتان بالعمل الفاسد والصالح وتترتب عليهما فى الدنيا ماقد علم وفى الآخرة الجنة وجهنم

خلاصة

فيما حصل لرسول الله ﷺ وهو بمكة عند ما أعلن بالرسالة

وما حصل لمن آمن به

فى كتاب الاعتصام أن رسول الله ﷺ بعثه الله تعالى على حين فترة من الرسل وفى جاهلية جهلاء لاتعرف من الحق رسماً ولاتقيم به فى باب مقاطع الحقوق حكما ، بل كانت تنتحل ما وجدت عليه آباءها وما استحسنه أسلافها من الآراء المنحرفة والنحل المخترعة والمذاهب المبتدعة . فحين قام فيهم ﷺ بشيراً ونذيراً وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيرا فسرعان ما عارضوا معروفه بالنكر وغيروا فى وجهه صوابه بالافك والمكر ونسبوا اليه إذ خالفهم فى الشرعة ونابذهم فى النحلة كل محال ورموه بأنواع البهتان ، فتارة يرمونه بالكذب وهو الصادق المصدوق الذى لم يجربوا عليه قط خبراً بخلاف مخبره ، وآونة يتهمونه بالسحر وفى علمهم أنه لم يكن من أهله ولا ممن يدعيه ، وكرة يقولون انه مجنون مع تحققهم بكمال عقله

وبراءته من مس الشيطان وخبله ، واذا دعاهم الى عبادة المعبود بحق وحده لاشريك له قالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ان هذا لشيء عجاب » مع الاقرار بمقتضى هذه الدعوة الصادقة « فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين » واذا أنذرهم بطشة يوم القيامة أنكروا مايشاهدون من الأدلة على امكانه وقالوا « أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » واذا خوفهم نقمة الله قالوا « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » اعتراضاً على صحة ماأخبرهم به مما هو كائن لامحالة ، واذا جاءهم بآية خارقة افترقوا فى الضلالة على فرق واخترقوا فيها لمجرد العناد مالا يقبله أهل التهدى الى التفرقة بين الحق والباطل كل ذلك قصداً منهم الى التأسى بهم والموافقة على ماينتحلون اذا رأوا خلاف المخالف لهم فى باطلهم رداً لما هم عليه ونبذاً لما شدوا عليه يد الظنة واعتقدوا اذا لم يتمسكوا بدليل أن الخلاف يوهن الثقة ويقبح جهة الاستحقاق وخصوصاً حين اجتهدوا فى الانتصار بعلم فلم يجدوا أكثر من تقليد الآباء ، ولذا أخبر الله تعالى عن ابراهيم عليه السلام فى محاجة قومه « ماتعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون . قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون » فحادوا كما ترى عن الجواب القاطع المورد مورد السؤال الى الاستمساك بتقليد الآباء . وقال الله تعالى « أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون . بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون » فرجعوا عن جواب ما ألزموا به الى التقليد . فقال تعالى « قل أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم » فأجابوا بمجرد الانكار ركوناً الى ماذكروا من التقليد لابجواب السؤال ، فكذلك كانوا مع النبي ﷺ فأنكروا ماتوقعوا معه زوال مابأيديهم لانه خرج عن معتادهم وأتى بخلاف ما كانوا عليه من كفرهم وضلالهم حتى أرادوا أن يستنزلوه على وجه السياسة فى زعمهم ليوقعوا بينهم وبين المؤالفة والموافقة ولو فى بعض الأوقات أو فى بعض الاحوال أو على بعض الوجوه ويقنعوا منه بذلك ليقف لهم بتلك الموافقة واهى بنائهم فأبى عليه السلام إلا الثبوت على محض الحق والمحافظة على خالص الصواب وأنزل الله تعالى « قل ياأيها الكافرون لاأعبد ماتعبدون » الى آخر السورة فنصبوا له عند ذلك حرب العداوة ورموه بسهام القطيعة وصار أهل السلم كلهم حرباً عليه وعاد الولى الحميم عليه كالعذاب الاليم ، فأقربهم اليه نسباً كان أبعد الناس عن موالاته كأبى جهل وغيره وألصقهم به رحماً كانوا أقسى قلوباً عليه ؛ ومع ذلك فلم يكله الله الى نفسه ولا سلطهم على النيل من أذاه إلا نيل المصدقين بل حفظه الله وعصمه وتولاه بالرعاية والكلاءة حتى بلغ دعوة ربه ، ثم مازالت الشريعة فى أثناء نزولها وعلى توالى تقريرها تبعد بين أهلها وبين غيرهم وتضع الحدود بين حقها وبين ما ابتدعوا لكن على وجه من الحكمة عجيب وهو التأليف بين أحكامها وبين أكابرهم فى أصل الدين الاول الاصيل . فى العرب

نسبتهم الى أبيهم ابراهيم عليه السلام وفى غيرهم لأنبيائهم المبعوثين فيهم كقوله تعالى بعد ذكر كثير من الأنبياء : « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » وقوله « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين » وما زال عليه الصلاة والسلام يدعو اليها فيثوب اليه الواحد بعد الواحد على حكم الاختفاء خوفا من عادية الكفار زمان ظهورهم على دعوة الاسلام فلما اطلعوا على المخالفة أنفوا وقاموا وقعدوا فمن أهل الاسلام من لجأ الى قبيلة تحميه على اغماض أو على دفع العار فى الاخبار ومنهم من فر من الاذاية وخوف الفتنة هجرة الى الله وحبا فى الاسلام ومنهم من لم يكن له وزر يحميه ولا ملجأ يركن اليه فلقى منهم من الشدة والغلظة والعذاب أو القتل ماهو معلوم ثم لما وقعت المؤامرة على قتله وأعلمه الله بذلك وأمره بالخروج لدار هجرته وهى المدينة المنورة هاجر اليها ﷺ واستمر تزيد الاسلام واستقام طريقه مدة حياة النبي ﷺ ومن بعد موته اه اعتصام

وزبدة القول ان رسول الله ﷺ مكث فى مكة من وقت النبوة الى أن هاجر الى المدينة اثنى عشر سنة وخمسة أشهر وأياما اذا اعتبرنا آخر يوم لها هو يوم الوصول الى قباء أنزل عليه فى أثنائها معظم القرآن والذى نزل منه بمكة ثلاث وتسعون سورة والباقى وهو اثنان وعشرون سورة نزلت بالمدينة ويمتاز المدنى من القرآن عن المكى بأمرين الأول مافيه من قصص الغزوات وأسبابها وما كان فيها مما يصح درساً نافعاً للمسلمين والثانى ما تناول من الشرائع الاجتماعية والدينية والمراد بالدينية ما شرعه لاصلاح النفوس وتهذيبها وهى التى يطلق عليها المسلمون العبادات . والاجتماعية ما شرع ليكون أساساً لمعاملات الناس بعضهم مع بعض وأهم ما جاءت به الآيات المكية التوحيد ورفض الأوثان والاصنام فلا يكون بين العبد وربه واسطة واثبات يوم آخر يجازى فيه كل امرئ بعمله ان خيراً فخير وان شراً فشر وبيان الخصال التى تقرب الى الله ولا تبعد منه وعبادات عملية تربطهم بالله وتوجههم الى نحو الخير وفى آخر أيامه بمكة أذن له بالقتال والاذن به لم يشرع الا دفعاً عن أنفسهم وتأميناً للدعوة من أن تقف الفتنة فى طريقها اه باختصار من محاضرات الخضرى

وقوله اذا اعتبرنا . كان وصوله ﷺ الى قباء يوم الاثنين وأقام بها الى يوم الجمعة ثانى عشر ربيع . واعلم ان من المقرر ان وظيفة الرسل تبليغ الشرائع وتقريرها على وجه يجمع اليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسل لمن يخلفه الا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنة الرسل . ومن المعلوم ان مؤازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تتخلف سواء عن الشرائع الالهية أو الأوضاع البشرية وقد ترتب عليها قيام الدول فى كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذى يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة الى حدود

الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق عن الرسل أولى الشرائع « ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وفى ذلك من الاشارة الى ملازمة القوة للدين ما لا يخفى ارهاباً للناس وكبحاً للنفوس التى يقودها مجرد الارشاد واللين وهاته القوة انما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة . قال الزهرى أول آية نزلت فى الاذن بالقتال قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير » فشرع ﷺ حينئذ فى تهيئة الجيوش وبعث البعوث والسرايا فغزا بنفسه الكريمة هو وأصحابه حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا أفواجا وكان عدد مغازيه عليه الصلاة والسلام ثمانياً وعشرين ، قاتل فى ثمان أو تسع منها بنفسه بدر وأحد والمريسيع والخندق وقريظة وحنين وفتح مكة الذى هو الفتح الاعظم وخيبر والطائف وغزوة بدر الكبرى وهو يوم الفرقان الذى أعز الله فيه الاسلام وأهله وأذل فيه الشرك وأهله . ومغازيه وسراياه مذكورة فى كتب السير وغيرها ، غزوة غزوة ، وسرية سرية ، آخرها سرية أسامة بن زيد التى جهزها ﷺ فى مرضه الذى توفى فيه ونفذها بعده أبو بكر رضى الله عنه وسيأتى خبرها . وما أشير اليه من الغزوات والسرايا وتبليغ الدعوة وأسباب النزول ومعجزاته وفضائله وشمائله وسيرته وغير ذلك مما شرفه الله به وما حصل له من نشأته الى وفاته مذكور على وجه التفصيل فى كتب السنة والسير المختصة لهذا الشأن بأبين بيان وأفصح لسان

خطبته عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع

فى التاسع من ذى الحجة من السنة العاشرة توجه ﷺ الى عرفة وهناك خطب خطبته الشريفة . واليك نصها :

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد ايها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم ، فانى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . أيها الناس ، ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم اشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . ان ربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب . وان دماء الجاهلية موضوعة وان أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث . وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ، ان

الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون بل تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ، ان النسىء[1] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والارض منها أربعة حرم ثلاث متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ، ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ، ان لنسائكم عليكم حقاً ولكم عليهن حق أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيراً . ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ، انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس منه ألا هل بلغت اللهم اشهد فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فانى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله ألا هل بلغت اللهم اشهد . أيها الناس ، ان ربكم واحد وان أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى ألا هل بلغت اللهم اشهد ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس ، ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من ادعى لغير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا . والسلام عليكم ورحمة الله

وفى هذا اليوم امتن الله على المؤمنين بقوله فى سورة المائدة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » فلا غرابة ان اتخذه المسلمون عيداً ويوماً سعيداً يظهرون فيه شكر الله على هذه النعمة الكبرى . انتهى نور اليقين

ذكر مرضه ووفاته ﷺ

روى الشيخان عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال : ان عبداً خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده

---

(١) قوله النسىء كانت العرب تحرم أربعة أشهر ثلاثة متواليات ذى القعدة وذى الحجة والمحرم وشهر رجب ، وكانوا ربما استطالوا هذه الاشهر المتوالية لحاجتهم الى الحرب والقتال فأحلوا المحرم وحرموا صفراً من العام المقبل فهذا هو الذى عابه القرآن عليهم لاتباعهم الهوى فى عقيدتهم

فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال : يارسول الله فديناك بآبائنا وأمهاتنا . قال فعجبنا له وقال الناس : أنظروا لهذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه الله من زهرة الدنيا ماشاء وبين ماعنده وهو يقول فديناك بآبائنا وأمهاتنا ؟ قال : فكان رسول الله ﷺ هو المخير ـ وكان أبو بكر أعلمنا به ـ فقال النبي ﷺ « ان من آمن الناس على بصحبته وماله أبا بكر ولو كنت متخذاً من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن أخوة الاسلام لايبقى فى المسجد خوخة الا سدت الا خوخة أبى بكر » وكانت هذه الخطبة فى ابتداء مرضه الذى مات فيه ولما اشتد به وجعه ﷺ قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس ، قالت عائشة : يا رسول الله ان أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لايسمع الناس من البكاء . قال مروا أبا بكر فليصل بالناس . فعاودته مثل مقالتها ، فقال انكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » رواه الشيخان وأبو حاتم واللفظ له . وعند سالم بن عبد الله الاشجعى قال : « لما مات رسول الله ﷺ كان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأخذ بقائم سيفه وقال لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ الا ضربته بسيفى هذا . قال فقالت الناس . ياسالم أطلب لنا صاحب رسول الله ، قال فخرجت الى المسجد فاذا أنا بأبى بكر رضى الله عنه فلما رأيته أجهشت البكاء أى تهيأت . فقال ياسالم أمات رسول الله ﷺ ؟ فقلت ان هذا عمر بن الخطاب يقول : لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ الا ضربته بسيفى هذا . قال فأقبل أبو بكر حتى دخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فرفع البرد عن وجهه ووضع فاه على فيه واستنشى الريح ثم سجاه ، والتفت الينا فقال : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ـ الآية » وقال « انك ميت وانهم ميتون » أيها الناس : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت . قال عمر : فوالله لكأنى لم أتل هذه الآيات قط » رواه الترمذى . قال الحافظ ابن رجب : كان ابتداء مرضه عليه الصلاة والسلام فى أواخر صفر وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوما فى المشهور . وفى نور اليقين : لحق بربه يوم الاثنين ١٣ ربيع الاول سنة ١١ الموافق ليونيه سنة ٦٣٣ وعمره ثلاث وستون سنة وثلاثة أيام وتقدم فى صدر المقصد ذكر نسبه وولادته كانت فى يوم الاثنين التاسع من ربيع الأول عام حادثة الفيل ولأربعين سنة خلت من ملك كسرى أنوشروان ويوافق العشرين من شهر ابريل سنة ٥٧١ حسبما حققه العالم الفلكى محمود باشا فى رسالة سماها نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الاسلام ، وقيل لاثنتى عشرة ليلة خلت منه ، وقيل لثمان وهو اختيار أكثر أهل الحديث

الحالة الاجتماعية على عهده ﷺ

اعلم ان الاسلام جاء قاضياً بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الافكار وتوحيد المقاصد فى عصر غلبت فيه نزغات الاهواء البشرية على النفوس ونزع الامم كافة منازع الوثنية ، فشوه

مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب ، وأوغل كافرهم فى مناحى الخيال لخلق من ضعيف التصور أشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والاقطار ، فتشكلت بأشكالها الأخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة فى الاجتماع والسياسة والدين ، فأصبح أهل الكتاب اليهود منهم بين قرائين وربانيين وسامريين وغيرهم ، والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لايعد من الفرق وغير أهل الكتاب من الامم الاخرى بين صابئة ومجوس وبراهمة ومالايعد من الفرق أيضاً .

فكان الانقسام والتجزؤ فى الاجتماع والسياسة تبعا للنحل قائما مع الأهواء ، فباتت الدول المجاورة للعربية وهى فارس والروم وماأدراك مافارس والروم أعرق الدول فى المدنية وأقصاها غاية فى التاريخ وأرهبها قوة فى الارض وأمدها ظلا عليها أشبه بشجرة تأصلت جذورها وتسامقت فروعها فى الفضاء ، فجاءتها ريح عاصف تعتعت أصلها وتلاعبت بأغصانها فقصفتها قصفا وعصفت فيها عصفا ، فزوت أفنانها وتفرقت مع الريح أغصانها ، فكانت دولة الروم غرضا ترمى اليها الاهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والاقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والارمن واليونان والرومان والصقالبة وغيرهم ، ودولة الفرس كذلك تفككت أعضاؤها وتجزأت وحدتها ، فاستبد عمالها بالاطراف وتنازعوا سلطان الاكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية ، ومن ثم انحلت من تلك الامم عرى وحدتها وتفرقت أهواء أهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها ، فانزوت شموس مدنيتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التى انتهت الى دولتى الفرس والروم وتعود حالة البشر الى أقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الانبياء هداة الامم من فوضى الاجتماع وتفرق الاهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله الا أن يتم كلمته فى خلقه ويجعل الانسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته ، لهذا أرسل الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ الى الناس كافة بشيراً ونذيراً وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، فامتثل محمد ﷺ أمر ربه ودعا الناس الى دينه ، دعاهم الى توحيد الله فلا يشركون به شيئا والى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيعا ينابذ بعضهم بعضاً والى توحيد الافكار فلا يجادلون فى الحق والى توحيد المقصد فلا يتخبطهم شيطان الاهواء وتفرقهم عن الحق نزغات النفوس والى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون

دعا أولا أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما كتب لملوكهم الذين ينتهى اليهم أمر الهمم بل الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس أجمعين وأجاب دعوة نبيه من أجاب وأقبل عليها من أقبل وكان جلهم من العرب

الذين لم يلبثوا أن تلقوا هذا الدين حتى ظهر أثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الامم اليهم لما أصبحوا عليه من الاخاء بعد التناقر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد بعد الشرك والتفقه بعد الغفلة والايمان بعد الكفر والتحابب بعد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون فى الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون فى القناعة بالكفاف عما بأيدى الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

على هذا الاساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الاخلاق وصف الله أتباع النبي محمد ﷺ فى كتابه العزيز « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » وقال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا » وقال تعالى : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » وقال تعالى . « انما المؤمنون اخوة » الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تمثل حالة المسلمين يومئذ تمثيلا وتدل على مبلغ تأثير الاسلام فى نفوس تلك الأمة البدوية التى أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل الى نور العلم والاجتماع

الطبقة الثانية

طبقة الصحابة رضى الله عنهم

فى البخارى باب فضائل أصحاب النبى ﷺ ومن صحب النبى ﷺ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه قال الحافظ ابن حجر العسقلانى قوله أصحاب أى بطريق الاجمال ثم التفصيل أما الاجمال فيشمل جميعهم وأما التفصيل فلمن ورد فيه شئ بخصوصه وقوله أو رآه هو الراجح اه وقال الأبى فى شرح صحيح مسلم الصحابة كلهم عدول لظاهر الكتاب والسنة واجماع من يقتدى باجماعه . القرطبى لم يختلف السلف فى أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر . أبو منصور البغدادى أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الاربعة على ترتيبهم فى الخلافة ثم تمام العشرة ثم أهل بدر ثم أهل أحد ثم بيعة الرضوان ومعنى التفضيل كثرة الثواب ورفع الدرجة وذلك لايدرك بالقياس وانما يدرك بالنقل اه باختصار ولشدة اعتناء الله تعالى بنبيه ﷺ وخصوصيته اليه وصف أتباعه فى كتابه العزيز فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » وقال « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا » وفى الصحيحين واللفظ لمسلم عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ « خير أمتى القرن الذين يلونى ثم الذين يلونهم ثم يجئ قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته » وفى البخارى عن أبى سعيد قال قال النبي ﷺ « لاتسبوا أصحابى فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد

ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه » قال البيضاوى و معنى الحديث لا ينال أحدكم بانفاق مثل أحد ذهبا من الفضل والاجر ما ينال أحدهم بانفاق مد طعام أو نصيفه اهـ

واعلم ان فضل الصحابة لا مطمع فيه لمن جاء بعدهم لانهم حازوا قصبة السبق بصحبته ﷺ قال ابن حجر الهيتمى فى شرح الهمزية أفضلية الصحابة لا يعادلها عمل انظره عند قوله :

ليته خصنى برؤية وجه زال عن كل من رآه الشقاء

وفى الاعتصام ان أصحابه ﷺ كانوا مقتدين به مهتدين بهديه وقد جاء مدحهم فى القرآن العظيم وأثنى على متبوعهم ﷺ الذى كان خلقه القرآن العظيم فقال « وانك لعلى خلق عظيم » فالقرآن انما هو المتبوع فى الحقيقة وجاءت السنة مبينة له فالمتبع للسنة متبع للقرآن ، والصحابة كانوا أولى الناس بذلك فكل من اقتدى بهم فهو من الفرقة الناجية الداخلة للجنة بفضل الله وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام : « ما أنا عليه وأصحابى » فالكتاب والسنة هو الطريق المستقيم وما سواهما من الاجماع وغيره فناشئ عنهما هذا هو المذهب الذى كان عليه النبى ﷺ وأصحابه وهو معنى ما جاء فى الرواية الاخرى من قوله « وهى الجماعة » لأن الجماعة فى وقت الاخبار كانوا على ذلك الوصف الا ان فى لفظ الجماعة معنى ستراه بعد ان شاء الله . وفى الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ « ان الله لا يجمع أمتى على ضلالة ويد الله مع الجماعة ومن شذ شذ الى النار » وأخرج أبو داود عن أبى ذر رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه » وعن عرجفة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيكون فى أمتى هنيات وهنيات ، فمن أراد أن يفرق أمر المسلمين وهم جمع فاضربوه بالسيف كائنا من كان » واختلف الناس فى معنى الجماعة المرادة فى هذه الاحاديث على خمسة أقوال (الأول) انها السواد الأعظم من أهل الاسلام وهو الذى يدل عليه كلام أبى غالب ان السواد الأعظم هم الناجون من الفرق بما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق ومن خالفهم مات موتة جاهلية سواء خالفهم فى شىء من الشريعة أو فى امامهم وسلطانهم فهو مخالف للحق قال بهذا أبو مسعود الانصارى وابن مسعود فروى انه لما قتل عثمان سئل أبو مسعود الانصارى عن الفتنة فقال عليك بالجماعة فان الله لم يكن ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة واصبر حتى تستريح أو يستراح من جائر وقال واياك والفرقة فان الفرقة هى الضلالة . وقال ابن مسعود عليكم بالسمع والطاعة فانها الحبل الذى أمر به ثم قبض يده وقال ان الذى تكرهون فى الجماعة خير من الذين تحبون فى الفرقة وعن الحسين قيل له أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ فقال أى والذى لا اله إلا هو ما كان ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة . فعلى هذا القول يدخل فى الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها ومن سواهم داخلون فى حكمهم لانهم تابعون لهم ومقتدون بهم فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبة الشيطان ويدخل فى هؤلاء جميع أهل البدع لانهم مخالفون لمن تقدم من الامة لم يدخلوا فى سوادهم بحال

(الثانى) انها جماعة أئمة العلماء المجتهدين فمن خرج عما عليه علماء الأمة مات ميتة جاهلية لان جماعة الله العلماء جعلهم الله حجة على العالمين وهم المعنيون بقوله ﷺ « لن تجتمع أمتى على ضلالة » وذلك ان العامة عنها تأخذ دينها واليها تفزع فى النوازل وهى تبع لها فمعنى قوله « لن تجتمع أمتى » لن يجمع علماء أمتى على ضلالة وممن قال بهذا عبد الله بن المبارك واسحاق بن راهويه وجماعة ممن سلف وهو رأى الاصوليين قيل لعبد الله بن المبارك من الجماعة الذين ينبغى أن يقتدى بهم فقال أبو بكر وعمر ولم يزل يحسب حتى انتهى الى محمد بن ثابت والحسن بن واقد فقيل هؤلاء ماتوا فمن الاحياء فقال حمزة السكرى فعلى هذا القول لامدخل فى النوازل بل فى السؤال عمن ليس بعالم مجتهد لأنه داخل فى أهل التقليد فمن عمل منهم بما يخالفهم فهو صاحب الميتة الجاهلية ولا يدخل أيضاً أحد من المبتدعين لان العالم لا يبتدع وانما يبتدع من ادعى لنفسه العلم وليس كذلك ولأن البدعة قد أخرجته عن نمط من يعتمد بأقواله وهذا بناء على القول بان المبتدع لايقتدى به فى الاجماع وان قال بالاقتداء به فيه ففى غير المسألة التى ابتدع لانهم فى نفس البدعة مخالفون للاجماع فعلى كل تقدير لا يدخلون فى السواد الأعظم رأساً

(الثالث) ان الجماعة هى الصحابة على الخصوص فانهم الذين أقاموا عماد الدين وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أصلا وقد يمكن فيمن سواهم . ألم تر قوله عليه السلام « ولا تقوم الساعة على أحد يقول الله الله[1] » وقوله « ولا تقوم الساعة الا على شرار الناس » فقد أخبر عليه السلام ان من الأزمان زماناً يجتمعون فيه على ضلالة وكفر قالوا وممن قال بهذا عمر بن عبد العزيز فروى ابن وهب عن مالك قال كان عمر بن عبد العزيز يقول : سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستكمال لطاعة الله وقوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر فيما خالفها من اهتدى بها مهتد ومن انتصر بها منصور ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه ماتولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا . قال مالك فأعجبنى عزم عمر . فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الاخرى فى قوله عليه السلام « ما أنا عليه وأصحابى » فكأنه راجع لما قالوه وما سنوه وما اجتهدوا فيه حجة على الاطلاق وبشهادة رسول الله ﷺ بذلك خصوصاً فى قوله فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين وأشباهه أو لانهم المتلقون لكلام النبوة المهتدون للشريعة الذين فهموا أمر دين الله بالتلقى من نبيه مشافهة على علم وبصيرة بمواطن التشريع وقرائن الاحوال بخلاف غيرهم فاذا كل ماسنوه

---

(١) قوله الله الله ضبطوها برفع اسم الجلالة فكل منهما مبتدأ حذف خبره ليفيد العموم أى حتى لا يبقى أحد يسند الى الله تعالى ثناء كقول الله أكبر ولا عملا كأن يقول الله شفا هذا العليل أو أغنى هذا الفقير وما أشبه ذلك

فهو سنة من غير نظر فيه بخلاف غيرهم فان فيه لأهل الاجتهاد مجالا للنظر رداً وقبولا فأهل البدع اذاً غير داخلين فى الجماعة قطعاً على هذا القول . (الرابع) ان الجماعة هى جماعة الاسلام اذا أجمعوا على أمر فواجب على غيرهم من أهل الملل اتباعهم وهم الذين ضمن الله لنبيه عليه السلام أن لايجمعهم على ضلالة فان وقع بينهم اختلاف فواجب تعرف الصواب فيما اختلفوا فيه قال الشافعى : الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا عن سنة ولا قياس وانما تكون الغفلة فى الفرقة وهذا القول يرجع الى الثانى وهو يقتضى أيضاً ما يقتضيه أو يرجع للقول الاول وهو الاظهر وفيه من المعنى مافى الأول من انه لابد من كون المجتهدين فيهم وعند ذلك لايكون مع اجتماعهم على هذا القول بدعة أصلا فهم اذاً الفرقة الناجية (الخامس) ما اختاره الامام الطبرى من ان الجماعة جماعة المسلمين اذا أجمعوا على أمير فأمر عليه السلام بلزومه ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم ثم نقل ما يؤيد ما ذهب اليه وحاصله ان الجماعة راجعة الى الاجتماع على الامام الموافق للكتاب والسنة . ثم قال فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والاتباع وانهم المرادون بالحديث فلتأخذ ذلك أصلا . اه اعتصام ببعض اختصار

فصل

فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ونبذة من فضائله

تقدم ذكر نسبه فى أول المقصد وسماه رسول الله ﷺ عبد الله وصديقا لانه بادر بتصديق النبى ﷺ ولقبه عتيقاً لجمال وجهه أو لأن رسول الله ﷺ قال له أنت عتيق من النار كما فى حديث رواه الترمذى ، فهو الصاحب فى الغار وفى السر والجهار فى الليل والنهار والسابق الاول فى الاسلام لم يعبد صنما قط توفيقاً من الله وفطرة فطره الله عليها ولاشرب الخمر قط ، والمقدم للصلاة فى الحياة النبوية والذى قدم نفسه وماله كله لله ، والخليفة الأول بعده باجماع من يعتد به ، والذى أنقذ الاسلام بعد الوفاة النبوية بعلمه وتوفيقه وعدله وصرامته فى الحق أنفذ وصايا رسول الله ﷺ كان قوالا بالحق صادعا بالامر سالكا سبيل الصدق غير مائل ولا متجاف قائما بالعدل لاتأخذه فى الله لومة لائم عفيفا لم يستأثر بحال ولا مال قط عن سنن الرسول ، وكان يوليه الرسول إمرة الجيوش موصوفا باصالة الرأى خطيبا مصقعا ، وقد وجهه عليه السلام أمير الحاج سنة تسع ولا يوجه الى هذه الوظيفة إلا من كان بالمكانة العليا فقها وإفتاء ليعلمهم مناسكهم ويفتيهم فيما لم يعلموا . قال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذى عن حذيفة « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » الحديث . قال أبو سعيد الخدرى كان أبو بكر أعلمنا . وقال الابى

فى شرح مسلم هو أول من أسلم من الرجال ثم أسلم على يديه من العشرة المشهود لهم بالجنة عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص ، وجملة ما حفظ عنه من الاحاديث مائة واثنان وأربعون حديثاً فى الصحيحين منها ثمانية عشر القرطبى ومن المقطوع به أنه حفظ من الاحاديث مالم يحفظ غيره وحصل له من العلم مالم يحصل لغيره لأنه الصفى والملازم فى الحضر والسفر والليل والنهار وانما لم يتفرغ للحديث والرواية لاشتغاله بالأهم ولان غيره قام عنه بذلك اه أجمعت الامة أنه هو المعنى بقوله تعالى « وسيجنبها الاتقى » قال الفخر الرازى : اذا ضمت هذه الآية الى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » انتج لنا أنه أفضل الامة بعد نبيها ﷺ . وقد ذكر البخارى واحداً وعشرين حديثاً فى فضائله منها : « ولو كنت متخذاً خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا » وتقدم نصه قريباً . وأخرج عبد الرحمن ابن حميد فى مسنده وأبو نعيم وغيرهما « ماطلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل من أبى بكر الا أن يكون نبياً »

قد علم مما تقدم قريباً أنه اقتضت حكمة هذا الدين أن يكون الخليفة رئيسه الدينى والسياسى لذا كان أول مقاصد المسلمين وأهل السابقة والمهاجرين بعد وفاة النبى ﷺ واجماع المسلمين على كلمة التوحيد متوجهاً الى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ويأخذ بالقوة على ذوى العبث بالنظام لانهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الامر اختلافا ليس فيه ما ينافى المصلحة الاسلامية بل غايتها تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجتمع على تأميره كلمة الجمهور الاعظم من المسلمين ليكون اثبت قدماً فى الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاختاروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر رضى الله عنه وقالوا نرضى لدنيانا مارضيه ﷺ لديننا حيث قال « مروا أبا بكر فليصل بالناس » وخلاصة القول فى انعقاد البيعة له رضى الله عنه أنه بينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبى ﷺ وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فأخبر باجتماع الانصار بسقيفة بنى ساعدة بقصد المفاوضة فى شأن الخلافة وأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الامر قبل افتراق الكلمة ، فأتوا الانصار وقد اجتمعوا بالسقيفة لمبايعة سعد بن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة . وكان مما قاله « يامعشر الانصار انكم لاتذكرون فضلا إلا وأنتم له أهل وان العرب لاتعرف هذا الامر الا لقريش هم أوسط العرب داراً ونسباً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين » وأخذ بيد عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح . فكثر حينئذ اللغط بين الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأى المهاجرين بجعل الخلافة فى قريش وان الامر اذا أجل النظر فيه ربما صعب حله ، فقام الى ابى بكر وقال : ابسط يدك أبايعك فبسط يده فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس

فى البخارى عن اسماعيل بن عبد الله مرفوعا الى عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله ﷺ مات وأبو بكر بالسنح ـ قال اسماعيل : تعنى بالعالية ـ فقام عمر يقول : والله ما مات رسول الله ﷺ . قالت وقال عمر : والله ما كان يقع فى نفسى الا ذاك وليبعثنه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم . فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله ، فقال بأبى أنت وأمى طبت حياً وميتاً ، والله الذى نفسى بيده لايذيقك الله الموتتين أبداً ، ثم خرج فقال أيها الحالف على رسلك . فلما تكلم أبو بكر جلس عمر ، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال : ألا من كان يعبد محمداً فان محمداً ﷺ قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لايموت . وقال « انك ميت وانهم ميتون » وقال « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » قال فنشج الناس يبكون . قال واجتمعت الأنصار الى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة فقالوا منا أمير ومنكم أمير . فذهب اليهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح فذهب عمر يتكلم فأسكته أبو بكر ، وكان عمر يقول والله ما أردت بذلك الا انى قد هيأت كلاما قد أعجبنى خشيت أن لايبلغه أبو بكر . ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس فقال فى كلامه: نحن الامراء وأنتم الوزراء . فقال حباب بن المنذر : ألا والله لانفعل منا أمير ومنكم أمير . فقال أبو بكر لا ولكنا الامراء وأنتم الوزراء هم أوسط العرب داراً وأعرفهم أحسابا فبايعوا عمر ابن الخطاب أو أبا عبيدة بن الجراح . فقال عمر : بل نبايعك أنت فأنت سيدنا وخيرنا وأحبنا الى رسول الله ﷺ ، فأخذ عمر بيده فبايعه وبايعه الناس . فقال قائل : قتلتم سعد بن عبادة . فقال عمر : قتله الله »

البيعة هى العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهد أميره على أنه سلم له النظر فى أمر نفسه وفى أمور المسلمين لاينازعه فى شىء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره . فى صحيح مسلم « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره على أن لا اثرة علينا وعلى أن لاننازع الأمر أهله وعلى أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم »

خطبة أبي بكر رضى الله عنه

لما استقرت الخلافة لأبى بكر صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس قدوليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى ، الصدق أمانة والكذب خيانة والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ منه الحق والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق ان شاء الله ، لايدع احد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل ، أطيعونى

ماأطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله

هذا كلام صدر من أول خليفة فى الاسلام يمثل معنى الرئاسة العامة فى الاسلام تمثيلا تستكن امامه القلوب التى اشرأبت الى حب العدل

الكلام على جيش اسامة رضى الله عنه

أول جيش بعثه أبو بكر رضى الله عنه جيش أسامة بن زيد رضى الله عنهما الذى كان جهزه رسول الله ﷺ وتوفى قبل بعثه وارتدت العرب حول المدينة بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، وقبل بعثه اجتمع أصحاب النبى ﷺ وقالوا لأبى بكر رضى الله عنه رد هذا الجيش كيف توجه هؤلاء وقد ارتدت العرب حول المدينة فأجابهم بقوله : والذى نفسى بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى ماردت جيشاً جهزه رسول الله ﷺ ولا حالت له لواء . وكأن بعض الصحابة استصغر أسامة أمير الجيش(١) وقالوا لعمر رضى الله عنه امض الى أبى بكر وأبلغه عنا واطلب منه أن يولى أمرنا أقدم سناً من أسامة . فلما بلغه عمر ذلك قال له : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله ﷺ وتأمرنى أن أعزله ؟ ثم خرج أبو بكر للجيش وأشخصهم وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب . فقال له أسامة : ياخليفة رسول الله لتركبن أو لانزلن ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه والله لانزلتَ ولا ركبتُ وما علىّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله . فلما اراد ان يرجع اوصى اسامة ومن معه فقال : لاتخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوا ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا لأكله . فسار أسامة فجعل لايمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا لولا ان لهؤلاء قوة ماخرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم ، فلقوهم فهزموهم واغار أسامة على ابنى موضع فى الجنوب الغربى من الشام وغنم وعاد بعد أربعين يوما وقيل بعد سبعين يوما . وهذا يدل على علو كعب أبى بكر رضى الله عنه فى السياسة وبعد نظره فى مهمات الامور فانه ظهر به للعرب بمظهر القوة واستهان بانفاذه بخطب الردة فنفث فى روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الأمرين

(١) قوله استصغر : انتقد جماعة على تأميره وهو شاب لم يتجاوز السابعة عشر من عمره على جيش فيه كبار المهاجرين والانصار (انظر نور اليقين)

فصل في الكلام على أهل الردة وقتالهم

اعلم أن من أعظم فضائل أبي بكر رضى الله عنه قتال العرب الذين ارتدوا بعد وفاة النبي ﷺ والذين منعوا الزكاة وقال والله لأجاهدنهم ما استمسك السيف بيدى وان منعونى عقالا أو عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله ﷺ . فقال له عمر رضى الله عنه : وكيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله فمن قالها عصم منى ماله ودمه الا بحقها وحسابه على الله تعالى » فقال أبو بكر رضى الله عنه والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال « الا بحقها » قال عمر : فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق . قال الشيخ محيى الدين بن العربي فى المسامرة : لما توفى رسول الله ﷺ وطلب أبو بكر رضى الله عنه الزكاة كفر بها قوم وقالوا قد كنا ندفع أموالنا الى محمد فما بال ابن أبي قحافة يسألنا ؟ والله لا نعطيه منها شيئاً أبدا . فاستشار أبو بكر أصحاب رسول الله ﷺ فاجمع القوم على التمسك بدينهم فى أنفسهم وأن يتركوا الناس مع ما اختاروه لأنفسهم ، وتخيلوا أنهم لا يقدرون على من ارتد من المسلمين فقال أبو بكر رضى الله عنه : لو لم أجد أحداً يؤازرنى لجاهدتهم بنفسى وحدى حتى أموت أو يرجعوا الى الاسلام ، ولو منعونى عقالا مما كانوا يعطونه رسول الله ﷺ لجاهدتهم حتى ألحق بالله تعالى . فلم يزل أبو بكر رضى الله عنه يجاهد بأصحاب رسول الله ﷺ حتى عاد الناس جميعاً الى الاسلام ودخلوا فيه كما خرجوا منه

نهض رضى الله عنه بعزيمة ماضية ، وحكمة سامية ، ونهض لنهضته رجال قريش فاستقبلت بصدورها حوادث الردة المريعة ونيرانها المتأججة ، وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة وخاصة الا ثقيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والانصار وثقيف وبعض الاحلاف ذلك العجاج الذى يرتج بأهل الردة ارتجاجا وخاضت بخيلها ورجلها حروب القوم بحراً أجاجا . ولم يلبث أبو بكر رضى الله عنه أن أطفأ نيران الردة برجال قريش وأمثالهم حتى رمى بهم جيوش القياصرة وجنود الاكاسرة وتابعه على ذلك عمر رضى الله عنه فكان من قوادها فى استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التى شيدت فيها صروح الاسلام وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام منهم خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهرى وسعد بن أبي وقاص وأضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها الذين ذللوا الصعاب وقطعوا من العقبات ولاقوا من الاهوال ، ما لا يحلو بذكره انسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان . كما سترى ان شاء الله

بلغ بعزيمة أبي بكر رضي الله عنه وعظيم رأيه بعد إذ رأى ما أصاب المسلمين من الغم أن آلى على نفسه أن لا يدع العرب يقر لهم قرار الا والسيف آخذ برقابهم والاسلام ضارب بينهم بجرانه. وبينما هو يطاول في الامر انتظارا لرجوع أسامة وجيشه أعجلته عبس وغطفان وأسد وطيء، وكان بعضهم نازلا بذي القصة وبعضهم بالابرق فأرسلوا اليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم خائبين فرجعوا وأخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم وأعماهم الجهل عن أن مع المسلمين قوة الايمان واليقين وفيهم من الصناديد [1] وليوث الحرب الشجعان مثل عمر وعلي وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد خشى أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود وأمرهم بملازمة المسجد خوف اغارة من العدو فما لبثوا ثلاثا حتى طرق العدو المدينة غارة ليلا وخلفوا بعضهم بذي حسى ليكونوا لهم ردءاً. فوافوا ليلا الانقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم وأرسلوا الى أبي بكر فخرج بالمسلمين على النواضح فردوا العدو واتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى [2] فخرج عليهم أهل الردة بأنحاء قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهدهوها على الارض فنفرت ابل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع أحد منهم ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبئة فما طلع الفجر الا وهم والعدو على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار واتبعهم أبو بكر رضي الله عنه حتى نزل بذي القصة وكان أول الفتح ووضع فيها النعمان بن مقرن في عدد ورجع للمدينة، وقدم في أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهورهم ثم خرج فيمن كان معه فقام عليه علي والمسلمون وناشدوه الله ليقيم فأبى وقال والله لاواسينكم بنفسي. وصار الى ذي حسى وذي القصة حتى نزل بالأبرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ثم رجع للمدينة. فلما استراح أسامة وجنده بادر أبو بكر رضي الله عنه الى تسيير الجيوش الى أهل الردة فعقد أحد عشر لواء (الاول) لخالد بن الوليد وأمره بطليحة الاسدي ومالك بن نويرة (والثاني) لعكرمة بن أبي جهل وسيره لمسيلمة (والثالث) للمهاجر بن أبي أمية المخزومي القرشي وأمره بجنود العنسي في اليمن ومعونة الابناء على قيس ثم يمضي الى كندة بحضرموت (الرابع) لخالد بن سعيد بن العاص وبعثه الى مشارف الشام (الخامس) لعمرو بن العاص القرشي وأرسله الى قضاعة (السادس) لحذيفة بن محصن وأمره بأهل دبا (السابع) لعرفجة بن هرثمة الازدي وأمره بمهرة (الثامن) لشرحبيل بن حسنة حليف بني زهرة وأرسله في إثر

---

(١) صنديد بوزن قنديل السيد الشجاع وجمعه صناديد

(٢) قوله ذو القصة وذو حسى أماكن قرب المدينة وقوله دهدهوها أي نفخوها

عكرمة بن أبي جهل واذا فرغ يلحق بقضاعة (التاسع) لمعن بن جابر السلمي وأمره ببني سليم وهوازن (العاشر) لسويد بن مقرن وأمره بتهامة (الحادي عشر) للعلاء بن الحضرمي حليف بني أمية ووجهه الى البحرين

سير أبو بكر رضي الله عنه هؤلاء الامراء وكتب لهم عهداً كما كتب للمرتدين تركنا ذكرها اختصاراً . ثم انتهت حروب الردة بعد تذليل عقبات وأهوال فى أخبار طوال بانتصار جيوش المسلمين فى كل الوقائع انتصاراً باهراً وذهبت دعوة النبوة التى ظهرت بين العرب كأمس الدابر وهي التي ادعاها أربعة رجال وامرأة على عهد الرسالة الى نهاية أيام الردة وهم : الاسود العنسي فى اليمن ، وطلحة فى أسد وغطفان ، ومسيلمة فى بنى حنيفة ، ولقيط بن زرارة فى عمان ، وسجاح فى أخوالها من بنى بكر ورهطها من بنى تميم . ورجع العرب للركون بعد أن علموا ان الاسلام يعلو ولا يعلى عليه وان المسلمين قوم نصروا الله فنصرهم على اعدائهم ومكن لهم السلطان فى الارض وحصل لهم بذلك سعادة الدنيا والآخرة

لا ينكر ما لأبي بكر رضي الله عنه من حسن الاختيار بمن ولاهم حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة فى أحشاء بلاد العرب وجابوا أنحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالا وشطوط البحر الهندى جنوبا والعراق العربي وخليج فارس شرقا وشطوط البحر الاحمر ومضيق باب المندب غربا . ولم تكن غيبتهم إلا كما يغيب المرتاد للمناجع ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا فى جزيرة العرب دعوة القرآن وجمعوا سكانها على كلمة الايمان ونتج عن ذلك أن وقعت عصبية الاسلام فى قلوب العرب وأيقنوا أنه الدين الحق الذى لايفلح مناوئه ولا ينجح شانئه . فاقبلوا بأجمعهم اليه ، وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه

ثم التفت أبو بكر رضي الله عنه للفتوحات ورأى أن لا يدع لبعض المنافقين الذين لا يروق لهم سمو شأن الاسلام وقتا لدس سموم الفتنة فى جسم تلك الامة العظيمة التى جمعتها كلمة الاسلام وأن يشغلهم مع الجيوش الاسلامية بالفتح تعميما للدعوة الاسلامية وبثاً لروح العدل والحرية بين الامم ، فما هو الا أن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفئوا على الامم التى مزقت أحشاءها سيوف الاهواء والاوهام وقضى على مجدها القديم ظلم أرباب السيطرة على النفوس والاجسام فلم يلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا » ولفريق الصابئة ومن على نحلتهم من المشركين الاسلام أو الجزية أو السيف حتى اشرأبت لعدل سلطانهم أعناق الناس ودانت لدينهم الشعوب وخضعت لسلطانهم فعمروا المسالك وشادوا الممالك ومصروا والامصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للمظلوم حتى يرضى كما يأخذون على الظالم متى يتعدى

أول ما التفت اليه أبو بكر رضى الله عنه فتح العراق والذى حركه لذلك هو البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيبانى بن بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها و بقى وقومه على الاسلام وسهل اليه الامر ورغبه بغزوهم فكتب اليه أبو بكر رضى الله عنه عهداً وسار الى بلاده ثم ان أبا بكر رضى الله عنه استدعى خالد بن الوليد فى اليمامة سنة ١٢ وأمره بالمسير الى العراق وأن يبدأه من أسفله وكتب الى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذى كان على يده فتح الجزيرة وأرمينيا أن يأتى العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضاً رضي الله عنهم أن لايضرا بفلاحى العراق وأهل السواد حرصا منه على منابع الثروة وعلماً بأن العمران لاتقوم بدونه الدولة والفلاحة كما لايخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك . لما سار خالد الى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المثنى بثمانية آلاف ثم أمد أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار فقيل له أتمده برجل واحد فقال : لايهزم جيش فيه مثل هذا . وأمد عياضاً بعبد يغوث الحميرى وكتب الى المثنى يأمره بالسمع والطاعة لخالد وأمر مذعوراً بن عدى العجلى أن ينضم مع قومه الى خالد وكذلك سويد بن قطبة الذهلى من بكر وائل واستنفر رضى الله عنه العرب وأذن لعامتهم بالانضمام الى جيوش الفتح ، وكان لزعماء الردة منهم ـ كطليحة الاسدى وعمرو بن معدى كرب والسمط بن الاسود الكندى والاشعث بن قيس وأمثالهم ـ البلاء الحسن فى فتوح العراق والشام والاخلاص العظيم فى اعلاء كلمة الاسلام ومعظمهم استشهد فى أيام الفتوح

واختلف المؤرخون فى أول بلد قصده خالد فقيل الابلة وقيل الحيرة وان الابلة كان على عهد عمر رضى الله عنه وعليه فالحيرة هى أول فتح بعد وفاة النبى ﷺ ثم ان خالداً بعد أن استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التى كانت تحكم العراق من قبل الاكاسرة وقاعدتها الحيرة وأتم فتح العراق العربى بلداً بلداً وكان كلما فتح فتحاً وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمس الى أبى بكر مع خبر الفتح . ثم انصرف خالد بعد هذا الفتح الى الشام واستخلف المثنى بن حارثة على جند العراق

لما انتهى فتح العراق العربى وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم فى تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدخرون بها معدات القوة للاجهاز على ممالك الفرس انصرفت همة أبى بكر رضى الله عنه الى الشام التى هى مركز التجارة بين الشرق والغرب ومدخر الخيرات ، وكانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم وكان سلطانهم فى تقلص ونفوذهم فى اضمحلال ولما توجهت أنظاره الى فتحها استنفر المسلمين من أطراف البلاد العربية وأخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ، وفى مستهل صفر سنة ١٣ عقد ألوية فلواء ليزيد بن أبى سفيان ووجهه الى البلقاء ولواء لعمرو بن العاص ووجهه لفلسطين ولواء

لشرحبيل بن حسنة ووجهه الى الاردن ولواء لابى عبيدة بن الجراح ووجهه الى حمص وكان العقد فى بدء الأمر لكل أمير على ثلاثة آلاف فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مجموعهم أربعة وعشرين ألفاً ساروا ولهم قوة العزيمة والصبر والاعتماد على الله فى السر والجهر وعدم المبالاة بالحياة فى سبيل اعلاء كلمة الدين ونصرة الاسلام والتعفف عما بأيدى الناس وحماية المال والنفس واطلاق الحرية فى العوائد والدين وأضف الى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأى فمن يصاحبهم من رجال الاسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ كعمرو بن العاص وأبى عبيدة بن الجراح ومعاوية ويزيد ابنى أبى سفيان رضى الله عنهم ومن ورائهم مثل أبى بكر رضى الله عنه يمدهم بالرأى وينابيع النصائح وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد المذكور التى تعجز أقطاب السياسة وتنفع قادة الجيوش وساسة الأمم فى كل عصر، أوصاه بها لما شايعه ماشياً كما أوصى سائر الامراء، ونصها :

« انى قد وليتك لأبلوك وأجربك فان أحسنت رددتك الى عملك وزدتك وان أسأت عزلتك فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك وان أولى الناس بالله أشدهم توليا له وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا اليه بعمله وقد وليتك عمل خالد بن سعيد فاياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها واذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم اياه واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضا وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصل الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ولا تريهم فيروا خللك ويعلموا علمك وانزلهم فى ثروة عسكرك وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى لكلامهم ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك واسهر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار وتنكشف عنك الاستار وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك وأكثر مفاجآتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير افراط واعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها أيسر لها لقربها من النهار، ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجن فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعاً، ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ولا تجسس عليهم فتفضحهم : ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم، ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس، واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعهم وما حبسوا أنفسهم له اه

لما سار أمراء الاجناد المتقدم ذكرهم كتبوا الى هرقل عظيم الروم يدعونه الى الاسلام

أو الجزية أو الحرب — وهو يومئذ بالقدس — جمع له البطارقة وكبار القواد وشاورهم فى أمر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم فأبوا عليه إلا الحرب ، ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ فى اعداد الجنود والعدة وأرسل لكل أمير جيشاً ليشغل كل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه . أما أمراء المسلمين فانهم أوغلوا بجيوشهم فى أحشاء البلاد ولهم وقائع كثيرة قبل وقعة اليرموك كوقعة مرج الصفر على وزن سكر ووقعة اجنادين التى بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها وهو بآخر رمق ووقعة العربة من فلسطين وبصرى وحوران وغيرها

اقتحم المسلمون بجيوشهم البلاد اقتحام المجربين فى الحرب العارفين بمواقع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد ، فانهم أوغلوا فى جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه فى البلقاء مع يزيد بن أبى سفيان مما يلى الحجاز وطرفه الواحد فى الجنوب الغربى فى فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخر فى الجنوب الشرقى فى حوران وهو مع أبى عبيدة بن الجراح وفى الوسط بميلة الى الغرب وهو مع شرحبيل وهو فى الاردن بحيث يمد بعضهم من بعض بقرب ومن ورائهم يزيد يحفظ خط الرجوع ويديم النظر فى طرق المواصلات على هاته الصفة افتتح كل أمير مامر عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى أخذت الصيحة الروم من كل مكان فانتبهوا من غفلتهم فضرب هرقل البعث على العرب الذين هم تحت حمايته والروم فاجتمع لديه منهم زهاء مائة وخمسين ألفاً ولما تفرق المجاهدون فى البلاد وراعهم ماجمعه هرقل من الجموع استشاروا عمرو ابن العاص فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمع الامراء والجيوش باليرموك وكتبوا الى أبى بكر رضى الله عنه فأمدهم بخالد بن الوليد ولما وصل تأمر عليهم ورتب الجيوش ترتيباً على غاية من النظام وتعبئة يعجز عنها حذاق الامراء ثم نشب القتال بين الفريقين وكانت حركة عظيمة انجلت عن انكسار الروم وانهزامهم شر هزيمة بعد أن قتل منهم مقتلة عظيمة وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء الثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير منهم عكرمة ابن أبى جهل وابنه وسعيد بن الحارث بن قيس بن عدى وخالد بن سعيد وهم ممن أبلى بهذه الحرب ومنهم أبو سفيان بن حرب ذهبت فيها عينه وبينما هم فى اليرموك فى أشد حالات الحرب قدم البريد بخبر وفاة أبى بكر وتولية عمر رضى الله عنهما ومعه أمر بعزل خالد وتأمير أبى عبيدة فكتم هذا الخبر على المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولى الروم أدبارها . وقد اختلف المؤرخون هل جاء الخبر بموت أبى بكر والمسلمون فى اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا هل فتح شىء من الشام قبل اليرموك فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه او لا . ومما لاريب فيه ان جيوش المسلمين لما اوغلت فى القسم الجنوبى من الشام افتتحت كل مامرت عليه من البلاد وربما بلغت حمص شمالا ، إلا ان انجلاءهم بعد عن البلاد وتقهقرهم لليرموك جعل ذلك الفتح الاول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوهم ، لهذا عول المؤرخون فى سياق

أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك فى خلافة عمر رضى الله عنه . وفى كلا الحالين فان الفتح الحقيقى للديار الشامية تم فى زمن عمر . ولأبى بكر الفضل العظيم فى سبقه اليه واعداده مثل جيش اليرموك له ، وأما عزل خالد بن الوليد فالاصح أنه جاءهم على دمشق كما سترى بعد إن شاء الله . واختلف فى اليرموك هل كانت قبل وقعة اجنادين أو بعدها واليرموك من عمل الاردن وهو واد بناحية الشام واجنادين من عمل فلسطين

فصل

كان أبو بكر رضى الله عنه كثيراً مايعمل بما يشير به على رضى الله عنه عند بعث الجنود ولا يأذن له فى الخروج مع المجاهدين حرصاً على بقائه معه للانتفاع برأيه ومشورته ، وكذلك لم يأذن فى الخروج لعمر وعثمان رضى الله عنهما للاستعانة بكل منهما على تدبير أمور المسلمين ولا يفعل شيئاً الا بعد مشورتهم مع غيرهم من وجوه أصحاب النبى ﷺ

وكان رضى الله عنه من العلم بقوانين الشريعة والخبرة بوجوه السياسة فى منزلة لا يطاولها سماء ومع هذا لا يبرم أمراً فى حادثة الا بعد أن تتداولها آراء الجماعة من الصحابة . أخرج البغوى عن ميمون بن مهران قال : كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر فى كتاب الله فان وجد فيه ما يقضى بينهم قضى به وان لم يكن فى الكتاب وعلم من رسول الله ﷺ فى ذلك الأمر سنة قضى بها فان أعياه خرج يسأل المسلمين وقال أتانى كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله ﷺ قضى فى ذلك بقضاء فربما اجتمع اليه النفر كلهم يذكر من رسول الله ﷺ فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذى جعل فينا من يحفظ عن نبينا ، فان أعياه ان يجد فى سنة رسول الله ﷺ جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به . وكان عمر رضى الله عنه يفعل ذلك فان أعياه أن يجد فى القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبى بكر قضاء فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رءوس المسلمين فاذا أجمعوا على أمر قضى به

اولياته

من مناقبه الكريمة ومآثره العظيمة جمعه القرآن ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل الا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترىء فيه على الكذب على رسول الله ﷺ وهم جماعة القصاص والوعاظين الذين شوشوا على الأمة فى الدين والسياسة والاخلاق تشويشاً الله أعلم بما جر على الأمة من البلاء ولو لم ينهض أئمة الحديث وحفاظه أواخر القرن الثانى ومابعده الى تلافى هذا الخطب وتتبع الاسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع من الصحيح لكان الخطب أعظم والمصيبة أشد . أما القرآن فلله الحمد والمنة على أنه سبحانه تكفل بحفظه فقال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » ، وقال « كتاب لا يأتيه الباطل

من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » لهذا كان أول ما ألهم اليه أبو بكر النهوض الى جمعه من صدور الرجال و بعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفا واحداً منه تغيير أو تبديل وقد تقدم شرح ماذكر فى المقدمة ، وهو أيضاً أول من سمى خليفة وأول من أسلم من الرجال وأول من وضع بيت المال

ولما مرض رضى الله عنه مرضه الذى توفى فيه عهد بالخلافة لعمر رضى الله عنه . وكتب له عهداً فى ذلك ونصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم) « هذا ما عهد أبو بكر خليفة محمد ﷺ عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر انى استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه وإن جار و بدل فلا علم لى بالغيب والخير أردت فلا علم لى بالغيب ولكل امرىء ما اكتسب وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون »

توفى رضى الله عنه فى مرضه المذكور . روى الحاكم أن سبب موته وفاة رسول الله ﷺ كمداً بما يجرى ـ أى ينقص ـ حتى مات . قال الحافظ ابن حجر : وهو مرض السل . وأخرج الامام احمد عن عائشة رضى الله عنها « أن أبا بكر لما حضرته الوفاة قال : أى يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين . قال فان مت فى ليلتى فلا تنظروا فى الغد فان أحب الأيام والليالى الى أقربها من رسول الله ﷺ وتوفى من ليلته تلك وهى ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة فى السنة الثالثة عشر من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته أسماء كما أوصى وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر أربعاً ودفن الى جنب رسول الله ﷺ » . وأخرج ابن هشام عن ابن عروة عن أبيه : أن أبا بكر صلى عليه ليلا ودفن ليلا وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام ، وكان نقش خاتمه : نعم القادر الله

وكان فصيح اللسان قوى الحجة اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه روى عن الزبير بن بكار أنه قال سمعت بعض أهل العلم يقول أفصح خطباء رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق وعلى بن أبى طالب

خطبة على في تأبين أبى بكر رضى الله عنهما

أجمع الرواة أن أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله ﷺ وجاء على مسرعاً باكياً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم اسلاما وأخلصهم ايماناً وأشدهم يقيناً وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله ﷺ وأحدبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقاً وفضلا وهدياً وصمتا فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله ﷺ صدقت رسول الله حين كذبه الناس وواسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله فى كتابه صديقاً فقال « والذى جاء بالصدق وصدق به » تريد محمداً وتريدك ، كنت والله للاسلام حصناً وللكافرين ناكيا ، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك

ولم تجبن نفسك ، كالجبل لاتحركه العواصف ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً فى بدنك قويا فى دينك متواضعاً فى نفسك عظيما عند الله جليلا فى الارض كبيراً عند المؤمنين ، لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى ، فالضعيف عندك قوى والقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوى وتأخذ للضعيف ، فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك

﴿ تنبيه ﴾ اعلم أن الاخبار عن على رضى الله عنه بصحة خلافة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما وكونهما خيرى الأمة بعد النبى ﷺ ثبتت عنه من طرق كثيرة بروايات كثيرة من الثقات العدول منهم : ابنه محمد بن الحنفية بحيث يجزم من يتتبعها بصدور ذلك القول من على رضى الله عنه جزماً قاطعاً ليس فيه شك ولا ريب . قال الحافظ الذهبى : تواتر ذلك عن على رضى الله عنه ورواه عنه نيف وثمانون من أصحابه وصرح بذلك فى الخلوة والملأ وخطب بذلك على منبر الكوفة زمن خلافته مع حضور الجمع العظيم ، ولهذا اتفق الأئمة الاربعة وأئمة الحديث مثل البخارى ومسلم وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم وأئمة السلف وبقية أهل السنة والجماعة على اعتقاد صحة خلافته . قال سفيان الثورى : من قال ان علياً رضى الله عنه كان أحق بالخلافة من أبى بكر فقد خطأ أبا بكر وعمر والمهاجرين والانصار وما أراه يرتفع له مع هذا الاعتقاد عمل الى السماء . وأخرج الدارقطنى عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما مثل ذلك

الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر

اعلم أن الحالة الاجتماعية التى كانت على عهد الرسالة كانت كذلك فى عهد أبى بكر رضى الله عنه ، وقد نهض أبو بكر بعد الرسول ﷺ باتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً يعلم من سيرته . فرمى رضى الله عنه بالجيوش الاسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد إذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة على القوة فى عهد رسول الله ﷺ . فخالط المسلمون تلك الامم البالغة منتهى درجات الرفاهة والتنعم المنغمسة فى حمأ الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك فى أخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف الى تنكب المحجة الواضحة التى تركهم عليها نبيهم لا سيما وان القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه ، وكان جل أمره منصرفا الى اقامة شعائر الدين ، والتأدب بآداب النبى ﷺ خصوصاً فى خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف ، هذا مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى أحل الطيبات للمؤمنين ، وانما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بآداب النبوة وآدابه كى لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد فى الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الاخلاد الى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية وأنى يشغلهم شىء عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق وتآلف القلوب ، ونصرة العدل والحق ، ومواساة الضعيف والقيام بواجب الاخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فى أمة حديثة عهد فى الدين من قبل ولن يأتى أمة سواهم من بعد

روى الغزالى فى الاحياء : أن تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم أن كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »

كان أبو بكر رضى الله عنه خير قدوة للمسلمين وكان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفرة دخله من املاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشنوا فى مأكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التنعم بدخلهم . فى تاريخ المسعودى : لما قدم على أبى بكر زعماء العرب وأشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشى المثقل بالذهب والتيجان والحبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم . وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه الف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى فلما شاهد من أبى بكر ما وصفنا القى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى انه رؤى يوماً فى سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والانصار قال : أفأردتم أن أكون ملكا جباراً فى الاسلام لا والله لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع والزهد . قال المسعودى : وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر لا جرم أن قدوة الامم رؤساؤها ، وقادتها الى الخير والشر ملوكها ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكى بشقاء الحياة الا بملوكهم كما لم يرنا تسود قوم وتمتعهم بسعادة الحياة الا اذا استقام ملوكهم

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبى بكر رضى الله عنه على وجه الاجمال « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »

خلافة سيدنا عمر رضى الله عنه ونبذة من سيرته

الخليفة الثانى الفاروق الاعظم أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تقدم ذكر نسبه فى صدر المقصد . شب على الشجاعة والنجدة . كان المسلمون فى أوائله فى حاجة الى ذوى العصبية والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والذب عن نبيهم وكان ممن عرف

فى قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبى ﷺ يتوقع خيراً للمسلمين باسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال « اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام » يعنى أبا جهل . فاستجاب الله سبحانه دعاء نبيه ﷺ بأحب الرجلين اليه عمر بن الخطاب فأسلم فى ذى الحجة لمضى ست سنين من البعثة . أخرج الحافظ ابن الجزرى فى أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أنه قال قال لنا عمر بن الخطاب : أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء اسلامى قال كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فبينا أنا فى يوم شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة اذ لقينى رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الامر فى بيتك قال قلت وما ذاك قال اختك قد صبأت قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان فى طعامه وقد كان ضم الى زوج أختى رجلين قال فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا ؟ فقلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرءون القرآن فى صحيفة معهم فلما سمعوا صوتى اختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم قال فقامت المرأة ففتحت لى الباب فقلت يا عدوة نفسها قد بلغنى أنك صبأت وضربتها بشىء كان فى يدى فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل قد أسلمت قال فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب فى ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطينيه فقالت لا لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا المطهرون قال فلم أزل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى قال ثم رجعت الى نفسى فاذا فيها « سبح لله مافى السماوات والارض وهو العزيز الحكيم » قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع الىّ نفسى حتى بلغت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » حتى بلغت الى قوله « ان كنتم مؤمنين » قال فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فان رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال « اللهم أعز الاسلام بأحد الرجلين اما عمر بن الخطاب واما عمر بن هشام » قال فقلت لهم أخبرونى بمكان رسول الله ﷺ . فقالوا : هو ببيت أسفل الصفا وصفوه . قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب . قال وقد عرفوا شدتى على رسول الله ﷺ ولم يعلموا باسلامى ، قال فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب . قال فقال رسول الله ﷺ افتحوا له الباب فانه ان يرد الله به خيراً يهده . قال ففتحوا لى وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من رسول الله ﷺ ، فقال أرسلوه فأرسلونى فجلست بين يديه فأخذ بجميع قميصى فجذبنى اليه ثم قال :

اسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده . قال فقلت : أشهد أن لا إله الا الله وأنت رسول الله . فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة اهـ. وروى أن عمر لما أسلم قال يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل ؟ فقال رسول الله ﷺ : إنا قليل وقد رأيت ما لقينا . فقال عمر : والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالايمان . ثم خرج رسول الله ﷺ فى صفين من المسلمين حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ، ومن يومئذ سماه رسول الله ﷺ الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

أخرج الحاكم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم ، وأنزل الله « يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » . روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا » أخرجه فى أسد الغابة . وأخرج البخارى عن ابن مسعود أيضاً « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر » كان قواماً على الحق منافحاً عن رسول الله ﷺ مراقباً لاعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم اليه مبغضاً لمن أبغضه ، وكان النبى ﷺ يستشير أصحابه فى بعض الأمور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً لصدق لهجتهما وعظيم اخلاصهما ولهذا قال النبى ﷺ « ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه » رواه الترمذى . وفى رواية لأبى داود عن أبى ذر قال « إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به » وكان رضى الله عنه يرى الرأى فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته نيفاً وعشرين ، منها آية تحريم الخمر فانه لما قال : اللهم بين لنا فى الخمر بياناً شافياً نزلت آية التحريم . ومنها آية الحجاب ، ومنها آية الاستئذان فى الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال : اللهم حرم الدخول ، فنزلت آية الاستئذان . وفى البخارى خمسة عشر حديثاً فى فضائله . وأخرج أبو يعلى عن عمار بن ياسر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : أتانى جبريل آنفاً فقلت ياجبريل حدثنى بفضائل عمر بن الخطاب . فقال : لو حدثتك بفضائل عمر منذ لبث نوح فى قومه مانفدت فضائل عمر وان عمر حسنة من حسنات أبى بكر رضى الله عنهما وقال الابى سمى الفاروق لأنه فرق باسلامه بين الحق والباطل ونزل جبريل فقال يا محمد استبشر أهل السماء باسلام عمر . حفظ له من الحديث خمسمائة وسبعة وثلاثون حديثاً فى الصحيحين منها واحد وثلاثون . قال الشعبى : اذا اختلف الناس فخذوا بما قال عمر وقال : قضاة هاته الامة عمر وعلى وزيد بن ثابت وأبو موسى

تقدم أن أبا بكر رضي الله عنه عهد اليه بالخلافة فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة . ولما تلا كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والانصار . وقد قام رضى الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة

الامم وساسة الحكومات بل كان من عظيم أثره وأثر أبي بكر فى الخلافة الاسلامية أن كانا مثلا لما بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء أو خالف سيرتهما من الامراء . فى أسد الغابة عن على رضى الله عنه قال : ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما اتعاباً شديداً فذكرهما حزن للامة وطعن على الائمة اه . وحسب عمر رضى الله عنه من خلافته أن يكون مثلاً فى العدل وحجة على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً ان كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على أنه أعدل من ساس الامم وأعظم رجل فى الاسلام . روى أن معاوية رضى الله عنه قال لصعصعة بن صوفان : صف لى عمر . فقال : كان عالماً برعيته عادلا فى قضيته عاريا عن الكبر قابلا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب رفيقاً بالضعيف غير محاب للقوى وغير جاف للغريب والحاصل أن فضائله رضى الله عنه كثيرة جداً شهيرة خصت بالتأليف وسنقص عليك بعضها

فتوح الشام

قد علم مما تقدم أن أول عمل قام به عمر رضى الله عنه عزل خالد بن الوليد عن الامارة العامة وتوسيدها لابى عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه وعلم أن المسلمين انتصروا فى وقعة اليرموك ولما هزم الله جند العدو وفرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاخماس وسرحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبى الحميرى وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفر وهو يريد اتباع الفالة ولا يدرى يجتمعون أو يتفرقون فاتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدرى أبدمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الاردن فكتب فى ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقر الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبى عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها وكان هرقل قبل انكسار جيشه باليرموك باورشليم ولما جاء خبر انكسار جيشه رحل الى حمص

لما بلغ أبا عبيدة رضى الله عنه كتاب الخليفة بالذى ينبغى أن يبدأ به وهو دمشق امتثل وسرح عشرة قواد وبعث ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص وبعث علقمة بن حكيم ومسروقا فكانا بين دمشق وفلسطين والأمير يومئذ يزيد بن أبى سفيان فقدم خالد ابن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض بن أبى غنم وعلى الرجل شرحبيل بن حسنة فقدموا دمشق ونزلوا حواليها فكان أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية

ويزيد على ناحية فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً حتى تم فتحها والفضل فى ذلك لاولئك الامراء وبالخصوص خالد . واتفق كثير من الرواة والمؤرخين على ان الذى تولى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد وأمضاه أبو عبيدة بعد أن أطلعه على كتاب الخليفة بعزله على امارته وهذا يدل على ان خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل أتى وهم على دمشق وكتمه أبو عبيدة ريثما تم الصلح

تنبيه : — ومن جميل سياسة عمر انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله أن يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة وكان عماله جميعهم عرفوا باللين كأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم ومع شدته رضى الله عنه فقد كان يوصى عماله بالرفق والعدل وعدم الايغال فى العقوبة وبلغ به كره الايغال فى العقوبة أن أرسل الى أبى موسى الاشعرى وقد شدد فى العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

لما انتهى فتح دمشق أخذ أمراء الاجناد فى فتح بقية الشام قرية قرية ومدينة مدينة كعجلون وبيسان وطبرية ومرج الروم وحمص وبعلبك وبيروت وأجنادين وغزة ونابلس وبيت جبرين وايليا (أى بيت المقدس) . والذى عقد الصلح مع أهل بيت المقدس الخليفة عمر رضى الله عنه قدم بطلب من الاهالى وصلى الصبح ببيت المقدس وعقد الصلح بنفسه اجابة لمطلبهم ثم وقع فتح حماه واللاذقية وقنسرين وانطاكية وغيرها من البلاد السورية وتم هذا الفتح بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين فى غضونها من العناء أشده وبذلوا من الدماء ما جعل ثمن هذه البلاد غالياً ومقامها فى نظرهم عاليا وكان لرجالات قريش وأشرافها فى حرب الشام خاصة من الاثر العظيم والبلاء الجسيم ما لم يكن لقوم غيرهم فى الفتوحات الاخرى وقتل منهم عدد كثير لاسيما فى وقعة اليرموك وممن قتل منهم عكرمة بن أبى جهل وابنه وخالد بن سعيد وهشام بن العاص وسهيل بن عمرو وابان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال . روى الطبرانى أن النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبى سفيان وهند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان وبالجملة فقد لاقى المسلمون أشد الأهوال وصادموا عدواً استمات فى حوزة الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه

القواد الذين حضروا هاته الفتوحات وهم من أنجاد قريش وسادتها وممن كان له البلاء الحسن خالد بن الوليد وأبو عبيدة وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ومعاوية ووالدهما أبو سفيان وحبيب بن مسلمة وعياض بن غنم وعكرمة بن أبى جهل وسهيل بن عمرو وابان بن

سعيد والذين هم من غير قريش فذو الكلاع الحميرى وشرحبيل بن حسنة والقعقاع بن عمرو والسمط بن الاسود الكندى وعلقمة بن مجزز وعلقمة بن حكيم وعبادة بن الصامت ومالك بن الاشتر النخعى وأبو أيوب المالكى ومعاذ بن جبل وغيرهم وقد كان لهم حسن ترتيب للجيوش والمام بطرق البلاد وتفنن بأساليب الحرب وكان الخليفة وهو بالمدينة يصدر أوامره للامراء كيف يسيرون وأى المسالك يسلكون وأى البلاد يقصدون كأنما ينظر الى القطر على خريطة مصورة بين يديه

جغرافية سوريا

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (أى كيليكيا) من آسيا الصغرى وشرقا الفرات والبادية وجنوبا جزء من بلاد العرب ويقال له تيه بنى اسرائيل وغربا البحر المتوسط وقد قام فى هذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين والحثيين والآشوريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس والرومانيين واليونانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت دولة الرومانيين ودولة الاسلام فقد كان ابتداء دولة الرومان من سنة ٦٥ قبل المسيح الى سنة ٦٣٣ م حيث ابتدأ الفتح الاسلامى فى البلاد السورية وكانت نهايته سنة ٦٣٨ م أو سنة ١٧ هـ وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وكان على عهد الرومانيين مقسوما الى ثلاثة أقسام كبيرة وهى فلسطين وتوابعها وانطاكية وتوابعها ودمشق وتوابعها وكان القسم الشمالى منه يسمى سورية والجنوبى يسمى فلسطين فأطلق عليه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه الاسلام أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر الى أربعة أقسام الاول قسم الثغور وهى حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وقاعدته حمص والثانى دمشق والثالث الاردن وحاضرته طبرية والرابع فلسطين وهذا ينقسم الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته ايليا أى القدس

انتداب عمر رضى الله عنه لفتح العراق وفارس

اعلم ان عمر أول عمل قام به أيضا انتداب الناس لحرب الفرس وذلك ان المثنى بن حارثة رضى الله عنه كان منذ وفوده على أبى بكر رضى الله عنه فى أول خلافته يهون عليه أمر الفرس حتى ولاه قتالهم ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقى المثنى أميراً على ما وقع فتحه من العراق دفعه الاقدام الى أن يتوسع فى الفتح ويرمى بسهم المسلمين

بمملكة الأكاسرة و يسوخ ذلك الملك العريض فوفد على أبى بكر رضى الله عنه فى حال مرضه ففاوضه فى أمر الهجوم على فارس الا ان أبا بكر رضى الله عنه لم يسمه اجابة مطلبه لمرضه وأوصى عمر أن يندب الناس بعد توليته الخلافة مع المثنى و فى صبيحة الليلة التى دفن فيها أبو بكر قام عمر فانتدب الناس وأول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفى انتدبه رضى الله عنه أميراً على الجيش وخرج فى أوائل جمادى الآخرة سنة ١٣ ومعه سعيد بن عبيد وسليط بن قيس والمثنى ابن حارثة فتقدمهم للحيرة ووقع القتال بين المسلمين والعدو بالنمارق وكان النصر حليف المسلمين ولما انهزم العدو أخذ فى أثره الى كسكر ثم الى الحيرة ووقعت مقاتلة على جسر الفرات انهزم فيها المسلمون وقتل فيها أبو عبيد وسليط وجرح المثنى ولما انتهى خبر الهزيمة الى عمر رضى الله عنه اشتد عليه الامر ثم ان المثنى جمع القبائل التى حوله و بعث عمر رضى الله عنه البعوث وأمر عليهم أمراء كعرجفة بن هرثمة من زعماء العرب . أما الفرس فانهم لما أحسوا باجتماع العرب جمعوا كلمتهم بعد أن كانت فى حال ارتباك وجمعوا جيشاً كثيفاً بالبويب أميره مهران ثم التحم القتال بين الفريقين واشتد الحال الى أن آل الامر الى اضطراب جيش العدو وقتل مهران وتم ذلك بحسن قيادة البطل الجليل المثنى بن حارثة ومات من أعلام المسلمين فى هاته الوقعة ناس منهم خالد بن هلال ومسعود بن حارثة أخو المثنى ولما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت أمور الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلى من غزاته فرق المثنى جنوده فى السواد وأخذ يستخضع البلاد التى عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون ما شاءوا من متاع ومال و بلغت غاراتهم شرقا قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقعوا الرعب فى قلوب الأعداء حتى قام لذلك الفرس وقعدوا وأجمعوا على تأمير يزدجرد والتجهيز لحرب المسلمين ولما بلغ المثنى ذلك كتب للخليفة بذلك ولما وصل اليه الخبر كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على الاستنفار ووافاه بعض القبائل الى المدينة و بعض القبائل انضموا الى المثنى ورأى من السداد أن لايفوته أمر خاصة المسلمين وعامتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه و الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره و بقائه بالمدينة و بعد استشارتهم قام خطيبا فقال :

« أما بعد فان الله عز وجل جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لايخلو منه شىء من شىء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم و بين ذوى الرأى منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الأمر ما أجمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن قام بهذا الامر تبع لأولى رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به لهم . أيها الناس ، انى كنت كرجل منكم حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا وقد أحضرت لهذا الامر من قدمت ومن خلفت » اه . و يعنى

بمن خلف عليا وطلحة لانهما لم يحضرا الرأى الاول ولما انتهى من خطبته أشار عليه طلحة وعلى بما أشار اليه العامة ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأى وقال له الثانى أقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم فى آنف الامر خشيت أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا ان لا إله إلا الله أبداً اهـ . فأخذ رضى الله عنه برأى عبد الرحمن رضى الله عنه وأمر على الجند سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه عامله على هوازن ودعاه وأوصاه بوصية ثم خرج سعد ومعه أربعة آلاف من اليمن وغيرهم وفيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم خميصة بن النعمان البارقى وشداد بن ضمضج الحضرمى وعمرو بن معدى كرب وشرحبيل بن السمط الكندى وأضرابهم من صناديد العرب وقادتها وخطب خطبة عند مشايعتهم وسار الجند حتى انضم الى جند العراق الذين كانوا مع المثنى فكان عدد الجند الذى شاهد وقعة القادسية ثلاثين ألفاً وفى أثناء ذلك توفى المثنى بن حارثة الشيبانى أمير جيش العراق من أثر انتقاض جراحة أصابته فى وقعة الجسر المتقدم ذكرها وكان رضى الله عنه على جانب عظيم من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد فى شئون الحرب لا يدانيه الا خالد بن الوليد ولما تم لسعد الاستعداد انتشب القتال بينه وبين عدوه وانتهى بفل جموع الفرس وفتح القادسية وأقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب للخليفة فيما يفعل فكتب اليه يأمره بالمسير الى المدائن فسار اليها لأيام بقين من شوال سنة ١٥ أو سنة ١٦ وفتح فى طريقه بابل ثم دخل المدائن وهى عاصمة الاكاسرة بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى لحلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس ما لا يعد وجعل سعد ايوان كسرى مسجداً . وموقع المدائن على دجلة من الجنوب الغربى من بغداد ولم يبق غربى دجلة الا أرض العرب وكلهم آمنوا واغتبطوا بملك الاسلام ثم أرسل جيشاً بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبى وقاص الى حلوان وفتحها بعد ان فر كسرى منها الى الرى وفى أثناء اقامة سعد بالمدائن وقع فتح تكريت والموصل ثم تحول للكوفة بعد ان اختطها بأمر من الخليفة وسنشرح الكلام على تكريت عند التعرض لفتح الجزيرة ثم وقع فتح الأهواز وسوس وتستر . والأهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس وكان بها الهرمزان وهو أحد البيوتات السبعة فى أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس فانهزم بهزيمتهم فجاء الى الاهواز فتولى أمرها وكانت وقعت منه عهود أثناء وقائع تقدمت فنقضها ولما وقع فتح الاهواز طلب الهرمزان الامان على أن ينزل من القلعة التى اعتصم بها على حكم أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه فنزل على حكم ذلك واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل فى وقعة الاهواز جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزاة بن ثور قتلهما الهرمزان بيده وسنذكر ما آل اليه أمر الهرمزان ان شاء الله بعد . ثم وقع فتح جندى سابور بعد أن حاصرها زر بن عبدالله بن كليب

ثم ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه اهتم بفتح بقية ممالك الفرس فأعد لذلك العدة وقسم الجيوش والامراء ، فأمر أبا موسى الاشعرى أن يسير من البصرة وبعث ألوية مع سهيل بن عدى فقدم بها ، ودفع لواء خراسان الى الاحنف بن قيس ، ولواء سابور الى مجاشع بن مسعود السلمى ، ولواء اسطخر الى عثمان بن العاص الثقفى ، ولواء نهاوند الى سارية بن زنيم الكنانى ، ولواء كرمان الى الحكم بن عمير التغلبى ، وسارت هاته الجيوش كل جيش الى وجهته بعد أن أمدهم بامدادات . وفى غضون خمس سنين تم الفتح الأعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية أذربيجان شمالا وسجستان من ولاية افغانستان ومكران من ولاية السند شرقاً وبحراً الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً ، واختلف فى فتح خراسان هل كان فى خلافة عمر أو عثمان رضى الله عنهما ، وكانت وقعة نهاوند أعظم الوقائع وأحسن فتح وفيها من القواد العظام وزعماء العرب جماعة منهم حذيفة بن اليمان وأميرهم البطل الجليل النعمان بن مقرن المزنى ، وكان فتحها بعد حصار طويل ، وممن قتل فى هاته الوقعة طليحة الأسدى وعمرو بن معدى كرب الزبيدى ، ودخل الجيش المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا على مافيها وجمعوا الأسلاب الى أمين المال السائب بن الأقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستأمناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط أن يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فأعطاه حذيفة بن اليمان فأخرج له تلك الذخيرة التى كان أعدها لنوائب الزمان ، فأجمع رأى المسلمين على رفعها لعمر رضى الله عنه . ولما تم الفتح طلب الفرس الامان وأجيبوا لذلك على شروط منها : ارشاد ابن السبيل واصلاح الطرق ، وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الرجل ألفين ورفع ما بقى من الاخماس الى السائب بن الاقرع وهو خرج بها الى عمر رضى الله عنه مع ذخيرة كسرى ، وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريف ابن سهم أخو بنى ربيعة وكان عمر ينتظر أخبار نهاوند فلما جاء وأخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان رضى الله عنه بكى حتى اخضلت لحيته وترحم على النعمان وكان رضى الله عنه رقيق القلب محباً للمسلمين حريصاً على حياة القواد ويحزن حزناً شديداً اذا أصيب أحد منهم ، ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت بالمسجد وأمر عمر نفراً من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين وهى جوهر ثمين وأخبره خبرهما وأن الناس رضوا بأن يكونا له . فقال له عمر : يامليكة والله مادروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتى حذيفة فيقسمها على من أفاءها الله عليه . فأقبل راجعاً حتى انتهى الى حذيفة فباعهما فأصاب أربعة آلاف ألف (أربعة ملايين) وذلك غاية فى عفة عمر رضى الله عنه

قلت : وأخلاقه رضى الله عنه كأخلاق الانبياء عليهم السلام الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها وفى قصة الهرمزان الآتية قريباً مايصدق ذلك ، فانه لما رأى عمر رضى الله عنه ورأى مارأى

من أخلاقه قال : ان عمر ينبغي أن يكون نبياً . فقالوا : ليس بنبي ولكنه يعمل عمل الانبياء . فقد بان لك من تلك المقالة أخلاق هذا الخليفة العظيم الذى دوخ ملك فارس و الروم و أرهبت سطوته الأمم و امتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقا وافريقية الشمالية غربا ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان ومع هذا فانه لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه إن هذا لهو العدل الذى ليس فوقه عدل ، فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الاذهان خبره حتى عده المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى أننا لنفخر به على ملوك الارض رضى الله عنه وأرضاه

رجوع الى خبر الهرمزان

تقدم أن الهرمزان نزل من القلعة التى تحصن بها بامان على حكم أمير المؤمنين وبعد نزوله أوفد أبو سبرة الى المدينة وفداً فيهم أنس بن مالك والاحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ، ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هاته الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً فى ميمنة المسجد متوسداً برنسه فجلسوا دونه وليس فى المسجد غيره فقال الهرمزان أين عمر ؟ فقالوا هو ذا . فقال أين حرسه وحجابه ؟ فقالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال ينبغى أن يكون نبياً فقالوا يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالساً ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان فقال نعم فتأمله وتأمل ما عليه وقال الحمد لله الذى أذل بالاسلام هذا ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة . هيه يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله . فقال : ياعمر ، انا واياكم فى الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا . فقال عمر إنما غلبتمونا فى الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا

وحاصله أن استقلال الامم وتفرقها تابع لاجتماع الكلمة وتفرقها

فتح الجزيرة

وهى القسم الشمالى من الارض الواقعة بين الفرات ودجلة والجنوبى منها هو العراق العربى وكلاهما كان من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب لهذه البلاد من أزمنة متطاولة قيل انها تمتد الى ما بعد سيل العرم وقاعدة الجزيرة الموصل وكان فتحها وفتح تكريت على يد عبد الله بن المعتم وربعى بن الافكل وكان بعثهما سعد بن أبى وقاص من العراق وقبل

بل كان فتح الموصل على يد عياض بن غنم الفهري القرشي لما فتح الجزيرة سنة ١٨ وهو من أكبر الفاتحين وأبو عبيدة ابن الجراح بن عمه وهو أمير الجيوش ولما توفى أبو عبيدة في طاعون عمواس في السنة ١٨ تولى عياض عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنسرين وأضاف اليه عمر الجزيرة وأمره بفتحها ففتحها . والحاصل أن فتحها قيل كان من قبل سعد وهو بالعراق وقيل من قبل أبي عبيدة وبلغ عياض في الفتح بادية الشام غربا وأرمينيا وكردستان شرقا وتوفى سنة ٢٠ . ولما تم الفتح صلحاً كتب لأهل الرها بذلك ونصه :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب عياض بن غنم لاسقف الرها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا الى على كل رجل ديناراً ومدى قمح فانتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال واصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلم . شهد الله وكفى بالله شهيدا

فتح مصر وبرقة

كان عمرو بن العاص رضي الله عنه شديد التطلع الى مصر راغباً فتحها لأنه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة أهلها وسهولة أمرها ما أطمعه في فتحها فلما قدم الخليفة عمر رضي الله عنه الجابية في سنة ١٨ اختلى به وفاتحه بما في نفسه وهون عليه أمر مصر ورغب اليه أن يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه في الأمر لان جيوشه متفرقة في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف فارس كلهم من عك وقال له سر وانا مستخير الله في مسيرك ثم أمده بأربعة آلاف ثم بأربعة آلاف آخرين وكتب اليه أني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف الزبير ابن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد وان معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة وكان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شئ معلوم وبعد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى الاسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح الى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شئونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والامان بين أهلها وما زال والياً عليها حتى عزله عثمان بن عفان رضي الله عنه وستأتي ترجمة هذا الفاتح العظيم

وزبدة القول في هذا الفتح ان المقوقس لما أحس بالغلبة فر بجنده من حصنه بعد حصار شديد الى منف وبعث لعمرو كتابا طالباً فيه توجيه رجال ليكون الاتفاق على يدهم فأرسل

عمرو كتاباً مع عشرة نفر رئيسهم عبادة بن الصامت وكان هائل المنظر أسود اللون طوله عشرة أشبار فتقدم اليه عبادة فى صدر أصحابه فهابه المقوقس وطلب تقديم غيره فأجابوا ان هذا الاسود أفضلنا رأيا وعلماً وهو سيدنا وخيرنا ونرجع جميعاً الى قوله ورأيه وقد أمر الأمير أن لانخالف له فقال المقوقس لعبادة تقدم وتكلم برفق فألقى عبادة خطبة أتى فيها على المراد بأفصح عبارة وألطف اشارة ولما انتهى كلامه قال المقوقس لمن حوله بلغتهم ما سمعت مثل كلام هذا الرجل قط لقد هبت منظره وان قوله لاهيب. ثم قال له عبادة بيننا وبينك خصلة من ثلاث خصال فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل، بذلك أمرنى الامير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله من قبل الينا: اما الاسلام الذى هو الدين القيم الذى لايقبل الله غيره وهو دين أنبيائه ورسله وملائكته، أمر الله أن نقاتل من خالفه ورغب عنه حتى يدخل فيه فان فعل كان له مالنا وعليه ماعلينا وكان أخانا فى دين الله فان قبلت أنت وأصحابك فقد سعدتم فى الدنيا والآخرة ورجعنا عن قتالكم ولم نستحل أذاكم ولا التعرض لكم وان أبيتم إلا الجزية فأدوها الينا وأن نعاملكم على شىء نرضى به نحن وأنتم فى كل عام أبداً مابقينا وبقيتم وأن نقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم فى شىء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم ان كنتم فى ذمتنا وكان لكم به عهد علينا وان أبيتم فليس بيننا وبينكم الا المحاكمة بالسيف حتى نموت عن آخرنا أو نصيب مانريد منكم هذا ديننا ولا يجوز لنا غيره فانظروا لانفسكم. وبعد محاورات دارت فى النازلة تركنا ذكرها اختصاراً، قال المقوقس: أعلم أميرك انى لا أزال حريصاً على اجابتكم الى خصلة من تلك الخصال وانى أريد أن نجتمع به مع جماعة من أصحابى فان استقام الأمر بيننا تم والا رجعنا الى ما كنا عليه. ثم اجتمع عمرو بالمقوقس وكتبوا الصلح بأن يعطوا الأمان للمصريين وهم يدفعون الجزية. ولما استتب لعمرو الامر بمصر صار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهى واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازى فصالحه أهلها على الجزية وصار الى طرابلس الغرب ففتحها وكتب الى الخليفة عمر رضى الله عنه: أما بعد، انا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين افريقية تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا فى غزوها فعل. فنهاه عمر وولى على برقة عقبة ابن نافع الفهرى. هاته خلاصة أخبار هذا الفتح فى خلافة عمر رضى الله عنه

تنبيه: — اعلم ان العرب أمة حربية قل أن عاثلها فى ذلك العصر شعب من الشعوب فى الشجاعة والاقدام والتعود على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب وائتلافهم للقتال وحبهم للغارة التى تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية الا انه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أى آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضهم بعضاً ويثب بعضهم على بعض

ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحا أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم فى الحضارة وعراقتهم فى الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس فى واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ، ولما جاء الاسلام جمع هذه الأمة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا أن دب فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك أن خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لما دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الأمم وفتح الممالك وأظهروا فى قتال جنود الدولتين من التفنن فى أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب ما رأيت فيما تقدم مما جعل النصر حليفهم والقوة رائدهم فى كل مكان

فمن ذلك أنهم كانوا لايقتحمون جنداً ولا يمعنون فى داخل البلاد مالم يجعلوا وراءهم رد‍ءاً أى مرداً يحمى ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدو من أن يقطع على موادهم

ومنها أنهم كانوا لايحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو

ومنها أنهم كانوا يبدأون العدو بالقتال فى أطراف بلاده التى تلى البادية حتى اذا أصابتهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحارى بلادهم

ومنها براعتهم فى اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أراد مهاجمتها العدو

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو والاستعداد لصد غاراته

ومنها توهينهم قوة العدو باشغال جيوشه بالحرب عن أن يمد بعضها بعضا عند الحاجة

هذا وأشباهه من مكائد الحرب التى مر ذكرها فى غضون أخبار الفتح كما تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ ، وتفوقهم فى أساليب الحرب وأصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لاسيما الخليفة عمر رضى الله عنه الذى كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد فى الاعمال الحربية وكيفية الهجوم والدفاع على وجه يدل على أنه من أعاظم قواد الجيوش فى العالم ، هذا فضلا عما كان يوصى به القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالايذاء عليهم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم فى المهالك والترتيب فى الحرب والتبصر فى أمور القتال الى غير ذلك

وأما تعبية العرب للجيوش فى ابان الفتح الذى مر ذكره فى هذا الكتاب فقد بلغ الغاية فى الترتيب وحسن النظام والانتظام ، ولنذكر لك كيفية تعبيتهم للجيوش فى وقائعهم الشهيرة وهى وقعة اليرموك ووقعة القادسية ومنهما تظهر لك مرتبتهم فى فنون الحرب ومكانهم من البصيرة فى تعبئة الجيوش التى تشبهها من كل الوجوه تعبئة الجيوش فى هذا العصر كالطلائع والمجردات (الكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والرده والمدد والرجل (المشاة)

والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المبارزة والمهاجمة عند الالتقاء مع العدو وصاروا فى الاسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكان الامراء والقواد يتفاوتون فى المراتب فنهم الامير العام (المشير الآن) ويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما أمراء التعبئة كأمير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الألوية الآن) ويليهم خلفاؤهم (الامير الايات الآن) ويليهم أمراء الكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وامراء الأعشار (الجاويش والنقباء) ولعلهم رؤساء المائة . وفضلا عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد رتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضى وأمير الاقباض الذى ينتهى اليه حفظ الغنائم وقسمة الفيء والترجمان والكاتب والاطباء لمداواة الجرحى

روى الطبرى فى تاريخه أن خالد بن الوليد عبى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبئة لم تعب العرب مثلها فجعل القلب كراديس وأقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وجعل عليها عمرو ابن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وجعل عليها يزيد بن أبى سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً فجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعورا بن عدى على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائدا كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشى وحبيب بن مسلمة القرشى وسهيل بن عمرو القرشى وعكرمة بن أبى جهل القرشى فى عدة مثلهم من قريش ، وأما من كان من غير قريش فنهم ذو الكلاع الحميرى والسمط بن الاسود الكندى وضرار بن الازور الاسدى وأضرابهم من صناديد العرب وكان القاضى أبو الدرداء وابن مسعود على الاقباض وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال . هكذا كانت تعبئة جيش اليرموك

وأما القادسية فكانت أحسن من ذلك وأرقى نظاما وترتيباً فقد ذكر الطبرى أن سعد بن أبى وقاص قدر الناس وعباهم كما أمره عمر رضى الله عنه فأمّر أمراء الاجناد وعرّف العرفاء على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أزمان النبى ﷺ . قال الطبرى: وكذلك كانت الى أن فرض العطاء وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الاعشار رجالا من الناس لهم وسائل فى الاسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فلم يفصل (أى من شراف) الا بتعبئة فأما أمراء التعبئة فاستعمل زهرة بن عبد الله بن قتادة الحوية من ملوك هجر فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم واستعمل على الميسرة شرحبيل ابن السمط الكندى وكان غلاما شابا وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له وجعل خليفته خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عامر التميمى على الساقة وسواد بن مالك التميمى على الطلائع وسلمان بن

ربيعة الباهلى على المجردة وعلى الرجل حمال بن مالك الاسدى وعلى الركبان عبد الله بن ذى السهمين الخثعمى فكان أمراء التعبئة يلون الامير (أى بعده فى المرتبة) والذين يلون امراء التعبئة امراء الأعشار والذين يلون امراء الاعشار اصحاب الرايات والذين يلون اصحاب الرايات والقواد رؤوس القبائل . قال الطبرى : وبعث عمر رضى الله عنه الاطباء وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسى والترجمان هلال الهجرى والكاتب زياد بن ابى سفيان

وبالجملة فان تعبئة الجيش على عهد عمر رضى الله عنه كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وصرف العناية فى كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ، ويرفع شأن الخلافة ويضاف اليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم فى أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الاخروى الذى كان يحبب اليهم الموت فى ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الاعداء وصبرهم على المكاره وتحملهم لشظف العيش ، ورضاهم بالكفاف من القوت ، واستخفافهم بجنود الاعداء قلوا او كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذى وعدهم الله به اذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس

وهذا من أهم الاسباب التى رجحت جانب المسلمين على جانب الاعداء ، ومهدت طرق الغلبة بجيوش من العرب والذى وفر هذه الاسباب انما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الاسلام بعد التخاذل والانقسام

أولياته ـ فمنها كتابة التاريخ الهجرى

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك فى عام الفيل مثلا وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جرا واستمر ذلك فى الاسلام الى مضى سنتين ونصف من خلافة عمر رضى الله عنه فرأى لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث حيث انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشئون والاعمال فى الحكومة الاسلامية ، فجمع الصحابة واستشارهم فى ذلك وسألهم من أى يوم نكتب التاريخ ؟ فأشار عليه على رضى الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التى هاجر فيها رسول الله ﷺ الى المدينة ففعل

ومنها ـ تدوين الدواوين وفرض العطاء

من البديهى أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة الاسلام فى خلافة أبى بكر وصدراً من خلافة عمر فى مبادىء الظهور وعدم اتساع السلطان ولم

يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التى كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ، وأما المغانم والفىء فكانت قليلة لم تحوج أخماسها التى يبعث بها الى المدينة الى صرف العناية فى ترتيب الشئون الادارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم . وانما كانت العناية منصرفة الى الشئون الحربية والفنون العسكرية ، ولما توسع المسلمون فى الفتح انتشروا فى الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت فى مناحى العمران وأخذ يزداد الفىء من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وامرائه بضبطها ، ولا قبل لهم باحصاء مستحقيها ، وتوزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها فى قيود خاصة . دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم فى تدوين الديوان ، وحيث كانت النتيجة الموافقة على رأيه دعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا . والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما فى القاموس ، وتوسعوا بمسماه فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذى يكون فيه الديوان فسموه ديواناً

ومنها ترتيب العمال وتقسيم الولايات ، ومنها اتخاذ دار الدقيق يعين به المنقطع ، ومنها توسعة المسجد النبوى ، ومنها ضرب النقود . كان العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدراهم واستمر ذلك الى صدر من خلافة عمر فلما كانت سنة ١٥ هجرية ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها ، غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله . وفى بعضها محمد رسول الله وجعلها كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل ذكر ذلك المقريزى فى النقود الاسلامية ، ولم يضرب رضى الله عنه الدينار وضربه انما كان على عهد عبد الملك بن مروان . ومنها اتخاذ بيت المال ، ومنها قيام شهر رمضان ، ومنها العقاب على الهجاء ، ومنها الجلد فى الخمر ثمانين ، ومنها وضع البريد وهو اسم للمسافة التى بين كل محطة من محطات البريد وهى أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا فيه الآن فأطلقوه على أكياس البريد وأصله من وضع الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الامم ثم استعمل فى الاسلام وأول من استعمله عمر رضى الله عنه ، ثم ان معاوية بن أبى سفيان رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات ، ومنها جمع الناس فى صلاة الجنائز ، ومنها تمصير الامصار ، ومنها التسمية بأمير المؤمنين ، ومنها اقامة الجسور والطرق وحفر الترع وارشاد الضال . فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يمشى بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له » أى رضى فعله وقبله منه وأثنى عليه . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قلت : يانبى الله علمنى شيئاً أنتفع به . قال : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين » الأبى : عزل الأذى عن

الطريق من شعب الايمان ، ويلحق بالشوك كل مؤذ من حجر يعثر به أو جيفة أو قذر أو غير ذلك ويدخل فيه كل من أدخل نفعاً على المسلمين أو أزال عنهم ضرراً لان ذلك من النصيحة الواجبة للمسلمين بعضهم على بعض التى بايع النبى ﷺ أصحابه على النصح لكل مسلم فى حضرته وغيبته فيما يرجع لدينه ودنياه اه ومنها اقامته والياً للحسبة ومنها استقضاء القضاة فى الامصار

قضـــاؤه

كان رضى الله يتولى القضاء بنفسه وينيب غيره لما هو معروف من أن القضاء فى الاسلام وظيفة من وظائف الامام له أن يتولاها بنفسه وأن ينيب بها عند الحاجة غيره ؛ وكان تحريه للعدالة فى انتخاب القضاة كتحريه فى انتخاب الولاة لايراعى فى كليهما إلا الاهلية والاستعداد والتقوى والعدل ويعلم أن إثم الظالم اذا ظلم على موليه ، فقد أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عبد الملك بن عمير قال قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه : من استعمل رجلا لمودة أو لقرابة لايستعمله إلا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وكما كان يتحرى فى انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء

وكان لايحب تعجيل الفصل فى الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى آثار الضغائن من النفوس . ففى كنز العمال عنه رضى الله عنه أنه قال : رددوا الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل الخصومة يورث الضغائن بين الناس

كتابه فى القضاء الى أبى موسى الاشعرى

اعلم أن الخلافة نيابة عن صاحب الشرع فى حفظ الدين وسياسة الدنيا . فصاحب الشرع يتصرف فى الامرين : أما فى الدين فبمقتضى التكاليف الشرعية التى هو مأمور بتبليغها وحمل الناس عليها ؛ وأما فى سياسة الدنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم فى العمران البشرى وهو ضرورى للبشر وان رعايته مصالحه كذلك لئلا يفسد ان أهملت . وتصرفه الدينى يختص بخطط ومراتب لاتعرف الا للخلفاء الاسلاميين ، منها : الصلاة والقضاء والجهاد والحسبة . وأول خليفة دفع القضاء لغيره وفوضه فيه عمر رضى الله عنه فولى أبا الدرداء معه بالمدينة وولى شريحاً بالبصرة وكتب اليه كتابا تركنا ايراده هنا اختصاراً وولى أبا موسى الاشعرى بالكوفة وكتب له الكتاب المشهور الذى تدور عليه احكام القضاء ونصه :

اما بعد : فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم اذا أدلى اليك(١) ، وانفذ اذا تبين

(١) قوله أدلى : رفع لك الامر وجيء به اليك

لك ، فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له ، وسوّ بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك حتى لايطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراما أو حرم حلالا ، ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس وراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه الى الحق فان الحق قائم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، الفهم الفهم عند مايتلجلج[1] فى صدرك ماليس فى كتاب ولا سنة اعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى ، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وابلغ للعذر ، المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[2] فى ولاء أو قرابة فان الله سبحانه قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات ، وإياك القلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تعالى ولو على نفسه يكفه الله مابينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه هتك الله ستره وأبدى فعله . اه بعد التحرى

وقد نقل هذا الكتاب غير واحد منهم ابن خلدون والتسولى والبيان والتبيين

وله رضى الله عنه كتب كثيرة بارعة وخطب عزيزة غزيرة نافعة تركنا ذكرها اختصاراً الى هنا انتهى ما أردت ايراده من أخبار عمر رضى الله عنه . ومنها تعلم كيف كان هذا الرجل العظيم والشهم الهمام الفخيم فيتمثل لك فى صورة من النور وجسم من الفضيلة والكمال وعلم من أعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الامم ويقتدى بسيرتهم أرباب الهمم ، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قل أن تجتمع فى عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت فى عمر بن الخطاب وكل أخلاقه تكاد تكون فطرية لايظهر عليها شىء من التصنع والتكلف وأخباره كثيرة لايمكن استقصاؤها

وكانت فيه خلال رضى الله عنه جعلت الأمة تحبه فقد عرفوا منه قبل كل شىء أنه فنى فى مصلحة أمته لايهمه فى أمر نفسه شيء إلا أن يكون مع الله فى جميع أمره لايرى لنفسه حقاً أن يتمتع فى هذه الدنيا بأكثر مما يتمتع به أفقر رجل من أمته ، تجد ذلك فى مأكله وملبسه ومشربه ، ثم عرفوا منه أنه للعامة قبل الخاصة يكل هؤلاء الى مالهم من الحول والحيلة فى الحياة الدنيا ويقبل على عامة الناس وضعفتهم فيقويهم ويسودهم وينظر فى صغار أمورهم وكبارها ، لايبالى بما يصيبه من تعب الجسم فيما هو بسببه ، لذلك كانت قوة الامة معه ، وعرفوا منه أيضاً خلالا أدبه فيها القرآن وهى : الحق والعدل والصدق والصبر على البأساء والضراء والوفاء بالعهد

(١) قوله يتلجلج : أي يتردد
(٢) قوله ظنيناً هو المتهم بسبب قرابة أي ولاية

وهى صفات تحلى بها عمر رضى الله عنه فأتعب من بعده ، وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأنى فى الامور والاستشارة فى جليها وصغيرها ، لهذا من تتبع سيرته لايراه فشل فى أمر من الامور ، من ذلك الفتح المظيم الذى كان على عهده الذى توفق اليه صاحبه من أول عهده بالخلافة الى وفاته . وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد فى الامر وتمحيص الاشياء ، شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول وينال ما يريد ، ولو بحثنا فى التواريخ القديمة والحديثة لوجدنا فى كل أمة رجلا أو رجالا من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم لكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيهم الخصال السامية والأخلاق الحميدة التى اجتمعت فى عمر رضى الله عنه

ثم ان من مشهورى الرجال رجالا أسسوا ملكا عظيما أوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك ما لم يفتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثير فوق ما نال ، لكن هل كان منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم كريماً غير مسرف عادلا لا عن ضعف شجاعا غير متهور قنوعاً غير شره زاهداً بغير تصنع حليما من غير جبن تقيا غير متنطع ؟ كلا لاسيما اذا نشأ بين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف . والحاصل ان التاريخ حكم عدل وقد جاء تاريخ عمر حافلا بالخصال الحميدة والامور الجسام التى جعلته سابقاً على كل من أتى بعده وجعلت كبار أصحاب رسول الله ﷺ يشعرون بأن الاسلام فقد بفقده أثبت أركانه

وفاته رضى الله عنه

استشهد رضى الله عنه من طعنة بخنجر من أبى لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وقت صلاة الغداة روى المؤرخون انه شكا الى عمر ارتفاع الخراج الذى ضربه عليه مولاه المغيرة ورجاه فى تخفيفه واختلف المؤرخون فى جواب عمر رضى الله عنه فقال بعضهم انه وعده خيراً أو عزم أن يذاكر المغيرة فى تخفيف الخراج عنه . وهناك روايات أخرى تختلف فى جوهرها عن هذه ، ويؤخذ من أقوال المؤرخين ان قتل عمر لم يكن نتيجة حقد الغلام عليه وعدم تخفيف الخراج عليه ولكنه كان نتيجة مؤامرة سياسية كان أكبر العاملين فيها الهرمزان وجفينة وكعب الاحبار الذين حقدوا على عمر تدويخه لبلادهم مما هو مفصل فى التاريخ وقد اصطنعوا أبا لؤلؤة لتنفيذ غرضهم

فى العقد الفريد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال دخلت على عمر فى أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبى ﷺ فقال له رجل ليس عليك بأس قال لئن لم يكن على اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة نصيباً من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب أن أنجى نفسى وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها فهو يركض بيديه ورجليه وأشد من الغريق الذى يرى الجنة والنار وهو مشغول

ولقد تركت زهرتكم كما هي ما لبستها فأخلقتها وثمرتكم يانعة فى أكمامها ما أكلتها وما جنيت ما جنيت الا لكم وما تركت ورائى درهماً ما عدا ثلاثين أو أربعين درهماً ثم بكى وبكى الناس معه فقلت أمير المؤمنين أبشر فوالله لقد مات رسول الله ﷺ وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك قال رضى الله عنه المغرور والله من غررتموه أما والله لو ان لى مابين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال لما طعن عمر قيل له أمير المؤمنين لو استخلف قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير منى وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير منى ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فان سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول ان سالما يحب الله حباً لو لم يخفه ماعصاه قيل له لو انك عهدت الى عبد الله فانه أهل فى دينه وفضله وقديم اسلامه قال فحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت انى نجوت من هذا الأمر كفافا لا لى ولا على ثم قالوا يا أمير المؤمنين لو عهدت فقال كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أولى رجلا أمركم أرجو أن يحملكم على الحق وأشار الى على بن أبى طالب ثم رأيت أن لا أتحملها حيا ولا ميتا فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي ﷺ انهم من أهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم والياً فأحسنوا مؤازرته أى معاونته

وروى انه لما ثقل قال لابنه عبد الله ضع خدى على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلى وويل أمى ان لا يغفر لى ربى ثم مات ولما توفى صلى عليه فى المسجد وحمل على سرير رسول الله ﷺ ودفن بجنب أبى بكر وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك على وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا إله إلا الله ما أحرصكما على الامرة أما علمتما أن أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب

وفى أسد الغابة روى أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد قال طعن عمر يوم الاربعاء لأربع ليال بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ ودفن يوم الاحد هلال المحرم سنة ٢٤ وكانت خلافته عشر سنين وخمسة اشهر وواحداً وعشرين يوما وقال غيره هذا وهم توفى لأربع ليال بقيت من ذى الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذى الحجة وكانت ولادته بمكة سنة ٣٧ قبل الهجرة

ووصيته لمن يخلفه

اخرج ابن الجوزى وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال: دفع الىّ عمر كتابا فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقرأه منى السلام فاذا فيه اوصى الخليفة

من بعدى بتقوى الله واوصيه بالمهاجرين الاولين الذين اخرجوا من ديارهم واموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم واوصيه بالانصار خيراً « الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا » الى قوله « المفلحون » ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وان يشركوا فى الامر واوصيه بذمة الله وذمة محمد ﷺ « وهم اهل الذمة » ان يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم يقاتل من وراءهم « اى يحميهم » اهـ

هكذا كانت حياة هذا الرجل العظيم الطاهر السريرة الذى فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط العدل وبث روح الجد والنشاط فى العرب واسس لهم ذلك الملك العريض وفل بهم جيوش فارس والروم وربام على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقررته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام سعدت بحياته الرعية ودخل الامم فى طور جديد من الحرية والعدل والامن والراحة وبلغ به الحرص على ذلك البزار الطيب الذى بزره فى المسلمين الذى يدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التى اكتسبها من النبى عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة المسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

الحالة الاجتماعية على عهده

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضى الله عنهما اذ توطد على عهد الثانى للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الامة العربية المشهورة بالانقسام والتفرق والجهل بأمور الدولة والانغماس فى الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر فى التاريخ بانها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع انها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث فى أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الامة بقوة الجامعة الاسلامية والاتحاد القوى على أطراف الممالك المجاورة لها وهى فارس والروم على نحو ما تقدم ذكره

ثم خالط العرب تلك الامم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا بلزوم الحالة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الا الاستعداد الفطرى لقبول الخير والشر والشرع الالهى الذى دعاهم الى الخروج من ظلمات البداوة فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدأوا يبارزونهم فى مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم فى الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية فوضع الخليفة التاريخ ودون الدواوين ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال ثم فرض

الاعطيات وقرر مصروف الفىء فى غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الامن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا اجحاف فى حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدت مظاهر العمران تتجلى فى أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطى خفيفة الى ميدان الراحة والنعيم مع الاخذ على الشكائم والتخوشن فى المأكل والملبس والتوسط فى العيش والقصد فى الانفاق والامساك عن البذل خوف الاخذ على أيديهم من عمر رضى الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضى الله عنه لم يدع للعرب بعد اذ دفع بهم فى غمار الحضارة وقذف بهم فى مضمار الحروب وقتاً للاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار الغنائم عن التمتع بها ريثما يأمن غائلة الامم المغلوبة وله بهذا مآرب أخرى وهى اشغال العرب بالحرب وزجهم فى مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشرق واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ماملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة الا خطى قليلة الى الامام فكانوا وسطا فى المعيشة فى كل الامور لان عمر رضى الله عنه يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقى ويحملهم على التوسط فى العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعا اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته فى التقشف وشظف العيش . وبالجملة فان الحالة الاجتماعية على عهد عمر رضى الله عنه على حداثة عهد أهلها فى تسنم ذرى الارتقاء تمثلها سيرته فى قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك فى مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التى انتهى اليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد عن جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء السفر الشاق المتلذذ بجنى ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال

فضائل عثمان رضى الله عنه

هو الخليفة الثالث أمير المؤمنين سيدنا عثمان بن عفان القرشى الاموى . تقدم ذكر نسبه فى صدر المقصد يكنى أبا عمرو وأبا عبد الله لم يختلف فى صحة خلافته وكان من حديثها ما هو مسطر فى كتب السنة وغيرها فى البخارى فى باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان بن عفان عن عمرو ابن ميمون ونص محل الحاجة منه قال قال عمر رضى الله عنه لابنه عبد الله انطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فانى لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل

يستأذن عمر بن الخطاب ان يرفق مع صاحبيه فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن ان يرفق مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرنه به اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء قال ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال مالديك فقال الذي تحب يا أمير المؤمنين اذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم الى من ذلك فاذا انا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر بن الخطاب فان أذنت فادخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء تسير معها فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجل فولجت داخلا لهم « أى مدخلا كان في الدار » فسمعنا بكاءها من الداخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين استخلف قال ما أجد أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض. فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهد كم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء كهيئة التعزية له فان أصابت الامرة سعدا فهو ذلك والا فليستعن به أيكم ما أمر فانى لم أعزله عن عجز ولا خيانة. وقال أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الاولين أن يعرف لهم حقهم ويحفظ لهم حرمتهم وأوصيه بالانصار خيراً الذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم وأوصيه باهل الامصار خيرا فانهم ردء الاسلام وجباة المال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم الا فضلهم عن رضاهم وأوصيه بالاعراب خيرا فانهم أصل العرب ومادة الاسلام أن يأخذ من حواشى أموالهم وترد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله وذمة رسول الله ﷺ أن يوفى لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم. فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشى فسلم عبد الله بن عمر قال يستأذن عمر بن الخطاب قالت ادخلوه فوضع هناك مع صاحبيه فلما فرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط فقال عبد الرحمن اجعلوا الى ثلاثة منكم فقال الزبير جعلت أمرى الى على فقال طلحة قد جعلت أمرى الى عثمان وقال سعد قد جعلت أمرى الى عبد الرحمن ابن عوف فقال عبد الرحمن أيكما تبرأ من هـذا الامر فنجعله اليه والله عليه « أى رقيب » وكذا الاسلام لينظرن أفضلهم فى نفسه فأسكت الشيخان فقال عبد الرحمن أتجعلونه الى والله على أن لا آلو عن أفضلكم قالا نعم فاخذ بيد أحدهما فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم فى الاسلام ماقد علمت بالله عليك لئن أمرتك لتعدلن ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن. ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك. فلما أخذ الميثاق قال ارفع يدك ياعثمان فبايعه وبايع له على وولج أهل الدار فبايعوه

كان رضى الله عنه من السابقين للاسلام هاجر الهجرتين وصلى القبلتين يقال له ذو النورين لانه تزوج ابنتى رسول الله ﷺ رقية فلما ماتت زوجه أم كلثوم فلما ماتت قال لو كان عندى ثالثة لزوجتكها وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ومن أصحاب النبى ﷺ الذين توفى

وهو عنهم راض وكان فى قريش يوصون اليه ويعظمونه وكانت المرأة فى العرب لترقص صبيها وهى تقول : أحبك والرحمن ، حب قريش عثمان

وكان عادلا فى بيت المال لا يأخذ لنفسه منه شيئاً لانه كان غنيا وغناه مشهور فى حياة النبى ﷺ وبعده كثير الانفاق فى نهاية الجود والسماحة والبذل فى القريب والبعيد وكان من أكبر المساعدين للنبى ﷺ بكثير من ماله عند شدة احتياج الاسلام اليه ومآثره فى ذلك مشهورة جهز فى جيش العسرة ثلاثمائة بعير باسلاحها واقتابها وأنزل الله فيه « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منا ولاأذى لهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون » روى الحكم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : اشترى عثمان الجنة من النبى ﷺ مرتين حين حفر بئر رومة وحين جهز جيش العسرة ولما قدم النبى ﷺ المدينة لم يكن بها ماء مستعذب غير بئر رومة فقال ﷺ من يشتر بئر رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها فى الجنة؟ فاشتراها عثمان رضى الله عنه بخمسة وثلاثين ألف درهم وجعلها للمسلمين وكانت بقعة الى جنب المسجد فقال النبى ﷺ من يشترها ويوسعها فى المسجد فله مثلها فى الجنة . فاشتراها عثمان رضى الله عنه بعد ذلك فوسعها فى المسجد وقال ﷺ رحم الله عثمان تستحيه الملائكة وكان كثير العتق للرقاب وجملة ما أعتقه ألفان وأربعمائة وكان يطعم طعام الامارة ويدخل بيته ويأكل الخل والزيت وينام فى المسجد ورداؤه تحت رأسه ويخطب الناس وعليه رداء غليظ ثمنه أربعة دراهم أو خمسة يصوم النهار ويقوم الليل ويختم القرآن فى ليلة . كان ذا عقل رصين وشرف أثيل وعلم غزير ولم ينقل عنه الكثير منها لاشتغاله بغير ذلك شديد الحياء والحلم مائلا الى السلم زاهدا فى الدنيا فقد صح عنه ﷺ أنه قال : رحمك الله ياعثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك

ومن أعظم آثاره جمعه الناس على مصحف واحد بعد أن تعددت القراءات واختلف فيها أهل الامصار . وفضله فى ذلك كفضل أبى بكر رضى الله عنه فى جمع القرآن وقد مر بيان ذلك فى مقدمة هذا المؤلف وكثرت الفتوحات فى مدته فقد فتح افريقية وسواحل الاردن وسواحل الروم واصطخر وطبرستان وسجستان والقوقاز وغير ذلك من الاقطار والامصار وكثرت أموال الصحابة في خلافته حتى بيعت جارية بوزنها وفرس بمائة الف ونخلة بألف . قال الحسن البصرى : كانت الارزاق فى زمن عثمان وافرة وكان الخير كثيراً وظهر الرفه الكثير فى الامة بما لم ير مثله ، لم يحضر بدراً باذن من النبى ﷺ ولا بيعة الرضوان وذلك لما أرسله رسول الله ﷺ الى أهل مكة رسولا ليخلوا بينه وبين العمرة وجاءه الخبر الكاذب بأن عثمان قتل فجمع أصحابه فدعاهم الى البيعة فبايعوه على قتال أهل مكة يومئذ ثم جاءه الخبر بأن عثمان لم يقتل وهذا يدل على مكانته عنده وحبه له . أخرج الترمذى عن أنس قال : لما أمر رسول الله

بيعة الرضوان كان عثمان بن عفان رسولَ رسول الله ﷺ الى أهل مكة فبايع الناس . فقال النبي ﷺ « إن عثمان فى حاجة الله و حاجة رسوله » فضرب باحدى يديه على الاخرى فكانت يد رسول الله ﷺ خيراً من أيديهم لانفسهم

إلا أنه رضى الله عنه كبر سنه وضعف جسمه و كان له ثقة فى قرابته بنى أمية فتغلبوا على أمره وتولوا أعظم الولايات وانتفعوا وراء ذلك بسعة العيش ووجاهة فى الدولة حسدها عليهم غيرهم ، فوجدت الجمعيات السرية التى كانت تكيد الاسلام بالطعن فيه مع استغنائه ببنى أمية عن مشاورة أكابر المهاجرين و الانصار و نقم الطاعنون عليه أشياء بعضها لها مخرج و بعضها مكذوب عليه ذكرها الأبى فى شرح مسلم ؛ و لجاعة من العلماء كلام طويل الذيل فى الاعتذار عن عثمان منهم حافظ الحجاز المحب الطبرى فى كتابه الرياض النضرة فى فضائل العشرة ومنهم محمد بن يحيى الاشعرى المعروف بابن بكر فى كتابه التمهيد والبيان فى مقتل عثمان استوفى فيه الكلام على مانسب لعثمان من الاحداث و بين كل مايمكن الاعتذار عنه من تلك الاحداث التى تسبب عنها حصره في داره وطلبوا منه التخلى عن الخلافة فامتنع واستشهد رضى الله عنه ثمان عشرة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين وكانت خلافته ثنتى عشر سنة إلا اثنى عشر يوما وكان عمره اثنين و ثمانين على أحد الاقوال . أخرج الترمذى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : ذكر رسول الله ﷺ فتنة يقتل فيها هذا مظلوما لعثمان رضى الله عنه . وأخرج أيضاً : أن النبي ﷺ قال لعثمان « إن الله مقمصك قميصاً فان أرادك المنافقون على خلعه فلا تخلعه حتى تلقانى » فلما حصره المنافقون وأرادوا منه أن يخلع نفسه امتنع لهذا الحديث وقال ان رسول الله ﷺ عهد إلىّ عهداً فأنا صابر عليه . قال الأبى نقلا عن ابن العربى : كانت قتلة عمر مصيبة فى الاسلام خاصة وقتلة عثمان مصيبة فى الاسلام عامة عزاؤها المصيبة برسول الله ﷺ . قتل رضى الله عنه ورحمه وطالبوه أربعة آلاف وفى المدينة أربعون ألفاً كلهم لا يريد قتله ويريد نصره لكن منع الكل واستسلم الأمر للعهد الذى كان من رسول الله ﷺ ولم يرض أن يراق بسببه دم ورضى أن يكون عند الله المظلوم ولا يكون عنده الظالم وكل من فى المدينة برىء من دمه إلا أربعة آلاف المكاشفين بالحصار و الانكار و ما أنكروا إلا معروفا . وقد وصف المؤرخون فى كتبهم أخبارهم فحذاراً أيها الرهط المتطلبون العلم أن تعولوا على تاريخ فانكم تلاقون الله متقدمين فى الجهل متأخرين فى العلم

الحالة الاجتماعية على عهده

لما استكمل الفتح على عهده ونزع الناس بالضرورة على طلب الراحة وأخذوا بقسطهم من السيادة على الشعوب وجاوروا المترفين من أهل المدن واستخشنوا عيش البداوة واستغلوا

ثمرة الضرع دون الحرث و الزرع ، وكان عثمان رضى الله عنه ليس من الشدة عليهم والاخذ على شكائمهم بالمكانة التى كانت لعمر قبله طمحت الى ذلك نفوسهم و اتجهت بمجاورة الشعوب الاخرى رغائبهم فاستقطعوا من عثمان القطائع و استأذنوه فى استثمار الارضين التى جلا عنها أصحابها فأقطعهم اياها فقاموا على حرثها و أخذوا باستثمارها . روى أن عثمان لما ولى معاوية على الشام و الجزيرة أمره أن ينزل العرب بمواضع نائية عن المدن و القرى و يأذن لهم فى اعتمال الارضين التى لاحق فيها لاحد ، فأنزل بنى تميم الرابية و أنزل المازحين و المدبر أخلاطا من قيس و أسد و غيرهم وفعل ذلك فى جميع ديار مضر و رتب ربيعة فى ديارها على ذلك و ألزم المدن والقرى والمصالح من يقوم بحفظها و يذب عنها من أهل العطاء ثم جعلهم مع عماله ، و فى ذلك دليل على تدرج القوم فى مدارج الرق و جنوحهم الى الكسب من طرق التجارة و الفلاحة و ميلهم الى الاستعمار ، وكان عثمان غنياً جداً محباً للعمران ميالا الى التأنق فى المعيشة والتداول فى البنيان و انفاق المال فى وجوه البذل ليوسع على الناس و خصوصاً على أهله وقرابته فقد ماشاه الناس فى ذلك وساروا سيرته فيه ، وكانوا فى عصر عمر لايجرأون على اقتناء الضياع والدور والاكثار من مظاهر الثروة والغنى مع اقبال الدنيا عليهم كما هى فى عهد عثمان فقد بنى لنفسه و لنسائه و اولاده بضع دور بالمدينة و شيد داره بالحجارة و الكلس وجعل أبوابها من الساج والعرعر و بنى مسجد رسول الله ﷺ بالعمد المرفوعة و تأنق فى بنائه و اقتنى الدور والضياع و الجنات و العيون بالمدينة و أظهر بهذا أثر النعمة التى أنعمها الله على العرب وتبعه الناس فى ذلك وتظاهروا بمظهر الغنى و جنحوا الى الحصول على المال و التنعم فى المعيشة ، فاقتنى سعيد بن العاص و مروان بن الحكم القصور خارج المدينة و أخذ كبار الصحابة فى ذلك بمذهبه ، ذكر المسعودى منهم جماعة اقتنوا الضياع و الدور و ماتوا على مال كثير و نعم وفيرة ، منهم الزبير بن العوام بنى داراً بالبصرة وداراً بمصر و مثلها بالاسكندرية و الكوفة و اقتنى كثيراً من المال و الضياع حتى ضرب المثل بغناه و أكثرها كانت من التجارة لانه كان تاجراً محظوظا ، وكذلك طلحة ابن عبيد الله وكانت ثروته من التجارة أيضاً ، وكذلك عبد الرحمن بن عوف و زيد بن ثابت و يعلى بن أمية ، و أنهم بنوا الدور وشيدوا القصور و تركوا أموالا وضياعا كثيرة وان سعد بن أبى وقاص ابتنى داراً بالعقيق فرفع سمكها و وسع فضاءها و مثله فعل المقداد بداره بالجرف على أميال من المدينة و هذا دليل على سرعة انتقال القوم من حال الى حال فى عصر عثمان وجنوحهم الى التنعم بنعيم الحضارة وهو أثر محمود من آثار الشكر للمنعم اذا لم يتجاوز حد القصد الى السرف ولم يتناول كل الطبقات و لم يتدرج منه الناس الى المنكرات . ومما لاريب فيه أن عصر الصحابة مهما انطلق أهله فى مجال السعة والنعيم لايتجاوزون الحد الشرعى ولا يأخذون بغير المباح وقد فاضت عليهم الدنيا و كثر لديهم المال فلا بد من صرفه فى وجوه التنعم بما أحله

الله من الطيبات دون المنكر والشهوات . استكمل الفتح فى عهد عثمان ودال للعرب ملك فارس وصارت اليهم سياسة الممالك فساروا فى الناس سيرة جميلة أمر بها الاسلام وسلكوا من العدل والحق طريقاً توخاه الخلفاء وتبعهم فيها الولاة والامراء ، فازدهى أمر الدولة الجديدة وعمت كلمة العدل وكثر المال وامتد رواق العمران وراجت التجارة وتصاعدت أثمان السلع والعقار وكل ما يباع ويشترى بنسبة كثرة النقد ، فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف درهم ونخلة بألف درهم . نقل هذا المحب الطبرى فى الرياض النضرة عن ابن سيرين . هذا غاية ما تصل اليه الممالك فى ترقى العمران وترقى أسباب الكسب ونمو الثروة بين طبقات الناس فبينما العرب فى مثل هذا الرخاء والرغد من العيش يتمتعون بما أفاء الله عليهم من تراث الامم ويتسنمون ذرى الحضارة ويتبسطون فى العيش ويسيرون سيرهم الحثيث فى الفتح ويرفعون لاخلافهم بنيان المجد والدنيا مقبلة عليهم وملك الفرس والروم صار اليهم وعثمان فى مأمن من رأفته بهم ولينه عليهم اذ صاح بهم صائح الفتنة فاستوقفهم عن سيرهم ثم قذف بهم فى لج من التخاصم ما بلغوا ساحله الا وهم أحزاب متفرقة وشيع متباينة . فكان عصر عثمان بهذا عصراً جمع بين الاضداد من الرخاء والشدة والراحة والتعب والغنى وضده والقوة والضعف ومنها بدأت سلسلة الاحزاب السياسية والدينية والجمعيات السرية والجهرية واليه ينتهى تاريخ الانقلاب العظيم الذى طرأ على الدول الاسلامية وحول مجرى السياسة عن وجهتها الاصلية . ان الدول اذا قامت فى أول نشأتها بقوة الحياة الملية والتناصر القومى ونشأت على أساس الوحدة فى الاعتقاد والفكر بين أصناف الامة وأخذت على نفسها انصاف المغلوبين لها الخاضعين لسلطانها من الشعوب الاخرى قل أن تتعرض لخطر الضعف والانحلال العاجل بما يعرض لها من الفتن أو يطاير فيها من الاحزاب والشيع لهذا فان اضطراب الدولة وتفرق أغراض الامة فى عهد عثمان لم يؤثر على مركز الدولة فى أرجاء ممالكها القاصية والدانية ولم يقلل من سطوة الخلافة بين الدول المتاخمة والامم المغلوبة بل كأن الامم استشعرت من تلك الضوضاء القائمة انها نتيجة حياة قومية ونشاط عظيم يراد بها تمحيص الحق وتدعيم أمر الخلافة فلبثت على الحياد تنتظر غاية الامر ولا تمد الى الدولة يد الغدر حتى انجلت الفتنة عن قتل عثمان وقيام على والاحزاب الاخرى ثم مصير الخلافة الى بنى أمية ولولا ما حبب الى الناس من خلافة الراشدين وما بهرهم من قوة أولئك الفاتحين لربما كانت اشتعلت المملكة يومئذ نارا واستفز الطيش الاشرار ، لكن الملك الذى ينهض بالعدل ، والدولة التى تقوم على الاساس الذى ذكرنا لا يزعزعها تفرق المالكين الى أحزاب وشيع ولا يطمع فى جانبها الطامعون

فضائل على القرشى الهاشمى رضى الله عنه

هو الخليفة الرابع أمير المؤمنين سيدنا أبو الحسن على بن أبى طالب بن عبد المطلب ابن هاشم وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهى أول هاشمية ولدت هاشمياً أصغر اولاد أبى طالب الثلاثة جعفر وعقيل وطالب . ولد قبل البعثة بعشر سنين على الراجح وأسلم وهو ابن عشر سنين على الراجح واتفق الجمهور على انه أول من أسلم من الصبيان لحديث « أولكم واردا على الحوض أولكم اسلاما على بن أبى طالب » وعن على قال « عبدت الله تعالى قبل أن يعبده أحد من هذه الامة بخمس سنين » وعنه « ما كان يصلى مع رسول الله ﷺ غيره وغير خديجة »

بويع بالخلافة فى اليوم الذى قتل فيه عثمان واجتمع على بيعته أهل الحل والعقد من المهاجرين والانصار وتزاحم الناس عليه وتخلف عن بيعته معاوية فى أهل الشام والتحمت بينهما حروب لم يسمع بمثلها فى الاسلام ولم يزل له فيها الظهور على الفئة الباغية الى أن وقع التحكيم وخدع فيه وحينئذ خرجت الخوارج فكفروه وكفروا من معه وقالوا حكمت الرجال فى دين الله والله يقول ان الحكم الا لله ثم اجتمعوا وشقوا عصى المسلمين ونصبوا راية الخلاف فسفكوا الدماء فخرج اليهم بمن معه وطلبهم الى الرجوع فأبوا الا القتال فقاتلهم بالنهروان واستأصل جميعهم ولم ينج منهم الا اليسير فانتدب اليه رجل من بقية الخوارج يقال له عبد الرحمن بن ملجم فدخل عليه فقتله فى التاسع عشر من رمضان سنة أربعين وقصة استشهاده مشهورة فهو رضى الله عنه أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد ستة الشورى وأحد العلماء الربانيين والشجعان والزهاد والخطباء[1] والشعراء ، ومناقبه وما أوتيه من الاجتهاد والفهم معلوم . وكان صاحب شورى عمر فى أقضيته وكذلك كان مع أبى بكر وعثمان وكان عمر يتعوذ بالله من معضلة ليس لها ابو الحسن وفى البخارى احاديث سبعة فى فضائله منها حديث عمر « علىّ أقضانا » ومنها حديث قتاله البغاة « تقتل عماراً الفئة الباغية » وكان عمار مع على ومنها حديث قتاله الخوارج وهذان الحديثان من علامات النبوة . قال الحافظ ابن حجر بعد نقله ما ذكر وأوعب من جمع مناقبه من الاحاديث الجياد النسائى فى كتاب الخصائص وأما حديث « من كنت مولاه فعلى مولاه » فقد أخرجه الترمذى النسائى وهو كثير الطرق جدا وقد روينا عن الامام أحمد قال : مابلغنا عن أحد من الصحابة ما بلغنا عن على . ويروى من فضائله قوله عليه الصلاة والسلام « أنا مدينة العلم وعلى بابها » قال مسروق شافهت أصحاب محمد ﷺ فوجدت علمهم ينتهى الى ستة على وعبد الله ابن مسعود وعمر وزيد بن ثابت وأبى الدرداء وأبى بن كعب ثم شافهت الستة فوجدت علمهم

(١) قوله الخطباء اذا اردت الوقوف على بعض خطبه وحكمه فعليك بكتاب نهج البلاغة

يفتخر الى على وابن مسعود . شهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ الا تبوك فانه استخلفه فيها على المدينة وقال له « أنت مني بمنزلة هارون من موسى الا انه لانبي بعدي » وفى البخاري « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » وزوجه ﷺ ابنته فاطمة سيدة أهل الجنة ولما نزل قوله تعالى « وتعيها أذن واعية » قال النبي ﷺ اللهم اجعلها أذن على قال على رضى الله عنه ما نسيت بعد ذلك شيئاً . وله من العلم والشجاعة والحلم والزهد والورع وكرم الاخلاق ما لايسعه كتاب . وبالجملة فان فضائله كثيرة قد جمعها الناس ودونوها وأجمعها لنعته مايصفه به ضرار الصدائى اذ قال له معاوية صف لى علياً فقال اعفنى ياأمير المؤمنين قال لتصفنه قال أما اذا لابد من وصفه : « فكان والله بعيد المدى ، شديد القوى ، يقول فصلا ويحكم عدلا ، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه ، يتوحش من الدنيا وزهرتها ويأنس بالليل ووحشته وكان غزير العبرة طويل الفكرة ، يعجبه من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، كان منبئاً كأحدنا يجيبنا اذا سألناه وينبئنا اذا استنبأناه ، ونحن والله مع تقريبه ايانا وقربه منا لانكاد نكلمه هيبة له ، يعظم الدين ويقرب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد بالله لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم (أى اللديغ) ويبكى بكاء الحزين ويقول : يادنيا غرى غيرى ، إلىّ تعرضت أم إلى تشوفت ، هيهات هيهات قد طلقتك ثلاثاً لارجعة لى فيك ، فعمرك قصير وحظك قليل ، آه آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق » . فبكى معاوية وقال رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك فكيف حزنك عليه ياضرار فقال حزن من ذبح ولدها فى حجرها

الكلام على الفتنة

اعلم ان الفتنة المذكورة هى فتنة عثمان وعلى وطلحة والزبير ومعاوية التى تحزب فيها المسلمون أحزابا كل حزب بما لديهم فرحون وهى الفتنة التى يقف دونها عقل الحكيم حائراً بين الاقدام على خوض عبابها واستكناه كنه خباياها وبين الاحجام عنها والقاء أخبارها على علاتها وغض الطرف عما انطوى فى ثناياها لا لأنها أول بادرة بدرت فى الملك وفتنة ظهرت فى الدول كلا ان قيام الدول واستصفاء الملك انما يتم بوجود أحزاب ينصرون النازع الى الملك وأعوان يتبعون القوة أو يناضلون عن صاحب الحق فى كل قوم وعصر وانما صبغ السلف لهذه الفتنة بصبغة دينية هو الذى يجعل الباحث بين اقدام واحجام مع انها فتنة سياسية تابعة لمجرى السنن الطبيعية فى الدول اذ ما دامت شئون البشر لا تستقيم الا بالوازع ، والمجتمعات لاتقوم الا بحاكم يدير أمورها وينظم شئونها وينفذ قوانينها . فالخلاف فى رياسة الدول والنزاع على منصب الحكم متوقع بين الطامحين اليه القادرين عليه فى كل أمة وجيل وتنازع البقاء فى الملك أمر طبيعى كما هو فى كل الاشياء

خلاصة فيما عليه أهل السنة فى هاته الفتنة

تقدم ان الطاعنين فى عثمان رضى الله عنه نقموا عليه أشياء وعابوه ، منها ثقته فى قرابته بنى أمية فتغلبوا عليه وتولوا أعظم الولايات وذلك لايعاب عليه فيه لانه كان باجتهاد منه وطلباً لاظهار العدل لانه رأى ان اقاربه يعينونه على اظهار العدل واقامة الحق وهكذا جميع الاشياء التى عابوه بها كلها كانت اجتهادية وله فيها اعذار ومخارج تدل على انه انما أراد بذلك العدل واظهار الحق وكلها مبسوطة فى كتب السنة ، ولما حصره الناقمون وقتلوه بايع الناس بعده على بن أبى طالب وبايعه أيضاً القوم الذين حصروا عثمان وقتلوه فوقعت الفتنة بين الصحابة رضى الله عنهم لذلك فقال الذين امتنعوا من بيعته لانبايعك حتى تعطينا قتلة عثمان نقتص منهم فقال على بايعونى أولا ثم بعد ذلك نتبع قتلة عثمان فمن ثبت عليه شرعا موجب القصاص نقتص منه وأما الاقتصاص منهم قبل دخولكم فى البيعة فانه عسير جدا لأن لهم قبائل وعشائر يتعصبون لهم فتنتشر الفتنة وتزداد . هذا هو السبب فى الخلاف الذى وقع بينهم فنشأ عنه وقعة الجمل ووقعة صفين وتمسك كل من الفريقين لحجج وأدلة وتعارضت الادلة عند بعضهم وهم نحو العشرة آلاف فاعتزلوا الفريقين منهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة والمغيرة بن شعبة وبقى الامر مشتبهاً بين الناس الى زمن الائمة الأربعة فنظروا فى الحجج والادلة التى تمسك بها كل فريق فظهر لهم واتضح تصويب اجتهاد على رضى الله عنه وتخطئة اجتهاد غيره لكن لما كان ذلك الخطأ ناشئاً عن اجتهاد لم يؤاخذوا به لقول النبى ﷺ « من اجتهد وأصاب فله أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد » فلا سبيل الى الحكم بتأثيم أحد منهم فلذلك كان مذهب أهل السنة السكوت عما جرى بين الصحابة رضى الله عنهم وتأويله وحمله على أحسن المحامل تحسيناً للظن بهم لأن الله تعالى أثنى عليهم وشهد لهم بالصدق وأخبر بأنه رضى عنهم ورضوا عنه وكذلك جاء عن النبى ﷺ فى أحاديث كثيرة وزد على ذلك ما سبق لهم من الفضل على المسلمين فى بث دعوة الاسلام وتدويخ الممالك والبلدان وتأسيس بنيان الدولة الذى نشر على معظم الارض جناح السلطان ما يوجب على كل فرد من أفراد المسلمين عنده ذرة من العقل وقليل من الانصاف أن يقدرهم قدرهم ولا يبخسهم من الثناء حقهم ويعترف على ملأ الشعوب بفضل كل فريق منهم والتنويه بكل خصلة حسنة لكبارهم وقادة الامر منهم اعلاء لشأنهم وتنويهاً بجميل عملهم وجميل صحبتهم وسدا لذرائع القدح فيهم ممن يحاول احتقار أعمالهم واستصغار أقدارهم وتكذيب الآيات القرآنية والاحاديث النبوية والواجب أن يحمل ما صدر منهم على الاجتهاد الذى لا إثم فيه واليه ذهب أهل السنة وهو المذهب الحق الذى من عدل عنه فقد زاغ وضل ومن تمسك به فقد نجا

وأول التشاجر الذى ورد ان خضت فيه واجتنب داء الحسد

فضائل الستة بقية العشرة المبشرين بالجنة(١)

سيدنا أبو عبيدة (رضى الله عنه)

هو أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفهري — كان اسلامه هو وعثمان بن مظعون وعبيدة بن الحارث بن المطلب وعبد الرحمن بن عوف وأبو سلمة الاسدى فى ساعة واحدة — أحد العشرة المبشرين بالجنة هاجر الهجرتين وشهد بدراً وما بعدها . فى الصحيح عن النبي ﷺ « لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » قال الأبى : أصحابه فضلاء مختارون وانما أخبر عن كل واحد بما هو الأغلب فيه ، فى الترمذى « أرحم أمتى بأمتى أبو بكر وأشدهم فى أمر الله عمر وأصدقهم حياء عثمان وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ وأفرضهم زيد وأقرأهم أبى ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة ابو عبيدة » قتل اباه يوم بدر ونزلت فيه « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله » الآية كانت له عند رسول الله ﷺ حظوة لصدقه وحبه واتباعه امره وطاعته له ، تقدم انه تولى الامارة العامة على جيوش فتح الشام وكان اكثر فتحه على يده ، تولى تلك الامارة لا لدنيا يصيبها ولا لجاه يرغب فيه ولا لمال يدخره بل لمطلق خدمة الامة ورجاء رضا الله ، مات على ولايته ولم يملك من حطام الدنيا الا سيفه وترسه ورحله ولم يكن فى بيته ما يأكل إلا كسيرات من خبز ، وهو الذى قال لعمر : أتفر من قدر الله ؟ فقال : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله تعالى الى قدر الله تعالى . وذلك دال على جلالته عند عمر . وبالجملة فانه من كبار الصحابة وممن لازم النبي ﷺ وتخلق بأخلاقه متواضعاً زاهداً تقياً عاقلا رزيناً لين الجانب عادلا مخفوض الجناح عالما بالشرع ذا دربة فى أمور الحروب ، أخرج الحاكم فى المستدرك قال : لما طعن أبو عبيدة قال يا معاذ صلّ بالناس فصلى ثم مات أبو عبيدة فخطب معاذ فقال : انكم فجعتم برجل ما أزعم والله أنى رأيت فى عباد الله قط أقل حقداً ولا أبر صدراً ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا أنصح للعامة منه فترحموا عليه . مات فى طاعون عمواس سنة ١٨ وسنه ثمان وخمسون على أحد الاقوال وأوصى أن يدفن حيث مات

عمواس : بين الرملة وبيت المقدس على أربعة فراسخ من الرملة وكان ظهوره سنة ١٨ وانتشر فى البلاد فاجتاح السكان . وفى رواية ابن عساكر : كان ابو عبيدة فى ستة وثلاثين الفاً من المسلمين فلم يبق منهم إلا ستة آلاف رجل مات به كثير من الاعلام منهم ابو عبيدة ومعاذ بن جبل ويزيد بن ابى سفيان

---

(١) قوله بقية العشرة ، الخ وحديث تبشيرهم جميعاً بالجنة رواه الترمذي

سيدنا عبد الرحمن بن عوف (رضى الله عنه)

هو ابو محمد عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف القرشى الزهرى كان اسمه عبد الكعبة ويقال عبد عمرو فغيره النبى ﷺ ، أحد العشرة وأحد ستة الشورى هاجر الهجرتين وشهد بدراً فما بعدها ولاه النبى ﷺ بعث دومة الجندل وهو الامين على أزواج النبى ﷺ فى حجهن ، ولاه عمر ذلك وقال فيه : هو سيد من سادات المسلمين ذو رأى مسدد ، وهو الذى رجع عمر بجيشه من سرغ ولم يدخل الشام من أجل الطاعون والحديث عن ذلك مذكور فى الصحيحين ، وهو أحد المشهورين بالثروة فى الاسلام كان محظوظا في التجارة والعقل والعلم ، له اعانات مالية شهيرة وصدقات وأعمال بر كبرى . فى الاصابة قال جعفر بن برقان : بلغنى أن عبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين الف نسمة . أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وكان حرم الخمر فى الجاهلية وذكر البخارى فى تاريخه من طريق الزهرى قال : أوصى عبد الرحمن بن عوف لكل من شهد بدراً بار بعمائة دينار فكانوا مائة رجل ، وبالجملة فمنافعه جمة . مات سنة ٣٢ على الاشهر وعاش ٧٢ سنة على أحد الاقوال

سيدنا طلحة (رضى الله عنه)

هو أبو محمد طلحة بن عبيد الله بن عثمان القرشى التيمى أحد العشرة وأحد الثمانية الذين سبقوا للاسلام وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد أبى بكر وأحد ستة الشورى ، شهد المشاهد كلها إلا بدراً فان رسول الله ﷺ كان بعثه هو وسعيد بن زيد يتجسسان على عير قريش ولقيا رسول الله ﷺ منصرفاً من بدر فضرب لهما بسهميهما واجرهما فكانا كمن شهدها ، سماه رسول الله ﷺ طلحة الخير ويوم ذات العسرة طلحة الفياض ويوم حنين طلحة الجود وثبت يوم أحد مع رسول الله ﷺ ووقاه بيده فشلت اصبعاه وجرح يومئذ أربعاً وعشرين جرحا وأبلى فيها البلاء الحسن ، قال فيه رسول الله ﷺ : « من سره أن ينظر الى شهيد يمشى على وجه الارض فلينظر الى طلحة » . قتل يوم الجمل فى جمادى الاولى سنة ٣٦ وهو ابن ستين سنة على أحد الاقوال

سيدنا الزبير (رضى الله عنه)

هو ابو عبد الله الزبير بن العوام بن خويلد بن اسد بن عبد العزى بن قصى وفيه يجتمع

مع رسول الله ﷺ وهو ابن عمته ﷺ ، اسلم وهو ابن ثمان سنين وعذبه عمه بالدخان ليرجع فأبى وهاجر الهجرتين وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وهو اول من سل سيفاً فى سبيل الله ، وكان يوم بدر على الميمنة وعليه عمامة صفراء ونزلت الملائكة بعمائم صفر على سيماه ، وهو احد العشرة واحد ستة الشورى ومن الشجعان المشهورين وكان له الفضل فى فتح مصر مع عمرو بن العاص . وفى الصحيحين قال النبى ﷺ : « ان لكل نبى حوارى وان حوارى الزبير بن العوام » وقتل في جمادى الاولى سنة ٣٦ حين انصرف من وقعة الجمل تاركا القتال قتله غدراً عمرو بن جرموز وله ست او سبع وستون سنة

سيدنا سعيد بن زيد (رضى الله عنه)

هو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوى . كان والده زيد يقول : إلهى إله ابراهيم ودينى دين ابراهيم ، وكان ترك عبادة الاوثان وترك كل مايذبح على النصب ، وكان يقول : اللهم لو اعلم احب الوجوه اليك لعبدتك به ولكنى لا اعلمه ثم يسجد على الارض براحته . وفى البخارى عن اسماء بنت ابى بكر رضى الله عنهما قالت : رأيت زيد بن عمرو ابن نفيل قائما مسنداً ظهره الى الكعبة يقول : يامعشر قريش والله ما منكم على دين ابراهيم غيرى ، وكان يحيى الموؤدة ويقول الرجل اذا اراد ان يقتل ابنته : لا تقتلها انا اكفيك مؤنتها فيأخذها فاذا ترعرعت قال لابيها إن شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها

وابنه سعيد احد السابقين المشهود لهم بالجنة شهد أُحداً والمشاهد بعدها ولم يشهد بدراً حيث كان غائباً بالشام وضرب له رسول الله ﷺ بسهمه منهما ، شهد اليرموك وفتح دمشق . قال سعيد بن حبيب كان مقام ابى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد وسعيد وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف مع النبى ﷺ واحداً كانوا امامه فى القتال وخلفه فى الصلاة ، وكان سعيد من فضلاء الصحابة مجاب الدعوة وقصته مع أروى بنت أنيس مشهورة فى اجابة دعائه عليها وهو ابن ابن عم عمر بن الخطاب وكان اسلامه عنده فى بيته لانه كان زوج أخته فاطمة . توفى بالعقيق وحمل الى المدينة وذلك سنة ٥٠ أو ٥٢

سيدنا سعد بن أبى وقاص « رضى الله عنه »

هو أبو اسحاق سعد بن أبى وقاص مالك القرشى الزهرى أحد العشرة وآخرهم موتا من السابقين الاولين مكث ثلاثة أيام وهو ثالث الاسلام وأحد ستة الشورى وأول من رمى سهما

فى سبيل الله ومن شجعان قريش وكانهم من خيرة اصحاب النبى ﷺ مخلصاً فى اعانه . شهد المشاهد كلها وكان مجاب الدعوة حيث دعا له رسول الله ﷺ أن يسدد رميته ويجيب دعوته وكان صادق الحديث والرواية لما فطر عليه من صدق اللهجة وقول الحق . روى ابن عساكر عن عبد الله بن عمر عن سعد بن أبى وقاص عن رسول الله ﷺ أنه مسح على الخفين وأن ابن عمر سأل عمر عن ذلك فقال : إذا حدثك سعد عن رسول الله ﷺ فلا تسأل عنه غيره . وروى الشيخان والترمذى والنسائى من حديث عائشة قالت : لما قدم النبى ﷺ المدينة أرق فقال ليت رجلا صالحا من أصحابى يحرسنى ، اذ سمعنا صوت السلاح فقال من هذا ؟ قال أنا سعد فقام ، ولما قتل عثمان اعتزل الفتنة ، وهو الذى كوف الكوفة وأمره عمر عليها سنة ٢١ . كانت له قيادة الجيوش فى حرب الفرس وقد مر الخبر عن مسيرة الى القادسية والوقائع التى وقعت هناك وكانت من أعظم الوقائع التى دونها التاريخ ، قتل فيها من المسلمين نحو السبعة آلاف وخمسمائة وأما من قتل من الفرس فعدد كثير بالغ فيه المؤرخون وكان النصر حليف المسلمين وحصل فيها وهن للفرس ووقع بها فتح المدائن عاصمة الاكاسرة فانحدرت تلك العاصمة من شاهق عزها الى هاوية الخراب وقامت مقامها فى تلك الاصقاع بغداد دار الخلافة العباسية وانبعثت منها أشعة التمدن الاسلامى العظيم

واذا نظرت الى البلاد رأيتها تشقى كما تشقى العباد وتسعد

على أن ماضمته بغداد تحت جناحى الخلافة الاسلامية من الممالك الشاسعة والامصار النائية لم تضمه المدائن على عهد الاكاسرة والفضل في ذلك لسعد واضرابه من أقيال الصحابة السابقين ورجال الخلافة الراشدين جزاهم الله خير الجزاء عن المسلمين . مات سنة ٥٦ على الاشهر بالعقيق وحمل الى المدينة وصلى عليه مروان والى المدينة وأدخل للمسجد وصلى عليه أزواج النبى ﷺ وهن فى حجرهن وأوصى ان يكفن فى جبة صوف لقى المشركين بها يوم بدر ودفن بالبقيع

ذكر بعض السادات من أعيان الصحابة وفضلائهم

سيدنا حمزة رضى الله عنه

هو ابو عمارة حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى عم النبى ﷺ واخوه من الرضاعة أرضعتهما ثويبة كما فى الصحيحين ، اسلم فى السنة الثانية من البعثة ، لازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه وشهد بدراً وابلى فى ذلك وعقد له النبى ﷺ لواء وارسله فى سرية وذلك اول لواء عقد فى الاسلام واستشهد بأحد وكان ذلك فى النصف من شوال سنة ٣ ولقبه

رسول الله ﷺ اسد الله وسماه سيد الشهداء ودفن وعبد الله بن جحش فى قبر واحد ، ولما استشهد قال رسول الله ﷺ : رحمك الله اى عم ، لقد كنت وصولا للرحم فعولا للخيرات .
ورثاه كعب بن مالك بأبيات منها :

بكت عينى وحق لها بكاها ... وما يغنى البكاء ولا العويل
على اسد الاله غداة قالوا ... لحمزة ذاكم الرجل القتيل

أخوه سيدنا العباس رضى الله عنه

هو ابو الفضل العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان العباس اسن من النبى ﷺ بسنتين او ثلاث وكان اسلامه على المشهور قبل فتح مكة وضاع وهو صغير فنذرت امه ان وجدته ان تكسو البيت الحرير فوجدته فكست البيت الحرير فهى اول من كساه ذلك ، وكان اليه فى الجاهلية السقاية والعمارة وشهد الفتح وثبت يوم حنين . وقال النبى ﷺ « من آذى العباس فقد آذانى فان عم الرجل صنو ابيه » اخرجه الترمذى . وكان اعظم الناس عند رسول الله ﷺ والصحابة يعترفون له بالفضل ويشاورونه ويأخذون رايه ، وفى حديث انس : ان عمر كان اذا قحطوا استسقى بالعباس .مات بالمدينة فى رجب او فى رمضان سنة ٣٢ وله بضع وثمانون سنة

سيدنا جعفر « رضى الله عنه »

هو أبو عبد الله جعفر بن أبى طالب وكان أكبر من شقيقه على رضى الله عنه بعشرين سنة وهو من السابقين الاولين هاجر الهجرتين ونشر الدين بالحبشة وعلى يده كان اسلام النجاشى وقدم من الحبشة سنة سبع على رسول الله ﷺ وعانقه وقال ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحا بقدوم جعفر أم بفتح خيبر وأسهم له ولأهل السفينة من فيء الفتح المذكور كما فى الصحيحين واختط له رسول الله ﷺ الى جنب المسجد وقال له أشبهت خلقى وخلقى ثم غزا غزوة مؤتة بضم الميم وسكون الواو وبهمز وبدونه وهى بحدود الشام وكانت سنة ثمان وقتل فيها بعد أن قاتل حتى قطعت يداه معاً فقال رسول الله ﷺ « ان الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما فى الجنة حيث شاء » فمن ثم قيل له ذو الجناحين . ولما بلغ النبى ﷺ نعى جعفر آتى امرأته أسماء بنت عميس فعزاها فيه ، فدخلت فاطمة تبكى وتقول واعماه فقال رسول الله ﷺ : على مثل جعفر فلتبك البواكى . وجدت فيه نحو تسعين جراحة ليس فيها شيء فى ظهره . وهاته الغزوة

من أعجب ما سطره التاريخ للاسلام كان المسلمون ثلاثة آلاف خاضوا بحراً من جيش الروم يتجاوز مائة ألف وهى فاتحة المعارك بين الاسلام والروم وأول نصر عليهم . فى البخارى أن رسول الله ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فاصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ثم أخذ ابن رواحة فاصيب وعيناه تذرفان ثم أخذها سيف من سيوف الله تعالى حتى فتح الله عليهم . وفى رواية : ثم أخذها سيف من سيوف الله خالد بن الوليد ففتح عليهم

سيدنا زيد بن حارثة « رضى الله عنه »

هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبى أصابه سبى فى الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة فوهبته للنبى ﷺ قبل أن يوحى اليه وزيد حينئذ ابن ثمان سنين فأعتقه ﷺ وكان من أحب الناس اليه وتبناه وكان يطوف به على حلق قريش ويقول : هذا ابنى وارثاً وموروثاً قال الزهرى : لا أعلم أحداً أسلم قبله . وقال ابن عمر ما كنا ندعو زيدا إلا زيدا ابن محمد حتى نزلت « ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله » كما فى البخارى ولم يذكر أحد فى القرآن باسمه من الصحابة سواه . هاجر وشهد بدرا وكان ﷺ يؤمره على الجيوش وأمره على جيش مؤته فقاتل حتى قتل قبل جعفر فلما أتى النبى ﷺ موت جعفر وزيد بكى وقال : اخواى ومؤنساى ومحدثاى . استشهد وهو ابن خمس وخمسين سنة

سيدنا عبد الله بن رواحة « رضى الله عنه »

هو أبو عبد الله بن رواحة الانصارى الخزرجى أحد قواد الاسلام فى البعوث والسرايا وفى النقباء شهد بدرا وما بعدها وكان الخليفة بعد جعفر فى غزوة مؤتة فاستشهد بعد الاميرين قبله وكان من شعراء الصحابة ينافح عن رسول الله ﷺ بسنانه ولسانه . ومن ذلك أنه أنشد بين يدى رسول الله ﷺ عند دخوله مكة :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ‏ ‏ اليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ‏ ‏ ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر يا ابن رواحة أفى حرم الله وبين يدى رسول الله ﷺ تقول هذا الشعر فقال خل عنه يا عمر فوالذى نفسى بيده لكلامه عليهم أشد من وقع النبل . وفى الزهد لأحمد أن النبى ﷺ قال « رحم الله ابن رواحة انه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة »

سيدنا خالد بن الوليد « رضي الله عنه »

هو أبو الوليد خالد بن الوليد بن المغيرة القرشي المخزومي يجتمع مع النبي ﷺ في مرة أسلم على الاصح سنة سبع لم يشهد مع النبي ﷺ لاما كان بعد الفتح كان موصوفاً في قومه بالشجاعة محبباً فيهم مقدما عندهم بالحروب موفقا للنصر عارفاً بأحوال الحرب شهد وقعة مؤتة المذكورة آنفا أخذ الراية بعد ما استشهد امراء ثلاثة قبله وأبلى فيها البلاء الحسن حتى اندق يومئذ في يده سبعة أسياف ، ثم مازال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيش المسلمين . وفي هذه الوقعة سماه رسول الله ﷺ سيفاً من سيوف الله . له رواية في الصحيحين وغيرهما وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد ظهرت فيها نجابته ، وهو الذي أخضع أهل الردة ، وقتل مسيلمة الكذاب ومن أبى من دفع الزكاة وكان على يده فتوح الكثير من البلاد الكبار بالعراق والشام وكان له بعد من جميل الاثر ما رأيت في فضائل أبي بكر وكان فتحه للعراق تمهيدا الى تدويخ فارس وادالة دولة الاكاسرة ، وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وأرقاها مكاناً الا أنها بلغت من الكبر عتيا ومن فشل السياسة مكاناً قصياً فجاءها جند الاسلام بادى الشباب ناعم الاعصاب فأسس ملكه الجديد . وكانت حروب العراق أيام خالد أشد ما لقى المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب بالعراق وجند فارس على حرب المسلمين ، وبعد ما تم له ذلك الفتح أمره أبو بكر بالمسير الى الشام فسار وحصل له من الفتح هناك ما قد علم . قال بعض المؤرخين : قل أن يوجد فارس في العالم يوفق للنصر في كل واقعة كما وفق خالد رضي الله عنه فان التاريخ لم ينبئنا عن انخذاله ولا في وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو في العراق أو في الشام وهذا انما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بامور الحرب . وقد علمت كيف فل جموع الروم في اليرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة منذ سلموا قيادتهم له مع أن فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة والرأى كعمرو بن العاص وأبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وأضرابهم من كماة الاسلام وقادة الجيوش العظام . اتخذ رضي الله عنه بعد تمام تلك الفتوحات مقراً له حمص وفيها توفى سنة ٢١ ومدفنه هناك لم يزل معروفا يزار الى الآن . ولما حضرته الوفاة قال : لقد شهدت مائة زحف وما في بدني موضع شبر الا وفيه ضربة او طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء . وما من عمل أرجى من لا إله الا الله وأنا متترس بها

سيدنا خالد بن سعيد « رضى الله عنه »

هو خالد بن سعيد بن العاص بن أمية الاموى من أشراف قريش وأعيانهم وهو أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم ومن السابقين الاولين أسلم بعد أربعة وهاجر الهجرتين وصلى القبلتين ورجع من الحبشة هو وزوجه وأخوه وابنته مع جعفر بن أبى طالب وكان استعمله النبى ﷺ على صدقات مذحج وأمره أبو بكر على مشارف الشام فى الردة استشهد فى أجنادين او مرج الصفر

سيدنا سالم مولى أبى حذيفة « رضى الله عنهما »

هو أبو عبد الله سالم بن معقل كان من فضلاء الصحابة وخيارهم وكبرائهم من السابقين الأولين هاجر مع عمر ونفر مع الصحابة فكان يؤمهم لأنه أكثرهم قرآناً وكان يؤم المهاجرين بقباء وفيهم عمر شهد بدرا . روى البخارى ومسلم والنسائى والترمذى عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رفعه « خذوا القرآن من أربعة ابن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل » وروى عن عائشة رضى الله عنها « احتبست على النبى ﷺ فقال ما حبسك قالت سمعت قارئاً يقرأ فذكرت من حسن قراءته فاخذ رداءه وخرج فاذا هو سالم مولى أبى حذيفة فقال الحمد لله الذى جعل فى أمتى مثلك » شهد بدرا فما بعدها وكانت بيده راية المهاجرين يوم اليمامة فقطعت يده اليمنى فاخذها باليسرى فقطعت أيضا . مات فيها هو ومولاه حذيفة ووجد رأس أحدهما عند رجلى الآخر وذلك سنة ١٢

سيدنا معاذ بن جبل الانصارى الخزرجى رضى الله عنه

يكنى أبا عبد الرحمن امام الفقهاء وسيد العلماء . شهد بدرا والعقبة وكان أميراً للنبى ﷺ على اليمن وخرج معه رسول الله ﷺ ماشياً ومعاذ راكباً منعه رسول الله ﷺ من أن ينزل . أخرج ابن حبان والترمذى من طريق أبى هريرة رفعه : نعم الرجل معاذ بن جبل . كان عقبيا بدريا من فقهاء الصحابة وأخرج الترمذى وابن ماجه « أرحم أمتى أبو بكر وفيه وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ » وفى الصحيح استقرئوا القرآن من أربعة ابن مسعود وسالم مولى أبى حذيفة وأبى ابن كعب ومعاذ بن جبل وصح عن عمر انه قال من أراد الفقه فليأت معاذا وقال ايضا عجزت

النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ لهلك عمر وقال من أراد الفرائض فليأت زيد بن ثابت وكان من أجمل الرجال قانتا عابدا مجتهدا ورعا محققا شهد اليرموك ومات شابا عن نيف وثلاثين سنة فى طاعون عمواس سنة ١٨

سيدنا يزيد بن أبي سفيان رضى الله عنه

هو ابو خالد يزيد الخير بن ابى سفيان صخر بن حرب بن أمية القرشى الأموى كان من فضلاء الصحابة من مسلمة الفتح استعمله النبي ﷺ على صدقات بنى فراس وكانوا أخواله . أحد أمراء الأجناد بالشام وممن كان تحت رايته ابوه ابو سفيان وأخوه معاوية . وأمره عمر على فلسطين ثم على دمشق . مات فى طاعون عمواس سنة ١٨ وقيل ١٩

سيدنا أبي بن كعب رضى الله عنه

هو ابو المنذر أبيّ بن كعب بن قيس النجارى الخزرجى أسلم قديما شهد العقبة الثانية وبايع فيها وشهد بدرا والمشاهد بعدها وهو اول من كتب الوحى لرسول الله ﷺ بعد الهجرة وكان من فقهاء الصحابة وقرائهم وحسبك ان الله سبحانه وتعالى امر نبيه ﷺ ان يقرأ عليه القرآن وقال فيه ﷺ أقرأ كم أبي وقال خذوا القرآن عن أربعة وعد منهم أبيا وهوأحد الاربعة الذين جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وكان عمر يسميه سيد المسلمين ويسأله عن المعضلات ويتحاكم اليه اذا وقع خلاف بين الصحابة وتوفى فى خلافة عمر على الاكثر سنة ١٩ وقيل سنة ٢٠

تنبيـــه

تخصيص هذه الاربعة بالذكر دون غيرهم ممن حفظ القرآن وهم كثير لانهم هم الذين تفرغوا لتعليمه دون غيرهم ممن اشتغل بغير ذلك من العلوم أو العبادات أو الجهاد . ويحتمل لانه ﷺ علم انهم هم الذين ينتصبون لتعليمه فأحال عليهم لعلمه بأن الامة ترجع اليهم كما أظهر الوجود اذ هم أئمة القراء والى روايتهم ينتهى غالب أسانيد الائمة الفضلاء . اه من الأبي

سيدنا عبد الله بن مسعود الهذلى رضى الله عنه

يكنى أبا عبد الرحمن هو سادس من أسلم كان يلج على رسول الله ﷺ ويلبسه نعله ويمشى معه وامامه ويستره اذا اغتسل ويوقظه اذا نام وقال له اذنك على أن ترفع الحجاب وأن تسمع

سوادى (بكسر السين اسرارى) حتى أنهاك . وكان يشبه فى هديه وسمته رسول الله ﷺ شهد له بالجنة . هاجر الى الحبشة مرتين ثم الى المدينة وصلى القبلتين وشهد المشاهد كلها ، شهد له كثير من الصحابة انه أعلمهم بكتاب الله تعالى قراءة وعلماً وكان من أعظم الامور عليه ان الصحابة لما عزموا على كتب المصحف عينوا لذلك أربعة ولم يكن منهم ابن مسعود وكتبوه على لغة قريش ولم يعرجوا على ابن مسعود لانه كان هذلياً وكانت قراءته على لغتهم وبينها وبين لغة قريش تباين عظيم فلذلك لم يدخلوه معهم . حدث عن النبى ﷺ بالكثير وروى عنه الكثير من الصحابة والتابعين وكان يقول أخذت من فى رسول الله ﷺ سبعين سورة أخرجه البخارى وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وفى البخارى خذوا القرآن عن أربعة عن ابن أم عبد ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة . وشهد فتوح الشام وسيره عمر الى الكوفة ليعلمهم أمورهم وبعث عمار بن ياسر أميراً وقال انهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ فاقتدوا بهما ثم أمره عثمان على الكوفة ثم عزله واستقدمه الى المدينة قال حذيفة ما أعلم أحداً سواه أشبه دلا وهديا برسول الله ﷺ ، وكان زاهداً صالحاً له مزايا كثيرة . وقد انتشر العلم والدين عن أصحاب أربعة من أعلام الصحابة ابن مسعود وأصحابه وهم أهل العراق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأصحابهما وهم أهل المدينة وابن عباس وأصحابه وهم أهل مكة . توفى بالمدينة سنة ٣٢

سيدنا أبوذر رضى الله عنه

هو أبو ذر جندب بن عمرو الغفارى من كبار الصحابة أسلم بعد أربعة وقصة اسلامه فى الصحيحين ثم انصرف الى بلاد قومه فأقام بها حتى قدم عام الحديبية بعد ان مضت بدر وأحد والخندق . غلب عليه التعبد والتزهد فكان يعتقد ان جميع ما يفضل عن الحاجة كنز قاسا كحرام (١) ودخل الشام بعد موت النبى ﷺ وهو ممن نشر العلم به والدين وكان فى رتبة ابن مسعود فى العلم ووقع بينه وبين معاوية نزاع فى قوله تعالى « والذين يكنزون الذهب والفضة » الآية فشكاه معاوية الى عثمان فأقدمه عثمان المدينة واستأذن عثمان فى اقامته بالربذة موضع منقطع عن المدينة ومات هناك سنة ٣٢ وهو أول من حيى النبى ﷺ تحية الاسلام وهى السلام عليكم وذلك لما دخل عليه ليسلم روى ابن عساكر عن أبى الدرداء ان رسول الله ﷺ قال ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر

---

(١) قوله قاسا كحرام مذهبه فى ذلك اشتراكى وله قصة فى شأن ذلك مع معاوية وعثمان رضى الله عنهم

سيدنا المقداد بن الاسود رضى الله عنه

هو أبو الاسود المقداد بن عمرو بن ثعلبة الحضرمى تبناه الاسود واشتهر بذلك فلما نزلت « ادعوهم لآبائهم » قيل له المقداد بن عمرو. أسلم قديماً وهاجر الهجرتين وشهد بدرا وما بعدها وكان فارساً يوم بدر ولم يثبت انه كان فيها على فرس غيره . روى الترمذى مرفوعا عن النبي ﷺ « ان الله عز وجل أمرنى بحب أربعة وأخبرنى انه يحبهم على والمقداد وأبو ذر وسلمان » شهد فتح مصر وهو أحد الرجال الاربعة الذين بعثهم عمر مددا لمصر وقال الواحد منهم مقام الالف مسلمة والمقداد والزبير وعبادة بن الصامت مات سنة ٣٣

سيدنا عباده بن الصامت رضى الله عنه

هو أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الانصارى الخزرجى أحد النقباء شهد بدراً وما بعدها كان من أعلام الصحابة وقضاتهم وشهد فتح مصر وكان أمير ربع المدد وقال فيه عمر مقامه من الرجال مقام الالف فى الصحيحين قال أنا من النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلة العقبة الحديث وروى ابن سعد انه ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ كتب يزيد بن أبى سفيان الى عمر قد احتاج أهل الشام الى من يعلمهم القرآن ويفقههم فأرسل معاذا وعبادة وأبا الدرداء فقام عبادة بفلسطين وهو أول من تولى القضاء بفلسطين مات بالرملة سنة ٣٤

سيدنا أبو الدرداء رضى الله عنه

هو عويمر بن عامر الانصارى الخزرجى أسلم يوم بدر وشهد المشاهد كلها وآخى عليه الصلاة والسلام بينه وبين سلمان فكانا من الزهاد العباد وهو معدود من الفقهاء الحكماء قال فيه النبي ﷺ انه حكيم هذه الامة وقال فيه ماحملت ورقاء ولا أظلت خضراء اعلم منك يا أبا الدرداء . تولى قضاء دمشق فى خلافة عمر وعثمان وقيل ان عمر ولاه قضاء المدينة أيام خلافته توفى سنة نيف وثلاثين

سيدنا حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما

هو حذيفة بن اليمان بن جابر بن عمرو العبيسى حليف بنى عبد الاشهل من الانصار من كبار الصحابة له ولابيه صحبة من السابقين الاولين شهد أحدا وما بعدها وبها استشهد أبوه وله

أياد فى الاسلام بعلمه وسيفه وكان على يده فتح الكثير من البلاد كالدينور وهمذان والرى وغيرها وهو الذى أشار على عثمان بنسخ المصاحف وجمع الناس على مصحف واحد وتحريق ما سواه روى عن النبى ﷺ الكثير تولى بعض امور الكوفة وولاه عمر المدائن وبقى بها الى أن مات بعد قتل عثمان بيسير سنة ٣٦

سيدنا سلمان الفارسى (رضى الله عنه)

يكنى أبا عبد الله ويعرف بسلمان الخير وكان ينسب الى الاسلام فيقول أنا سلمان ابن الاسلام ويعد من موالى رسول الله ﷺ لانه كان السبب فى عتقه ونسبه ﷺ الى بيته فقال سلمان منا أهل البيت . أصله فارسى وأبوه مجوسى فنبهه الله تعالى الى قبح ما كان عليه أبوه وقومه وجعل فى قلبه التشوف الى طلب الحق ففر عن أرضه الى أرض الشام فلم يزل يجول فى البلدان ويختبر الاديان ويكشف الاحبار والرهبان الى أن دل على راهب الوجود بالوصول الى المقصود بعد الصبر على المشاق والمكاره حسبما ذلك منقول فى اسلامه فى كتب السير وأول مشاهده الخندق وهو الذى أشار بحفره ولم يفته بعد ذلك مشهد وكان خيراً فاضلا عالما حبراً زاهداً متقشفا قال الحسن كان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان اذا خرج عطاؤه تصدق به ويأكل من عمل يده حال كونه أميراً على المدائن عاصمة الاكاسرة وقال النبى ﷺ « لو كان الدين فى الثريا لناله سلمان » وفى رواية « رجال من الفرس » وعن عائشة كان لسلمان مجلس من رسول الله ﷺ ينفرد به من الليل حتى كاد يغلبنا عن رسول الله ﷺ » وقال رسول الله ﷺ « ان الله أمرنى أن أحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم : على وأبوذر والمقداد وسلمان» وعن على رضى الله عنه « ان سلمان مثل لقمان » وعن أبى هريرة قال « كان سلمان صاحب الكتابين » قال قتادة يعنى الانجيل والفرقان . له أخبار حسان وفضائل جمة توفى فى آخر خلافة عثمان سنة خمس أو ست وثلاثين قال الشعبى وتوفى بالمدائن ، قيل عاش مائتين وخمسين سنة وقيل أكثر

سيدنا عمار بن ياسر (رضى الله عنه)

هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر العنيسى حليف بنى مخزوم ، شهد المشاهد كلها من السابقين الاولين هو وأبواه وكانوا ممن يعذب فى الله وماتت أمه فى ذلك التعذيب وكان النبى ﷺ يمر عليهم فيقول « صبراً آل ياسر موعدكم الجنة » وأول من أظهر اسلامه سبعة منهم

ياسر وعن على رضى الله عنه قال « استأذن عمار على النبى ﷺ فقال اذنوا له مرحباً بالطيب المطيب » وفى رواية ان عليا قال ذلك وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان عمارا ملىء ايمانا الى مشاشته » أخرجه الترمذى وابن ماجه . كان من أعلام الصحابة وفقهائهم روى عن النبى ﷺ الكثير وعنه جماعة من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وفى الترمذى مرفوعاً « ماخير عمار بين أمرين الا اختار أيسرهما » وأخرج الترمذى عن حذيفة رفعه « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر واهتدوا بهدى عمار » وتواترت الاحاديث عن النبى ﷺ ان عمارا تقتله الفئة الباغية وأجمعوا على انه قتل مع على رضى الله عنه بصفين سنة ٣٧ وعمره ٩٣

سيدنا عمرو بن العاص « رضى الله عنه »

هو أبو عبد الله أو أبو محمد عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم القرشى السهمى وأخوه لامه عقبة بن نافع الفهرى داهية العرب عقلا ورأيا ولسانا وكانت له مكانة عند قومه لشهرته بالدهاء والمكيدة وكان حريصاً على الامارة يحب الظهور ويميل الى الاتيان بالاعمال الكبار ليكون كبيرا عند الناس جامعا بين أجرى الدنيا والآخرة . تأخر اسلامه وكان قبل فتح مكة بستة أشهر وكذلك خالد بن الوليد وكان حسن الصحبة محباً لرسول الله ﷺ شديد الحياء منه لا يرفع طرفه اليه اجلالا له كما فى الصحيح روى عنه انه قال « ماعدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت » رواه ابن عساكر وذلك بلا ريب لثقته باسلامهما فى أمور الحرب وحسبهما فضيلة فتوحهما العظيم بالعراق والشام ومصر . بعثه رسول الله ﷺ رئيساً على جيش فيه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وذلك فى غزوة ذات السلاسل وأرسله ﷺ الى عمان واليا على الصدقة وأن يدعو الناس الى الاسلام فذهب ودعاهم الى الاسلام فآمنوا وحسبه الفضيلة العظيمة فتحه مصر وطرابلس الغرب وحروبه مع الامراء بالشام كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب الا انه عيب عليه دخوله غمار الفتنة العظمى وكونه اليد القوية فيها ومن مكائده فى الفتنة اشارته برفع المصاحف فى وجوه أصحاب على وخداعه لأبى موسى الاشعرى يوم التحكيم وبعد أن تم له فتح مصر والاسكندرية جعل مقره الفسطاط بأمر من أمير المؤمنين عمر بعد أن أقره واليا عليها فكان خير وال وأعظم قائد وأحب الولاة الى الرعية وأشدهم قياماً على العدل والنظر فى عمران البلاد وراحة أهلها فتألف بدهائه وحسن سياسته قلوب القبط حتى جعلهم عونا للمسلمين وتعبدت له البلاد فأحبها وأحبه أهلها لذلك كان شأن مصر عنده عظيما وامارتها اليه محببة ، وفى امارته وقع حفر الخليج المعروف بخليج أمير المؤمنين الذى كان يمتد من الفسطاط الى السويس وكان الصلة العظمى بين مصر والبحر الاحمر والهند وهذا الخليج قديم جدا قبل

الاسلام وتعطل قبل الفتح وسبب فتحه ان الناس أصابهم جهد شديد فى خلافة عمر عام الرمادة فكتب الى عمرو بن العاص « سلام عليك أما بعد فلعمرى يا عمرو ماتبالى اذا شبعت أنت ومن معك وأهلك ومن معى ، فياغوثاه ثم ياغوثاه » فكتب اليه « من عبد الله عمرو الى أمير المؤمنين أما بعد فيالبيك ثم يالبيك فقد بعثت اليك بعير اولها عندك وآخرها بمصر يتبع بعضها بعضاً » فلما قدمت على عمر وسع بها على الناس واصاب كل بيت بعيرا بما عليه من الطعام فلما رأى عمر ذلك حمد الله وكتب الى عمرو ان يقدم اليه مع جماعة من اهل مصر ولما قدموا قال لهم « ان الله قد فتح على المسلمين مصر وهى كثيرة الخير والطعام وقد ألقى فى روعى لما احببت من الرفق لاهل الحرمين التوسعة عليهم حين فتح الله مصر وجعلها قوة لهم ولجميع المسلمين ان أحفر خليجا من نيلها حتى يسيل فى البحر فهو اسهل لما نريد من حمل الطعام الى المدينة ومكة فان حمله على الظهر يبعد ولا نبلغ به ما نريد » واجابوه لذلك فانصرف عمرو وجمع الفعلة فاحتفر فى حاشية الفسطاط مسافة من النيل الى السويس فلم يأت الحول حتى جرت فيه السفن لحمل عليها ما اراد من الطعام الى الحرمين وسمى خليج امير المؤمنين ولم يزل على ذلك الى مدة عمر بن عبد العزيز ثم ضيعه الولاة بعده اما الخليج المعروف بالبرزخ وهو يصل البحر الاحمر بالبحر الابيض فأبى عمر فتحه خوفا من وصول الروم الى البحر الاحمر وهذا الخليج كان موجوداً فى عهد البطالسة وآثاره باقية الى عهد عمر ولم يزل عمرو واليا على مصر الى خلافة عثمان فعزله وولاها عبد الله بن سعد بن أبى سرح ثم وليها فى زمن معاوية وتوفى عليها يوم الفطر سنة ٤٣ وهو ابن ٩٠ سنة ودفن بالمقطم وترك دنيا عريضة وثروة واسعة ولما حضرته الوفاة بكى فقال له ابنه عبد الله مايبكيك وأجابه بما هو مذكور فى حديث قصة اسلامه بطوله فى صحيح مسلم

سيدنا زيد بن ثابت « رضى الله عنه »

هو أبو سعيد زيد بن ثابت الانصارى النجارى الخزرجى شهد أحداً فما بعدها وأعطاه ﷺ راية بنى النجار فى غزوة تبوك ، وهو الذى تولى قسم غنائم اليرموك ، وكان كاتب رسول الله ﷺ الوحى وغيره ، ثم استكتبه أبو بكر فعمر ، وهو الذى باشر جمع المصحف الشريف أيام أبى بكر كما فى الصحيح ، وتولى نسخ المصاحف زمن عثمان ومعه عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن حارث بن هشام القرشى المخزومى المتوفى سنة ٤٣ : كان زيد رأساً بالمدينة فى القضاء والفتوى والفرائض قال فيه عليه الصلاة والسلام « أفرضكم زيد » كان عمر يستخلفه وكذلك عثمان واستعمله أميناً على بيت المال ، وكان من الراغبين فى العلم ، وهو أحد الذين جمعوا القرآن فى عهد النبى ﷺ . قال مالك : كان امام الناس بالمدينة

بعد عمر زيد بن ثابت ، وكان امام الناس بعده عبدالله بن عمر وقد أخذ بركابه يوما ابن عباس وقال هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا فقبل زيد رأسه وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بآل بيت نبينا . توفى سنة نيف وأربعين وفى تحرير المنيف أقوال وفى خمس وأربعين قول الأكثر . ولما مات قال أبو هريرة : مات حبر هذه الامة وعسى أن يجعل الله فى ابن عباس منه خلفاً . ورثاه حسان بقوله :

فمن للقوافى بعد حسان وابنه ومن للمعانى بعد زيد بن ثابت

سيدنا سعيد بن العاص (رضى الله عنه)

هو أبو عثمان سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشى الاموى كان من فصحاء قريش ولهذا ندبه عثمان فيمن ندب لكتابة القرآن قال ابن أبى داود فى المصاحف ان عربية القرآن أقيمت على لسان سعيد بن العاص انه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ . ولى الكوفة وغزا طبرستان وجرجان وكان فى عسكره حذيفة وغيره من كبار الصحابة وولى المدينة لمعاوية وكان حليما وقوراً مشهورا بالكرم والبر . روى عن ابن عمر أنه قال جاءت امرأة الى النبى ﷺ ببردة فقالت انى نذرت أن أعطى هذه البردة لأكرم العرب . فقال : أعطيها لهذا الغلام وهو واقف يعنى سعيدا هذا . مات بقصره بالعقيق سنة ثلاث وخمسين

سيدنا أبو موسى الأشعرى « رضى الله عنه »

هو عبد الله بن قيس بن سليم الاشعرى من علماء الصحابة وأعيانهم ومن السابقين الاولين هاجر الهجرتين ، استعمله النبى ﷺ على بعض اليمن كزبيد وعدن وأعمالها واستعمله عمر على البصرة بعد المغيرة فافتتح الاهواز واصبهان وغيرهما ثم استعمله عثمان على الكوفة وبه تفقه أهلها . روى له من الحديث ستمائة وستون حديثاً فى الصحيحين منها ثمانية وستون حديثاً كان حسن الصوت بالقرآن . وفى الصحيح : « لقد أوتى مزمارا من مزامير آل داود » وكان عمر اذا رآه قال : شوقاً الى ربنا يا أبا موسى فيقرأ عنده . قال الشعبى : انتهى العلم الى ستة فذكره فيهم . وقال ابن المدينى : قضاة الامة أربعة عمر وعلى وأبو موسى وزيد بن ثابت شهد فتوح الشام ، وكان أحد الحكمين بصفين وخدع فيه حتى كان ما كان ، ثم اعتزل الفريقين . مات سنة اثنتين أو أربع وأربعين أو ثلاث وخمسين قيل بمكة وقيل بالكوفة وهو ابن نيف وستين

سيدنا الحسن و سيدنا الحسين ابنا سيدنا على

(رضى الله عنهم)

قال الحافظ ابن حجر وقع جمعها لما لها من الاشتراك فى كثير من المناقب وكان مولد الحسن فى رمضان سنة ثلاث من الهجرة عند الأكثر ومات بالمدينة مسموماً سنة خمسين وقيل قبلها وقيل بعدها ودفن بالبقيع الى جنب قبر أمه، وصلى عليه سعيد بن العاص. وقد تواترت الاحاديث الصحيحة أنه ﷺ قال فى الحسن «ان ابنى هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين» الحديث. كان حليما فاضلا ورعا دعاه فضله وورعه الى ترك الملك رغبة فيما عند الله تعالى، وظهر صدق ذلك فانه لما قتل أبوه على بايعه أكثر من أربعين ألفاً وكثير ممن تخلف عن أبيه ومن نكث بيعته. فبقى خليفة بالعراق وما وراءها من خراسان خمسة أشهر. ثم سار الى معاوية فى أهل الحجاز وسار اليه معاوية فى أهل الشام فلما التقى الجمعان بالانبار كره الحسن القتال لعلمه أن احدى الطائفتين لا تغلب حتى يهلك أكثر الاخرى فسلم الامر الى معاوية على شروط

وأما الحسين فكان فاضلا كثير الصوم والصلاة حج خمساً وعشرين حجة ماشياً. وقال ﷺ فيه وفى الحسن «سيدا شباب أهل الجنة» وقال «هما ريحانتاى فى الدنيا». شهد مع أبيه الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج وبقى معه الى أن قتل. ثم مع أخيه الى أن سلم الامر الى معاوية فتحول مع أخيه الى المدينة واستمر بها الى أن مات معاوية فخرج الى مكة ثم أتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه بعد موت معاوية فأرسل اليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب فأخذ بيعتهم وتوجه اليهم وكان من قصة قتله ما كان وقتل معه جماعة من أهل البيت فى موضع يقال له كربلاء ويقال له الطف قرب الكوفة فى يوم عاشوراء سنة ٦١. مولده فى شعبان سنة اربع على قول الاكثر

سيدنا أسامة بن زيد «رضى الله عنهما»

تقدم ذكر نسبه فى مناقب والده يكنى أبا محمد ويسمونه حب رسول الله ﷺ وتربى فى بيت النبوة مع اولاده وكان يجعله فى حجره هو وسبطه الحسن ويقول «اللهم انى احبهما فأحبهما» توفى النبى ﷺ وهو ابن عشرين سنة وولاه على جيش عظيم فيه ابو بكر وعمر فمات النبى ﷺ قبل ان يتوجه فأنفذه ابو بكر وتقدم الكلام على هذا الجيش فى فضائل ابى بكر. وكان اسامة ممن اعتزل الفتنة. وتوفى آخر ايام معاوية

سيدنا عبد الله بن سعد « رضى الله عنه »

هو أبو يحيى عبد الله بن سعد بن أبى سرح بن الحارث القرشى العامرى أخو عثمان بن عفان من الرضاعة ، شهد فتح مصر واختط بها وكان صاحب الميمنة فى الحرب مع عمرو بن العاص وله مواقف محمودة فى الفتوح براً وبحراً وأمره عثمان على مصر وافتتح افريقية زمن عثمان وكانت ولايته مصر سنة ٢٥ ، وكان فتح أفريقية من أعظم الفتوح بلغ سهم الفارس فيه ثلاثة آلاف دينار وذلك سنة ٢٨ وقيل كانت ولايته على مصر سنة ٢٧ بعد عزل عمرو بن العاص ، فغزا أفريقية ومعه العبادلة ، وقيل كانت ولايته سنة ٢٥ وغزوة افريقية سنة سبع وكان محمود السيرة ولما وقعت الفتنة سكن عسقلان ولم يبايع لأحد . روى البغوى باسناد صحيح عن يزيد بن أبى حبيب قال : خرج ابن أبى سرح الى الرملة فلما كان عند الصبح قال اللهم اجعل آخر عملى الصبح فتوضأ ثم صلى فسلم عن يمينه ثم ذهب ليسلم عن يساره فقبض الله روحه . وذكره البخارى من هذا الوجه ، وأخرج السراج عن عبد العزيز بن عمر ان قال : مات ابن أبى سرح سنة ٥٩ فى آخر سنى معاوية

سيدنا معاوية رضى الله عنه

هو أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان تقدم ذكر نسبه فى مناقب أخيه يزيد . كان من كتبة الحسبة الفصحاء حلما وقوراً ، قال المدينى : كان زيد بن ثابت يكتب الوحى ومعاوية يكتب للنبى ﷺ فيما بينه وبين العرب ، ولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد وأقره عثمان ثم استمر فلم يبايع عليا ثم حاربه واستقل بالشام ثم أضاف اليها مصر ثم تسمى بالخليفة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن واجتمع اليه الناس فسمى ذلك العام عام الجماعة مات فى رجب سنة ٦٠ على الصحيح

سيدنا مسلمة بن مخلد « رضى الله عنه »

هو أبو سعيد مسلمة بن مخلد على وزن محمد الانصارى الخزرجى . قال ولدت حين قدم النبى ﷺ المدينة ، وهو أحد الرجال الاربعة الذين بعثهم عمر رضى الله عنه مدداً لفتح مصر وقال : الواحد منهم مقام الالف ، وهو أول من جمعت له امارة مصر والمغرب مات سنة ٦٢

سيدنا مروان بن الحكم (رضي الله عنه)

هو أبو عبد الملك مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية القرشى الاموى وهو ابن عم عثمان وكاتبه فى خلافته . ولد بعد الهجرة بسنتين وقيل بأربع كان يعد من الفقهاء ، شهد فتح افريقية وكان من أسباب قتل عثمان وشهد الجمل مع عائشة ثم صفين مع معاوية ثم ولى أمرة المدينة لمعاوية ولم يزل بها الى أن أخرجه ابن الزبير فى أوائل امرة يزيد بن معاوية فبايعه بعض أهل الشام فى قصة طويلة ثم كانت الوقعة بينه وبين الضحاك بن حنين وكان أميراً لابن الزبير فانتصر مروان وقتل الضحاك واستوثق له ملك الشام ثم توجه لمصر فاستولى عليها ثم بغته الموت فعهد الى ولده عبد الملك فكانت مدته فى الخلافة نحو نصف عام ومات فى رمضان سنة ٦٥ وهو أول من ضرب الدنانير الشامية وكتب عليها «قل هو الله أحد»

سيدنا عبد الله بن العباس رضى الله عنه

هو أبو العباس عبد الله بن العباس ابن عم رسول الله ﷺ وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية . ولد قبل الهجرة بثلاث سنين وهو أثبت الاقوال ، كان من أعيان علماء الصحابة ومن أعلمهم بتفسير القرآن وكان عمر يقدمه مع الاشياخ وهو شاب . أورد فى حديثه قال : ضمنى النبى ﷺ وقال « اللهم علمه الحكمة » وفى لفظ « علمه الكتاب » وفى رواية «فقهه فى الدين » وفى رواية « فقهه فى الدين وعلمه التأويل » وفى رواية « اللهم بارك فيه وانشر عنه واجعله من عبادك الصالحين » واختلف فى تفسير الحكمة هنا فقيل الكتاب وقيل الاصابة فى القول ، وقيل الفهم عن الله ، وقيل مايشهد العقل بصحته ، وقيل نور يفرق به بين الالهام والوسواس ، وقيل سرعة الجواب بالصواب ، وقيل غير ذلك وكان ابن مسعود يقول : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . وكان ابن عمر يقول : ابن عباس فتى الكهول له لسان سئول وقلب عقول . وقال مسروق : كنت اذا رأيت ابن عباس قلت أجمل الناس واذا تكلم قلت أفصح الناس واذا تحدث قلت أعلم الناس وكان يسمى الحبر لغزارة علمه والبحر لاتساع حفظه ونفوذ فهمه ، وجملة ماروى عن رسول الله ﷺ ألف حديث وستمائة وستون ، فى الصحيحين منها مائتان وأربعة وثلاثون ، وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن رسول الله ﷺ أبو هريرة وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو بن العاص وعائشة . وأحد العبادلة الاربعة عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله ابن الزبير ، والحاصل أن دعوات رسول الله ﷺ فيه قبلت وظهرت بركاتها عليه فاشتهرت

علومه وفضائله فارتحل طلاب العلم اليه وازدحموا عليه ورجعوا عند اختلافهم لقوله وعولوا على نظره ورأيه ، وكان يقال له حبر العرب ويقال ان الذى لقبه بذلك جرجير ملك الغرب وكان قد غزا مع عبد الله بن أبى سرح افريقية فتكلم مع جرجير فقال له ماينبغى إلا أن تكون حبر العرب ذكر ذلك ابن دريد فى الاخبار المنثورة . قال ابن يونس : وكانت هاته الغزوة سنة ٢٧ فضائله جمة وتوفى بالطائف وفي وفاته أقوال والصحيح وهو قول الجمهور سنة ٦٨

***

شقيقه أبو محمد عبيد الله كان من فضلاء الصحابة وكان جميلا سخياً جواداً ، استعمله علي على اليمن وحج بالناس سنة ٣٦ ومات بالمدينة سنة ٥٨ وبه جزم أبو نعيم

سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما

تقدم ذكر نسبه فى مناقب والده يكنى أبا عبد الله وأبا عبد الرحمن أسلم قبل أبيه وفى الصحيحين قصته مع النبي ﷺ فى نهيه عن مواظبة قيام الليل وصيام النهار وأمره بصيام يوم بعد يوم وبقراءة القرآن فى كل ثلاث وهو مشهور وفى بعض طرقه أنه لما كبر كان يقول ياليتنى كنت قبلت رخصة رسول الله ﷺ وهو أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة حديثا فى البخارى عن أبى هريرة ما أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منى الا ما كان من عبد الله بن عمرو فانه كان يكتب روى عن النبي ﷺ وجماعة من الصحابة وعنه الكثير من الصحابة والتابعين . شهد فتح مصر وأفريقية ومات سنة ٦٩ على أحد الاقوال وهو ابن اثنين وستين

سيدنا عبد الله بن الزبير « رضى الله عنهما »

تقدم ذكر نسبه فى فضائل والده يكنى أبا عبد الله أمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ولد عام الهجرة وحفظ عن النبي ﷺ وهو صغير وحدث عنه بجملة من الحديث وعن أبيه وأبى بكر وعمر وعثمان وخالته عائشة وغيرهم وهو أحد العبادلة وهو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة حنكه النبي ﷺ بتمرة مضغها ثم تفل فى فيه فكان أول شىء دخل فى جوفه ريق النبي ﷺ ودعا له وبرك عليه وهو أحد الاربعة الذين اقتدى بهم عثمان لنسخ المصاحف . شهد اليرموك مع أبيه والجمل مع عائشة ثم اعتزل حروب علي وشهد فتح أفريقية وبويع له بالخلافة سنة ٦٤

عقب موت يزيد بن معاوية ولم يختلف عنه أحد إلا بعض أهل الشام ثم جهز عبد الملك بن مروان جيشاً أميره الحجاج الى ابن الزبير فقاتله الى أن قتل فى جمادى الاولى سنة ٧٣ فى خبر طويل الذيل

سيدنا عبد الله بن جعفر (رضى الله عنهما)

مر ذكر نسبه فى مناقب والده يكنى أبا محمد ولد بالحبشة لما هاجر أبوه اليها . روى عن النبى ﷺ وعن أبويه وعمه وأبى بكر وعثمان وعمار بن ياسر وعنه جماعة روى عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ وأما عبد الله فيشبه خلقى وخلقى ثم أخذ بيدى فقال اللهم اخلف جعفرا فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه قالها ثلاث مرات وكان كريما وأخباره فى الكرم كثيرة شهيرة . شهد فتح أفريقية والمشهور أنه مات سنة ٨٠

خلاصـــــــة

اعلم أن الفتوحات الاسلامية امتدت واتسعت فى الجهات الشرقية والغربيـة زمن الخلفاء الراشدين لطهارة سيرتهم وصفاء سريرتهم ولعدلهم فى بيت المال وغيره وكان الصحابة رضى الله عنهم هم الواسطة العظمى فى انتشار الدين وتبليغه بنقل أقواله وأفعاله وأحواله وأخباره وبث العلم وانتشاره وبهم أشرقت على العالم أنوار النبوة المحمدية على صاحبها أشرف السلام وأذكى التحية واعترفت الامة لله الواحد القهار بالوحدانية وبلغت من الرقى أعلاه ومن المجد أسناه وبسطت الخلافة الاسلامية يدها على مشارق الارض ومغاربها كل ذلك بواسطة الصحابة ثم التابعين رضوان الله عليهم أجمعين فهم الذين مهدوا لنا المسالك وفتحوا لنا الاقطار والممالك وذللوا الامم وأقاموا منار العدل ومحوا آثار الفساد والبغى والظلم وقد كانوا أسود نزال وعلماء حرب وقتال وكانت لهم الحرية الحقيقية لايسكتون على منكر ولا يقرون على ضيم وكانوا غير مستبدين فى الاعمال لايبرمون أمراً من أمور الدولة الا بعد المشاورة فيه مع عظماء الامة وكان اختيار الاعمال المنوطة بهم يوكل اليهم والخليفة ينفذ ما استقر عليه رأيهم لانه أرجى فى نجاح الامور لان الامة لاتجتمع على ضلالة فكانت الاعمال منظمة والرياسة فى أهلها والنجاح متأصل الاطراف مأمون مما يخاف

واعلم انى أشرت فيما تقدم للفتوحات الشرقية والغربية التى وقعت زمن الخلفاء الراشدين وهى فى الحقيقة تمهيد للفتوحات الغربية وذكر أمراء أفريقية . وحيث كان ذلك هو الغرض

الوحيد من تأليف هاته التتمة وقد آن الاوان فلنشرع فى الغرض المقصود ، مستعينا بالواحد المعبود ، فنقول :

الفتوحات الغربية على يد الصحابة

أول أمير تأمّر على جيوش أفريقية هو البطل المشهور المجاب الدعوة سيدنا عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعهد من الخليفة الثالث سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه وتحرير الخبر فى ذلك كان استعمل على الحرب فى مصر عبد الله بن سعد وأمره بغزو افريقية سنة **٢٤ أو ٢٥** وقال له : ان فتح الله عليك فلك خمس الخمس من الغنائم فأمر عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشى الفهرى الصحابى بالمولد على جند وعبد الله بن نافع بن الحارث على آخر وسرحهما فخرجوا الى أفريقية فى عشرة آلاف وصالحهم أهلها على مال يؤدونه ولم يقدروا على التوغل فيها لكثرة أهلها ، ثم ان عبد الله بن سعد شكا عمرو بن العاص الى عثمان لخلاف وقع بينهما فاستقدمه عثمان واستقل عبد الله بن سعد على امارتى الخراج والحرب فى مصر ، وكتب عبد الله يستأذن عثمان فى قصد افريقية ثانية ويستمده فجمع عثمان أصحاب رسول الله ﷺ واستشارهم فى ذلك فأشاروا عليه بغزوها فندب الناس الى ذلك فتسارعوا وخرج المهاجرون الاولون وفيهم جماعة أعيان الصحابة وأبناء الصحابة منهم العبادلة الاربعة ابن عباس وابن الزبير وابن عمرو بن العاص وابن جعفر والحسن والحسين ومروان بن الحكم . ولما اجتمع المسلمون على المسير جمع عثمان الناس وخطب خطبة قال فيها بعد حمد الله والثناء عليه : أما بعد ، فانى قد عهدت الى عبد الله ابن سعد أن يحسن الى محسنكم ويتجاوز عن مسيئكم وأن يرفق بكم ولا حول ولا قوة إلا بالله وقد استعملت عليكم الحارث بن عبد الحكم حتى تقدموا الى عبد الله ، فلما قدموا خرج بمن كان معه وبمن قدم عليه وذلك سنة **٢٦** ولقيهم عقبة بن نافع فيمن معه من المسلمين ببرقة ثم ساروا الى طرابلس فقاتلهم الروم قتالا خفيفاً وبعث عبد الله السرايا فى كل ناحية وساروا الى افريقية تونس فقابله عند مدينة يعقوبة — وفى رواية سبيطلة — حاكم افريقية الشمالية من قبل امبراطور القسطنطينية واسمه غريغوار ويسميه العرب جرجيراً بمائة وعشرين الف مقاتل واشتبك بينهما القتال وجاءهم عبد الرحمن بن الزَّبير مدداً من قبل عثمان بفتح الزاى وهو غير الزبير بضم الزاى بن العوام فشهد الحرب وقد غاب عنهما عبد الله بن سعد فسأل عنه فقيل له انه سمع منادى جرجير يقول من يقتل ابن أبى سرح فله مائة الف دينار وأزوجه ابنتى فخاف وتأخر عن حضور القتال فقال له عبد الله بن الزبير تنادى أنت بأن من قتل جرجيراً نفلته مائة الف وزوجته ابنته واستعملته على بلاده ، وقد كان جرجير لما سمع بوصول المدد سقط ما فى

يده إلا انه جالد المسلمين جلاداً عظيما فلما أبطأ عليهم الفتح أشار عبد الله بن الزبير على عبدالله ابن سعد أن يترك جماعة من أبطال المسلمين متأهبين للحرب ويقاتل العدو بباقى العسكر الى أن يضجروا فيحمل عليهم بالآخرين على غرة ففعل وركبوا من الغد الى القتال وألحوا على الاعداء حتى اتبعوهم ثم افترقوا وقد أنهكهم التعب فركب عبد الله بن الزبير مع الفريق المستريحين وحملوا حملة واحدة حتى غشوا عسكر جرجير فى خيامهم فانهزموا وقتل عبد الله ابن الزبير جرجيراً وأخذت ابنته سبية فنفلها ابن الزبير وحاصر عبد الله بن سعد سبيطلة ففتحها وكان سهم الفارس فيها ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل الفاً وهو فتح عظيم لم يفتح على أحد مثله ، ثم أن عبد الله بن سعد بعث سراياه الى أنحاء البلاد وعليها القواد ومنهم ابن الزبير فجالوا فى أقطار المغرب غربا وشرقا وجنوبا ، فأغاروا من جهة الجنوب على اقليم بين اسمه المعروف ببلاد النخل أو الجريد ومن الشمال والغرب على اقليمى نوميديا وموريتانيا فى الجزائر ثم بلاد فاس ومراكش المعروفة بموريتانيا الطنجية وهكذا حتى انقادت لهم البلاد الى بوغاز جبل طارق ودفع أهلها لهم الجزية التى كانوا يؤدونها لقيصر الروم كما ذلك فى خلاصة تاريخ العرب. أما مؤرخو الاسلام فقد اختصروا أخبار هذا الفتح وذكروا الصلح الذى عرضه عظماء افريقية على ابن سعد وهو أن يعطوه ثلاثمائة قنطار من الذهب أى مليونين وخمسمائة ألف دينار ونيفاً فقبل ذلك منهم وأرسل ابن الزبير بالفتح والخمس الى أمير المؤمنين عثمان فاشتراه مروان بخمسمائة الف دينار ، ولما أصاب ابن سعد من افريقية ما أصاب ورجع الى مصر جهز قسطنطين بن هرقل انبراطور القسطنطينية اسطولا كبيراً مؤلفاً من ستمائة مركب أراد أن يهاجم به الاسكندرية على قول ابن خلدون وابن الاثير لم يذكر الجهة التى كان يريدها قسطنطين والظن أنه كان يريد افريقية بدليل التجاء الانبراطور الى جزيرة صقلية بعد انكساره فى هذه الغزوة وهى قريبة من تونس ، ولما بلغ المسلمين خروج هذا الاسطول خرج لملاقاته فى البحر أسطولان أسطول من الاسكندرية مع عبد الله بن سعد وأسطول من سورية مع معاوية بن أبى سفيان والتقيا معه فى عرض البحر فقرنوا السفن الى بعضها واقتتلوا قتالا شديداً حتى استحر القتل فانهزم قسطنطين جريحاً الى صقلية بما بقى معه من الروم ولما علم أهل صقلية فراره قتلوه وسمى المسلمون هذه الغزوة غزوة ذات الصوارى والمكان كذلك لكثرة ما كان فيها من الصوارى ، ثم أن الانبراطور قونستانس الثانى غضب على أهل افريقية لما أعطوه من المال لابن سعد لانه أكثر مما كانوا يعطونه لانبراطورة الروم واغتنم فرصة اضطراب المسلمين وانقسامهم فى التنازع على الخلافة فأرسل من قبله بطريقا ليأخذ منهم مثله فأبوا فقاتلهم وطرد البطريق الذى ولوه عليهم من قبل المسلمين بعد جرجير فالتجأ الى معاوية بن أبى سفيان وقد كان اجتمع له الأمر فنصره وبعث جيشاً أميره معاوية بن حديج بالحاء المهملة مصغراً الكندى

له صحبة ورواية ووفادة وذلك سنة ٤٥ لتدويخ البلاد وطرد الروم عنها ثانية ولما وصل الجيش افريقية انتشب القتال بينه وبين جيش العدو قرب قصراجم وكان النصر حليف المسلمين ، وبعد هذا الفوز بعث معاوية بن حُديج عبد الله بن الزبير لسوسة ففتحها وفتح بنزرت وجلولا ووجه أسطولا مهولا لصقلية وغنم غنائم كثيرة ثم رجع معاوية لمصر بعد أن خلد آثاراً حسنة وعزله الخليفة معاوية عن افريقية وأقره على مصر ثم عزل عن مصر سنة ٥١ وتوفى بها فى السنة بعدها . أخرج ابن عبد الحكم عن سليمان بن سفيان قال : غزونا افريقية مع ابن حديج ومعنا بشر كثير من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والانصار ثم غزا افريقية عقبة بن نافع ومعه جماعة من الصحابة ، وفى هذه الغزوة استشهد أبو زمعة عبيد الله بن أرقم البلوى نسبة لبني كلي قبيلة من قضاعة وهو صاحب المقام المعروف به خارج القيروان ودفنت معه شعرات من شعر النبي ﷺ فعظم بذلك قدر افريقية واختط عقبة القيروان وبنى بها الجامع الاعظم المشهور وكان تأسيسه لها سنة ٥٠ وتم سنة ٥٥ وقاتل البربر وشردهم ثم عزله معاوية وولى مصر وافريقية مسلمة بن مخلد الانصارى فوجه لافريقية مولاه أبا المهاجر ديناراً سنة ٥٦ وغزا جزيرة شريك وغيرها ولما توفى الخليفة معاوية وبويع لابنه يزيد رجع هذا الخليفة عقبة المذكور الى عمل افريقية ووصل القيروان سنة ٦٢ . غزا كثيراً من الجهات وفتحها وشتت جموع البربر وغيرهم . قال ولى الدين بن خلدون وصل عقبة الى جبال درن وقاتل المصامدة بها وكانت بينه وبينهم حروب وحاصروه بجبال درن فنهض اليهم جموع زناتة وكانت خالصة للمسلمين منذ اسلام مغراوة فأفرجت المصامدة عن عقبة فأثخن فيهم حتى حملهم على طاعة الاسلام ودوخ بلادهم ثم دخل السوس لقتال من بها من صنهاجة وهى يومئذ على دين المجوس فأثخن فيهم وهزم جموع البربر وقفل راجعاً وكان كسيلة الاروبى فى جيوش عقبة قد استصحبه فى غزواته وكان يستهين به ويمتعضه حتى صار فى نفسه شىء بسبب ذلك على عقبة وبلغ ذلك أبا المهاجر وهو معتقل عنه عقبة فبعث اليه ينهاه ويقول له كان رسول الله ﷺ يتألف جبابرة العرب وأنت تعمد الى رجل جبار فى قومه وبدار عزه وحديث عهد بالشرك فتستفسده وأشار عليه بأن يتوثق منه وخوفه غائلته فتهاون عقبة بقوله . فلما قفل من غزاته هاته وانتهى الى أرض الزاب ، وكسيلة أثناء هذا كله فى صحبته ، صرف العساكر الى القيروان أفواجا ثقة بما دوخ من البلاد وأذل من البربر وبقى فى قليل من الجند فلما وصل الى تهودة وأراد أن ينزل بها الحامية نظر اليه الفرنجة وطمعوا فيه فراسلوا كسيلة ودلوه على الفرصة فيه فانتهزها وأرسل بنى عمه ومن تبعهم من البربر فاقتفوا أثر عقبة وأصحابه حتى اذا غشوهم بتهودة ترجل القوم وكسروا أجفان سيوفهم ونزل الصبر واستماتهم عقبة وأصحابه فلم يفلت منهم أحد وكانوا زهاء الثلاثمائة من كبار الصحابة

والتابعين ، واستشهدوا فى مصرع واحد ،فيهم أبو المهاجر دينار . واجداثهم رضى الله عنهم بمكانهم بأرض الزاب لهذا العهد ، واتخذ على المكان مسجد يعرف باسم عقبة هو فى عداد المزارات ومظان البركات بل هو أشرف مزور من الاجداث فى بقاع الارض لما توفى فيه من عدد الشهداء من الصحابة والتابعين الذين لا يبلغ أحد مد أحدهم ولا نصيفه . وكان ذلك سنة ٦٣ ثم بعد الوقعة زحف كسيلة الى القيروان وبها يومئذ جمهور العرب ووجوه الاسلام فبلغهم الخبر وعظم عليهم الأمر فقام زهير بن قيس البلوى فيهم خطيباً وقال : يا معشر المسلمين ان أصحابكم قد دخلوا الجنة فاسلكوا سبيلهم فخالفه قيس بن عبد الله الصنعانى لما علم أنه لا طاقة للمسلمين لما دهمهم من أمر البربر ورأى أن النجاة بمن معه من المسلمين اولى ونادى فى الناس بالرحيل فاتبعوه إلا قليلا منهم وانتقل زهير الى برقة واجتمع الى كسيلة جميع اهل المغرب من البربر والفرنجة وعظم امره وتقدم الى القيروان واستولى عليها فى محرم سنة ٦٤ وفر منها بقية العرب ولحقوا بزهير ومن بقى بها آمنه كسيلة ، وثبت قدمه بالقيروان واستمر اميراً على البربر ومن بقى من العرب خمس سنين ، وقارن ذلك مهلك يزيد بن معاوية واذ ذاك امر الخلافة فى الشرق فى اضطراب الى أن استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة واذهب آثار الفتنة بالمشرق فالتفت الى المغرب وتلافى امره على نحو ما سنذكره فى الطبقة الآتية

صـــــــــــلة

اعلم انه دخل افريقية مئات من الصحابة ووقع التصريح بأسماء بعض من دخلها غير انهم قليلون بالنسبة لمن دخلها وقد اقتطفت أسماءهم من الاصابة والاستيعاب والاستقصى والخلاصة النقية وغيرهم وهم نيف وأربعون من الطراز الأول وعليهم فى الامور المعول والواجب أن نطرز ماجمعته ونتوج ما ألفته بذكر أسمائهم اهتماما بشأنهم رضى الله عنهم :

عبد الله بن عمر بن الخطاب
عبد الله بن عمرو بن العاص
عبد الله بن الزبير
عبد الله بن العباس
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب
عبد الله بن مسعود
عبد الله بن سعد بن أبي سرح
الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وريحانتا رسول الله ﷺ

المقداد بن الاسود
مروان بن الحكم
سعيد بن العباس
مسلمة بن مخلد
أبو لبابة

هؤلاء ترجمت لبعضهم فى هاته التتمة وبعضهم فى الطبقة الثانية فى المقصد . ولنذكر من لم نترجم له فيما سلف من هذا الكتاب

عبد الله بن نافع بن الحصين وجهه عثمان مع ابن أبى سرح لشدة بطشه واصابة رأيه

أبو ذؤيب خالد بن خويلد الهذلى الشاعر المشهور كان فصيحاً متمكناً من الشعر ، وعاش فى الجاهلية دهراً وأدرك الاسلام وأسلم على عهد النبى ﷺ ولم يره . روى ابن عبد البر أن أبا ذؤيب قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل فاستشعرت حرباً وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ولا يطلع نورها حتى اذا كان قرب السحر غفيت فهتف بى هاتف يقول :

خطب أجل أناخ بالاسلام   بين النخيل ومعقل الآطام
قضى النبى محمد فعيوننا   تذرى الدموع عليه بالتسجام

قال فوثبت من نومى فزعا فنظرت الى السماء فلم أر الاسعد الذابح فتفاءلت به ذبحاً يقع فى العرب وعلمت أن النبى ﷺ مات ، فركبت ناقتى وسرت . وروى أنه لما وصل وجد النبى ﷺ ميتاً وحضر الصلاة عليه ودفنه ، وشهد بيعة أبى بكر وسمع خطبته . ورثى النبى ﷺ بقصيدة منها :

كسفت لمصرعه النجوم وبدرها   وتزعزعت آطام بطن الابطح

كان أصاب الطاعون خمسة من أولاده فماتوا فى عام ولهم بأس ونجدة فقال فى قصيدته التى أولها :

أمن المنون وريبها تتوجع   والدهر ليس بمعتب من يجزع

ومنها :

وتجلدى للشامتين أريهم   انى لريب الدهر لا أتضعضع
واذا المنية أنشبت أظفارها   ألفيت كل تميمة لا تنفع
والنفس راغبة اذا رغبتها   واذا ترد الى قليل تقنع

سئل حسان بن ثابت من أشعر الناس قال رجلا أو قبيلة قالوا قبيلة قال هذيل . فى طبقات أبى العرب محمد بن تميم : من أعيان الصحابة الذين شهدوا افريقية عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الرحمن بن أبى بكر وأبو ذؤيب الهذلى وتوفى بافريقية وقام بأمره

عبد الله بن الزبير ونزل فى لحده

عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهما يكنى أبا محمد وأبا عبد الله وهو أسن ولد لابى بكر وكان صالحاً لم يجرب عليه كذبة قط شجاعا رامياً شهد بدرا واليمامة والجمل وافريقية كما فى طبقات أبى العرب . كان من أعلام الصحابة . مات بمكان على عشرة أميال من مكة وبها دفن سنة ٥٤ على أحد الاقوال

عبد الرحمن بن الزّبير بفتح الزاى وكسر الموحدة . بعثه عثمان مع جيش مدداً لابن أبى سرح بافريقية

عبيد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما كان من شجعان قريش وفرسانهم ولما قتل أبو لؤلؤة والده عمر عمد عبيد الله هذا الى الهرمزان وجماعة من الفرس وقتلهم حيث اتهمهم بالمؤامرة على قتل والده عمر رضى الله عنه فى خبر تركنا ايراده خشية التطويل . شهد افريقية وقتل بصفين مع معاوية سنة ٣٦

أخوه عاصم دخل افريقية ومات بالربذة سنة ٦٨ على أحد الاقوال

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشى استشهد بافريقية وفي الاصابة مات سنة ٤٣ وهو أحد الاربعة الذين تولوا نسخ المصاحف زمن عثمان

معبد بن العباس بن عبد المطلب استشهد بافريقية

حمزة بن عمرو الاسلمى

أبو نعيم معاوية بن حُديج بضم الحاء المهملة مصغرا كان من فضلاء الرجال . شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص وأمره معاوية على الجيش الذى جهزه لمصر والامير عليها محمد بن أبى بكر الصديق من قبل على رضى الله عنه ولما قتل بايع المصريون معاوية وتولى غزو المغرب مراراً آخرها سنة ٥٠ ومات بمصر سنة ٥٢

بلال بن الحارث بن عاصم المزنى أبو عبد الرحمن من أهل المدينة اقتطعه النبى ﷺ العقيق وكان صاحب لواء مُزينة يوم الفتح . مات سنة ٦٠ وله ثمانون سنة

جرهد بن خويلد الاسدى يكنى أبا عبد الرحمن من أصحاب الصفة مات في خلافة يزيد

جبلة بن عمر الانصارى هو أخو أبى مسعود البدرى . غزا افريقية مع ابن حُديج شهد أحداً وفتح مصر وصفين مع على وكان فاضلا من فقهاء الصحابة

حِبان بكسر الحاء المهملة وموحدة بعثه عمر بن الخطاب لمصر ليفقه الناس ومات بافريقية

خالد بن ثابت العجلانى الفهمى شهد مصر وغزا افريقية مع مسلمة بن مخلد

رويفع بن ثابت الانصارى النجارى ولاه معاوية على طرابلس سنة ٤٦ وغزا افريقية من قبل مسلمة بن مخلد ومات ببرقة وهو أمير عليها من قبل مسلمة المذكور

مسلمة بن الاكوع الاسلمى كان شجاعا رامياً سابقا يسبق الفرس على قدميه مات بالمدينه سنة ٧٧ وهو ابن ثمانين سنة

ربيعة بن عباد بكسر العين وتخفيف الباء مات فى خلافة الوليد

أبو أيمن سفيان بن وهب الخولانى ولى امرة افريقية زمن عبد العزيز بن مروان ومات سنة ٨٢

مسعود بن الاسود القرشى العدوى المعروف بابن العجماء

المسور بن مخرمة بن نوفل الزهرى له ولابيه صحبة مات سنة ٦٤

المسيب بن حزن القرشى المخزومى والد سعيد بن المسيب له ولابيه صحبة

المطلب بن أبى وداعة القرشى السهمى له ولابيه صحبة

المنيذر الاسلمى دخل افريقية والاندلس ولم يدخلها أحد من الصحابة سواه

أبو المبتذر أو المبتذل دخل افريقية

أبو زمعة عبيد الله بن أرقم وقيل عبيد بن آدم البلوى صاحب المقام المشهور خارج القيروان من أصحاب الشجرة وله رواية مر ذكره قريبا

أبو المهاجر دينار كان من الشجعان وذوى الرأى المصيب ولما تولى مسلمة بن مخلد أمر مصر وافريقية بعث مولاه أبا المهاجر سنة ٥٦ لافريقية عوض عقبة بن نافع ودخلها وتولى أمرها وقاتل البربر وفى سنة ٦٢ رجع يزيد بن معاوية عقبة لافريقية وبقى أبو المهاجر عنده معقولا الى ان استشهد مع عقبة سنة ٦٣ ومر ذكره قريبا وفى صحبته توقف وهو عقبة بن نافع بن عبد القيس القرشى الفهرى خاله عمرو بن العاص له صحبة بالمولد . شهد فتح مصر واختط بها ثم ولاه يزيد بن معاوية امرة الغرب وغزا البربر وشردهم وهو الذى اختط القيروان وجامعها الاعظم قدم على عثمان بن عفان بفتح افريقية بعثه ابن أبى سرح وأوصى أولاده بأن لايقبلوا الحديث عن رسول الله ﷺ الا من ثقة ولا يكتبوا ما يشغلهم عن القرآن . وبالجملة فان فضائله جمة قتله البربر هو وأصحابه سنة ٦٣ ومرت الاشارة الى ذلك قريبا

أبو شداد زهير بن قيس البلوى يقال له صحبة كان من العابدين الصالحين ومن رجال الكمال . شهد فتح مصر ولما تولى عبد الملك وبلغه مافعله كسيلة بعقبة وغيره بعث لزهير وهو ببرقة بالتوجه لافريقية واستنقاذها من كسيلة سنة ٦٩ وبعد انتصاره وقتله كسيلة خاف الفتنة بحصول ذلك الملك رجع للشرق ولما بلغ برقة لقى الروم فى عدد قليل فقاتل حتى قتل شهيداً هو ومن معه فى خبر يأتى ذكره قريبا

فقد تم لافريقية بدخول هؤلاء السادة الفضلاء القادة مزيد الاعتبار والافتخار على كثير من الامصار والاقطار وأول مدينة أسسوها القيروان وبها كرسى المملكة وصارت مناخ الابرار من الصحابة والتابعين ومقر الاخيار من الامراء والعلماء العاملين ومنها وقع تجنيد العساكر

المحمدية ونشر الملة الاحمدية عليه أفضل الصلاة وأزكى التحية الى سائر الجهات الغربية الاندلس والسودان والصحراء وستعلم ذلك

جغرافية المغرب أى افريقية الشمالية الغربية

يحدها من الشمال الاوقيانوس الاطلانتيك ومضيق جبل طارق والبحر المتوسط وشرقا بلاد مصر والبحر المتوسط أيضا وجنوبا الصحراء الكبيرة وغربا الاوقيانوس وكانت تنقسم فى صدر الاسلام الى ثلاثة أقسام كبرى المغرب الاقصى وقاعدتها فاس ومراكش والمغرب الاوسط وهى المعروفة بالجزائر وقاعدتها تلمسان ومدينة الجزائر على البحر المتوسط والمغرب الادنى وهى ولاية طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس أما المغرب الاقصى فهو الآن تحت حماية دولة فرانسا وينقسم الى أقسام فاس ومراكش ودرعة وتافليلات والرباط وسلا على شواطىء الاوقيانوس الاطلانتيك والسوس ومن جبالها درن وغماره ومديونه ويحده قسم كبير يعرف بالريف تحت حماية دولة اسبانيا ومن مدنه تطاون وسبتة ومليلة وطنجة على ساحل البحر المتوسط وأما الجزائر وهى المغرب المتوسط فتنقسم الى ثلاثة أقسام كبرى وهى الجزائر ووهران وقسنطينة وهى تابعة لدولة فرانسا ومن مدنها الشهيرة بجاية وعنابة أو بونه ووهران ومستغانم وهى على البحر المتوسط

وأما المغرب الادنى سمى بذلك لقربه من مقر الخلافة بالمشرق وفيها ولايتا طرابلس وتونس وكانت قاعدتها القيروان بالقرب من تونس وأشهر مدنه طرابلس وبرقة وبنغازى وتونس وهى قرب أطلال قرطاجنة القديمة وتسمى قديما افريقية وربما سموا اقليم تونس بهذا الاسم ثم سموا القارة كلها به من باب تسمية الكل باسم الجزء وهى على البحر المتوسط ومن مدنها الشهيرة بنزرت وسوسة والمنستير والمهدية وصفاقس وقابس وهى على البحر المتوسط والقيروان أسسها عقبة ابن نافع الفهرى وجعلها قاعدة البلاد فولاية طرابلس هى الآن تحت حكم ايطاليا وولاية تونس تحت حماية دولة فرانسا

الكلام على قرطاجنة

فى الحلل السندسية قرطاجنة بفتح القاف وسكون الراء وبعدها طاء مهملة وألف وجيم مفتوحة ونون مشددة وهى وان تلاشت وخربت فانها كانت من أضخم ممالك افريقية وأكثرها عددا وأقواها عددا وأتقنها بناء وأغربها افياء وأوسعها مجالا وأشدها قتالا وأحكمها صناعة وأرفعها بضاعة وأطيبها أرضاً وأطولها أعمارا . وأول من وضع هذه المدينة امرأة تسمى أنسية ديدون

فنيقية وتدعى عليسة من بنات بعض الملوك وكانت زوجة ملك من كبار ملوك الروم ومات ولم يكن لها ولد وكان لها أخ وكان ملكا أيضاً فأراد الاستيلاء على ملكه وما خلفه من الخزائن والاموال فماطلته حتى ركبت البحر بجميع ذخائرها ودخلت افريقية وأسست قرطاجنة وعمرتها وأنشأت الدور والجنان والقصور . وفى الاستقصى قرطاجنة احدى مدن الدنيا الشهيرة هدمها الروم قبل المسيح عليه السلام بمائة وستة وأربعين سنة ثم أسست ثانية وخربها العرب . وفى الحلل لما وقعت العداوة بين صاحب قرطاجنة وصاحب رومة الكبرى وقعت بينهم حروب ثلاث الاولى آلت الى صلح بينهم وكانت الدائرة فيها على صاحب رومة ثم ان صاحب رومة جهز عمارة بحرية وقصد قرطاجنة وأول بلدة نزلها قليبية وكانت الدائرة على صاحب قرطاجنة وانفصلت على مال يؤدونه الى صاحب رومة سنويا ثم تجددت الحرب وهى الثالثة آل الأمر فيها باستيلاء صاحب رومة على قرطاجنة وأعاد لها عمرانها الى أن فتحها الاسلام وقال ولى الدين ابن خلدون كانت الروم والفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من البحر الرومى وكان أكثر حروبهم ومتاجرهم فى السفن وكانوا مهرة فى ركوبه والحرب فى أساطيله وبهذه الاساطيل دخل الروم لافريقية والقوط الى المغرب وملكوها وتغلبوا على البربر وانتزعوا من أيديهم أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسبيطلة وجلولا ومرناق وشرشال وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويبعث الاساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد وكانت هاته عادة لاهل البحر قديماً وحديثا . اه

وزبدة القول على مقتضى ما حققه بعض المتأخرين ان قرطاجنة مدينة عظيمة على البحر المتوسط أسسها الفنيقيون سكان سواحل سورية وكان لها فى التاريخ القديم شأن عظيم ومنها ظهر القائد الشهير هنبال الذى غزا الرومانيين فى عقر ديارهم وما زالت قرطاجنة التى كانت ضرة رومة شجى فى حلق الرومانيين حتى والى عليها الرومانيون الغزوات وأخربها القائد سيبيون سنة ١٤٩ قبل المسيح والظاهر ان الخراب لم يأت عليها كلها بل حفظت شيئاً من رونقها القديم الى العصر الاسلامى وتكرر عصيان أهلها وامتناعهم فى حصونها العظيمة ولما اشتدت الفتنة الكبرى فى افريقية على عهد عبد الملك بن مروان أرسل حسان بن النعمان الغسانى لاستخضاع أهلها فقصد البربر وقاتلهم ثم قصد قرطاجنة وافتتحها ولما عاد عنها امتنعت ثانية فرجع اليها وحاصر أهلها حتى ألجأهم للتسليم بعد ان فرّ منهم من طريق البحر من فر ثم أمر بتخريبها فخربت وعفا أثرها ومن أنقاضها عمرت تونس وهذا التخريب وان عد عند الاثريين سيئة لحسان الا انه عند السياسيين ليس بشىء لأن الدول من دأبها أن يعفى اللاحق منها أثر السابق واذا خرب المسلمون فى افريقية هذه المدينة فقد أقاموا مدنا غيرها ربما كانت أعظم منها كتونس والقيروان والقاهرة وغيرهن وانما تفضل قرطاجنة على غيرها باعتبار انها أثر قديم من

آثار أمة عظيمة كان لها شأن كبير فى التاريخ لذا فليس ببدع أن يأتى حسان ما أتاه ويأتيه غيره فى كل دولة من الدول لاسيما وانما اعتبار البلدان التاريخى الآن لم يكن فى تلك العصور بالمنزلة التى انتهى اليها فى هذا العصر

واعلم أن افريقية تداولتها دول قبل الفتح الاسلامى المعروف منها أربع دول ويعبر عنها بالاطوار الاربعة :

﴿ الطور الأوّل ﴾

دولة قرطاجنة تأسست سنة ٨٨ قبل المسيح أسستها ديرون المذكورة ، وقد بلغت هاته الدولة الغاية فى الحضارة والعمران والقوة ، لهم معرفة وحذق بأساليب الملاحة والتجارة وما وقع الاكتشاف عليه من آثارها يدل على ذلك ، واستولت على جزر كثيرة وامتدت شوكتها فى الارض وبعد صيتها حتى صارت لا ترى غيرها وزعيمتها إذ ذاك فى الشوكة دولة الرومان برومة وكانت على غاية فى القوة فرام صاحب قرطاجنة هنبال القائد الشهير محاربتها فأول ما بدأها به استيلاؤه على صقلية ثم انتشبت الحرب بين الدولتين وتوالت وقصد الرومان قرطاجنة بأسطول مهول ونزلوا بمرسى قليبية . وأشهر الوقائع فى هاته الحرب انتصار القنصل الرومانى ريكرلوس على جيوش قرطاجنة قرب رادس ثم انتصار قرطاجنة قرب تونس ووقوع هذا القنصل أسيراً بيد قرطاجنة وانتهت هاته الحروب بصلح تغالى فى قرطاجنة فى شروطه ثم رجعت الحرب بين الدولتين أعظم من الحروب المتقدمة وانتهت باستيلاء الرومان على تونس وصارت تابعة لرومة بعد صلح شروطه مهينة لقرطاجنة ثم أخذ الرومان فى الاستيلاء شيئا فشيئا حتى استولى على كامل افريقية وأفضى الحال الى اضمحلال قرطاجنة وذهاب مهابة الدولة ومن أعظم الاسباب على ذهابها انضمام البربر الى جيوش الروم

﴿ الطور الثانى ﴾

دولة الرومان واستيلاؤها النهائى كان سنة ١٤٦ قبل المسيح وأول شىء فعلته مع القرطاجنيين بعد تلك الوقائع والضغائن المتقدمة ابقاء ما كان على ما كان من حكومة وترتيب وتدين وغير ذلك وساروا معهم سيرة حسنة ، وبذلك انقاد القرطاجنيون للرومان وصارت عوائدهم وطباعهم واحدة وحصل بذلك الأمن والراحة ، وفى مدتهم كانت افريقية لنظر قنصل عام بولاية الانبراطور تحت رياسة حكام آخرين من الرومان وظيفتهم مراقبة المدن وعروش البربر التى كانت أحكامها بيد عمال البربر وحماية البلد كانت منوطة بقوة كافية من العساكر

بقرطاجنة لتمهيد الراحة لنظر قائد رومانى بولاية من الانبراطور أيضاً . ولما رسخ قدم هاته الدولة أخذت بجد واجتهاد فى السعى بما يوجب عمران افريقية فشيدوا المدن والهيا كل الضخمة كقصر اجم ومرسم دقة وآثار قرطاجنة واعتنوا اعتناء زائداً بالفلح من زراعة وغراسة وجلب المياه وحفر الآبار وأساليب الرى واستخراج المعادن وغير ذلك من الوسائل الموصلة الى العمران والمنافع الكبيرة حتى صارت افريقية مصدراً للحبوب والغلال تجلب محصولاتها الى سائر الجهات الرومانية وصاروا يسمونها مطمورة الرومان ، وحصل بذلك عمران عظيم فى افريقية قيل انها كانت فى ذلك الوقت تحتوى على ستة ملايين من السكان ومن ملوك هاته الدولة فرنسيا الذى نقل كرسى مملكته الى قسطنطينية ثم اغتصب منه الملك جيوش مع بقسائه تحت الرومان ، ثم ظهر أغسطوس واستولى على الملك وعلى عهده ولد المسيح وكان محباً للعلم وأهله عادلا فى رعيته . قيل انه يعرض عزل نفسه كل عام على رعيته فلا يرضون بغيره ثم بعده جوفرا قام فى الملك نحو خمسين عاما . وفى هاته المدة أخذ دين المسيح فى الظهور بافريقية بعد أخذه فى الانتشار بالمشرق وأوروبا ، واستمرت افريقية فى السعادة ونمو العمران مدة ثلاثة قرون بعد المسيح وكانت سيرة ملوكهم سيرة عدل حيث كانت الدولة معتدلة الأحكام سديدة الترتيب . ولما اختل نظام الدولة أوائل القرن الرابع لاستبداد الملوك وتوالى الفتن وامتد هذا الخلل لافريقية ، وزاد الطين بلة والمريض علة بما ظهر من المناقشات الدينية بين البربر ومسيح الرومان ، حتى آل الامر الى الانقسام الى ملوك كثيرة وفتن وحروب بين البربر وغيرهم ودام هذا الحال أعواما كثيرة وآماداً طوالا ، فاضمحلت بسبب ذلك دولة الرومان سنة ٤٣٨ بعد المسيح وانتهى سلطانها على افريقية وغيرها وتركت آثاراً خالدة أخذ منها الاوروباويون معارف كثيرة

﴿ الطور الثالث ﴾

استيلاء الوندال ـ وهو اسم قبيلة من القبائل الجرمانية ـ على افريقية سنة ٤٣٨ . ودامت سلطنته ٩٤ عاما

﴿ الطور الرابع ﴾

استيلاء الروم البيزنطيين على افريقية الى أن ظهر الاسلام وفتحها على نحو ما مرَّ شرحه وكان الوندال والروم أهل ترف وملاذ فى المساكن والملبس مع تكلف وتبذير

فصـــــل

اعلم أن المؤرخين والنسابين اختلفوا فى نسب البربر اختلافا كثيرا ، وفى الاستقصى بعد ذكر أقوال فى ذلك : وأشبه الاقوال بالصحة أن بنى حام تنازعوا مع بنى سام فانهزم بنو حام أمامهم الى المغرب وتناسلوا به واتصلت شعوبهم من أرض مصر الى آخر المغرب الى تخوم السودان . وكان بسواحل المغرب الافارقة والافرنج فكانت ذرية حام فى المداشر والخيام والاعاجم الاول فى البلدان ، وبقى أكثر أولاد حام فى بلاد فلسطين من أرض الشام الى زمن داود عليه السلام وكان ملكهم يسمى جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء . أمر باجلائهم عن بلاد كنعان وفلسطين الى أرض المغرب فساروا نحو افريقيه وانتشروا هناك حتى ضاقت بهم البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال وصاروا يتبعون مواقع القطر بالابل وبيوت الشعر ولم تقدر الافرنج على ردهم ودفاعهم فانحازت الاعاجم فى المدن وبقى البربر فيما عداها وهم مع ذلك على أديان مختلفة يدين كل واحد منهم بما شاء من الاديان فمنهم من تمجس ومنهم من تهود ومنهم من تنصر ، واستمر الحال على ذلك الى زمن الاسلام وكان فيهم رؤساء وملوك وكهان ، ولهم حروب وملاحم عظام مع من قارعهم من الامم . فالبربر جيل معروف من أعظم الأجيال وأعزها ولهم الفخر الذى لا يجهل ، والذكر الذى لا يهمل . وقد تعددت فيهم الدول ، وكثر فيهم الملوك العظام ، وكان لهم القدم الراسخ فى الاسلام ، واليد البيضاء فى الجهاد ، ومنهم الائمة والعلماء والاولياء والشعراء والامراء ، وأهل المزايا والفضائل . والبربر شعبان عظيمان بحيث لا يخرج بربرى عنهما . قال ابن خلدون : علماء النسب متفقون على أن البربر يجمعهم جدان عظيمان وهما برنس ومدغيس ويلقب بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانيس ، وبين النسابين خلاف هل هما لأب واحد أو لا ؟ فعند ابن حزم هما لأب واحد والجميع من نسل كنعان بن حام ، وقال سابق بن سليمان المطماطي وغيره من نساب البربر : ان البرانس فقط من نسل كنعان وأما البتر فهم من بنى جرس بن قيس بن غيلان بن مضر وهذا القول مقول فيه . والحق أن الشعبين معاً عريقان فى البربرية وأن الجميع من ولد مازيغ من ولد كنعان بن حام ، فأما البرانس فتنقسم الى سبعة قبائل : أروبة وصنهاجة وكتامة ومصمودة وعجيسة وأوريغة وارداجة ويقال ورداجة بالواو بدل الهمزة ، وزاد سابق المطماطى وغيره ثلاثة قبائل وهم : لمطة وهسكورة وجزولة فتكون عشراً . فأما أروبة فكان منها كسيلة الاروبى قاتل عقبة رضى الله عنه الذى مر ذكره ومنهم اسحاق بن محمد بن عبد الحميد الاروبى القائم بدعوة ادريس بن عبد الله . وأما صنهاجة فهم أكبر قبائل البربر حتى زعم كثير من النساس أنهم مقدار الثلث فهم بنو زيرى بن مناد ملوك

افريقية الآتي ذكرهم ، والملثمون ملوك مراكش والاندلس . وأما كتامة فهم القائمون بدعوة العبيديين بافريقية ومصر . وأما المصامدة فمنهم غمارة وكان منهم بليان النصرانى صاحب سبتة وطنجة أيام دخول عقبة المذكور الى المغرب الاقصى وهم القائمون برغواطة أهل تامسنا وما اتصل بها ومنهم أهل جبل درن وهم القائمون بدعوة محمد بن تومرت مؤسس دولة الموحدين . وأما باقى قبائل البربر فلم يكن لهم ملك يذكر والنسابون من العرب يقولون ان صنهاجة وكتامة من حمير وان افريقش الحميرى تركهم حامية بافريقية فتناسلوا بها واستحال لسانهم الى البربرى لكن المحققون من نساب البربر كسابق المطماطى وغيره ينكرون ذلك ويجزمون بأنهما قبيلتان عريقتان فى البربرية . وأما البتر وهم بنو مادغيس فينقسمون لأربعة قبائل وهم : خريسة ونفوسة واداسة وبنو لوى وهم لواتة ، فأما خريسة فمنهم مكناسة ومن مكناسة بنو مدرار ملوك سجلماسة وبنو أبى العافية ملوك فاس ومن خريسة زناتة كلها ومن زناتة جراوة قوم الكاهنة دهيا صاحبة جبل أوراس التى أوقعت بحسان بن النعمان عامل الخليفة عبد الملك بن مروان ومن زناتة أيضاً بنو خزر المغراوى ملوك تلمسان والمغرب الاوسط ومنهم مغراوة ملوك فاس وبنو يفرن ملوك سلا وتادلا ومنهم بنو زيان ملوك تلمسان وبنو مرين ملوك فاس فهؤلاء كلهم من زناتة وزناتة هو زانا بن يحيى بن ضرى بن جيك بن مادغيس الابتر . أما نفوسة واداسة ولواتة فلم يكن لهم ملك يذكر وهاته القبائل الاربعة عشر تشتمل على عمائر وبطون وأفخاذ وفصائل لاحصر لها . وقال ابن خلدون : كان للبربر فى الضواحى وراء ملك الامصار المرهوبة الحامية ماشاء الله من قوة وعدة وعدد وملوك ورؤساء وأقيال وأمراء لايرامون بذل ولا تنالهم الروم والفرنج فى ضواحيهم تلك بمسخطة ولا اساءة ، ثم قال وكانوا يؤدون الجباية لهرقل ملك الروم كما كان المقوقس صاحب مصر والاسكندرية وبرقة يؤدى الجباية له وكما كان صاحب طرابلس ولبدة وصبرة وصاحب صقلية وصاحب الاندلس من القوط يؤدون الجباية له حين كان الروم قد غلبوا على هذه الامم أجمع وعنهم أخذوا دين النصرانية اهـ استقصى

الطبقة الثالثة

طبقة التابعين رضى الله عنهم

من أعيان فقهاء هاته الطبقة نافع مولى ابن عمر ومحمد بن شهاب الزهرى وأبو عثمان ربيعة الرأى . اعلم أنه بعد تأسيس هاته الممالك الاسلامية فى الجهات الشرقية والغربية وبسط رواق العدل واظهاره وقطع الظلم وأنصاره وتبليغ القرآن وانتشاره صار بذلك المسلمون اخواناً يتساوون فى الحقوق ويتفاخرون بالتقوى وأعمال البر ومعالى الامور ومكارم الاخلاق وذلك

بواسطة الصحابة ثم التابعين و تقدم ذكر الامراء الفاتحين من الصحابة و بقى ذكر الامراء الذين جاؤا بعدهم وقاموا مقامهم فى نشر الدعوة والنصح للمسلمين فنقول : لما تولى الملك عبد الملك ابن مروان و بلغه خبر كسيلة بعث لزهير بن قيس البلوى وهو إذ ذاك ببرقة بالتوجه لافريقية و استنقاذ القيروان من كسيلة و أمده بالمال و وجوه العرب و فرسانها سنة ٦٩ وسار زهير ودخل افريقية بجموعه و خرج له كسيلة من القيروان فى عسكره والتحم القتال ودام حتى انتصر المسلمون وقتل كسيلة ومن معه من وجوه البربر ومهد افريقية وصار زهير بعد ذلك فى ملك عظيم وكان من العابدين الصلحاء ، ولما خاف الفتنة بحصول هذا الملك استقال ورجع للمشرق فلما وصل برقة وجد الروم على قتالها فى جموع عظيمة وبأيديهم أسرى من المسلمين فقصدهم وقاتلهم حتى استشهد هو ومن معه ولما بلغ خبره عبد الملك اشتد أسفه عليه ووجه حسان بن النعمان الغسانى ويقال له الشيخ الامين ودخل افريقية سنة ٧٩ فى أربعين ألف مقاتل وبعد أن أقام بالقيروان قصد قرطاجنة وفتحها وهذا الفتح من الفتوحات الاسلامية العظيمة ثم قصد دهيا الكاهنة المشهورة وكانت فى جموع عظيمة من البربر فالتحم القتال وصبر الجمان الى أن هزمته وفى هذا العهد كانت افريقية فى غاية العمران وإذ ذاك أذنت دهيا بتخريب مدنها وحصونها فخربتها وعقرت أشجارها ومحت جمالها ولم تبق إلا آثارها ، ثم أن حسانا نظم جيشاً عظيما ورجع لها بعد خمس سنين بما انضم اليه فهزمها وقتلها واستقام أمره ودخل القيروان ومهد الاحوال ودون الدواوين ، وهو الفاتح لتونس وقيل زهير بن قيس ولما جاء الامر بعزله من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان رجع للمشرق وتولى بعده ابو عبد الرحمن موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد بن لخم من التابعين بعهد من الوليد بن عبد الملك . روى عن تميم الدارى وكان احد أفراد الدنيا ومشاهير رجالها وفرسان أبطالها لم يهزم له جيش قط

قال ابن عذارى وفى سنة ٩٢ تم اسلام أهل المغرب الاقصى وحولوا المساجد التى بنتها المشركون الى القبلة وجعلوا المنابر فى مساجد الجماعات . وقال أبو محمد عبد الله بن أبى زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنى عشرة مرة ولم تستقر كلمة الاسلام فيهم الا بعهد ولاية موسى ابن نصير فلما بعده قدم افريقية وفتح زغوان وغيرها وقتل المخالفين وغنم وسبا و بعث اسطوله لصقلية فغنم الغنائم العظيمة وغزا بلاد المغرب وطنجة ولما استقرت له القواعد بالمغرب كتب لمولاه طارق بن زياد وهو بطنجة بغزو الاندلس فغزاها وفتحها سنة ٩٢ ثم لحق به موسى سنة ٩٣ وكمل فتحها وجمع غنائمها الكثيرة الشهيرة ورجع للقيروان أواخر سنة ٩٥ ثم توجه للمشرق واستخلف ابنه عبد العزيز على الاندلس وابنه عبد الملك على طنجة وابنه عبد الله على افريقية ولما دخل مصر هادى جميع فقهائها وأشرافها و بأثر ذلك امتحن بالعزل وقتل أولاده وغير ذلك على يد سليمان بن عبد الملك وكانت وفاته بالمدينة سنة ٩٨ ومن وقته انتهت الفتوحات الاسلامية التى كانت للاسلاف لانه كان يخشى اتساع الاقاليم لاننا نحتاجه طمع قواد

الجيوش فى الاستقلال ولذا افتك بالامير موسى المذكور وأولاده وبالامير قتيبة بن مسلم الذى ضم الى المملكة الاموية أقاليم كثيرة وبالامير محمد بن قاسم الذى أدخل جاهلية الهنود تحت حكم الاموية بحسن تدبيره وسياسته وبفقد هؤلاء القواد ذهبت قوة الدولة وشوكتها وزال حفظ وحدتها وأخذت أولاد عبد الملك من ذلك الوقت فى الانحلال والانحطاط بعد ما كان لاسلافهم من الشوكة والشرف بالممالك الاسلامية وغيرها فوق ما يقال وبلغوا بانتصاراتهم المتوالية وفتحهم البلاد الشاسعة درجات الكمال والمجد الباذخ والشرف الشامخ وسليمان المذكور عهد بولاية افريقية لمحمد بن يزيد وقدم القيروان سنة ٩٧ وغزا وسبا وكان عادلا حسن السيرة ولما توفى سليمان كان الخليفة بعده عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه استعمل هذا الخليفة على افريقية اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى قريش فوصلها سنة ١٠٠ وكان خير وال حريصاً على دعاء البرابرة للاسلام ذكر أبو العرب محمد بن تميم أن عمر بن عبد العزيز أرسل عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب فى الدين ومن كلامه رضى الله عنه تحدث للناس أقضية بقدر ما احدثوا من الفجور وتوفى فى السنة بعدها وبويع ليزيد بن عبد الملك وهو عهد بافريقية ليزيد بن أبى مسلم الثقفى مولى الحجاج بن يوسف وكاتبه وقدمها سنة ١٠٢ وكان ظلوما غشوما وسار السيرة الحجاجية فثار عليه حرسه وقتلوه ثم عهد يزيد لبشر بن صفوان بن نوفل قدم أفريقية سنة ١٠٣ وغزا صقلية بنفسه فاصاب سبيا كثيراً ورجع للقيروان وبها توفى سنة ١٠٩ وتولى بعده عبيدة بن عبد الرحمن بعهد من هشام بن عبد الملك قدم أفريقية سنة ١١٠ ثم عزله هشام بعد أن أقام بها أربع سنين وتولى بعده عبيد الله بن الحبحاب بعهد من هشام المذكور وكان رئيساً نبيلا وأميراً جليلا وخطيبا مصقعا قدم أفريقية سنة ١١٤ وهو الذى بنى دار الصناعة بتونس وهى عبارة عن المكان الذى تنشأ به السفن وهو الذى خرق البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة بتونس فى طول اثنى عشر ميلا وصارت من يومئذ ميناء عظيمة وهو الذى بنى جامع الزيتونة وقيل أول مختط له حسان بن النعمان وأتمه عبيدالله المذكور وقد ظهرت فى آخر أيامه فرق من الخوارج منهم الاباضية والصفرية وجاءت من قبلهم مصائب وكوارث ونوائب وكانت هاته الفتن احدى البواعث والاسباب فى خرق ستار الهيبة على الخلفاء ورفع الحجاب وكانت أقوى سبب فى انتقاض البربر على العرب ومزاحمتهم فى سلطانهم فاختلت على ابن الحبحاب وآل الامر الى اتفاق الكافة على عزله وكان ذلك سنة ١٢٣ ثم ان هشاما لما بلغه ذلك وجه عوضه كلثوم بن عياض وقدم فى السنة فى جموع كثيرة وجنود عظيمة وانتشب القتال بينه وبين زناتة وغيرها من القبائل وكانت الدائرة عليه بعد قتله ووجوه أصحابه ورجعت الصفرية الى القيروان فى أخبار طوال وحروب وأهوال ثم وجه هشام حنظلة بن صفوان وقدم القيروان ووقع القتال بينه وبين الثائرين وكان النصر حليف حنظلة ومات فى هاته الواقعة مائة وثمانون ألفا ولم يزل والياً عليها على أحسن حال الى أن تغلب على المغرب عبدالرحمن

ابن حبيب بن عبيدة بن عقبة الفهرى و استولى عليه سنة ١٢٩ وفيها رجع حنظلة للشرق و اذ ذاك بنو أمية فى تراجع وتنصان مع دعاة بنى العباس الى أن آل أمر الخلافة الى السفاح . فى البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن العذارى[1] وفى سنة ١٣٢ انقطعت الدولة الاموية ومدتها واحد و تسعون سنة و تسعة أشهر وخمسة أيام وهم أربعة عشر رجلا منها أيام ابن الزبير تسع سنين و اثنان وعشرون يوما و نفرقت بنو أمية فى البلاد هربا بأنفسهم وهرب عبد الرحمن ابن معاوية الى الاندلس فبايعه أهلها وجددت لهم دولة استمرت الى ما بعد الاربعمائة و أربع وعشرين وكان دخوله الاندلس سنة ١٣٧ قال ابن حزم وانقطعت دولة بنى أمية وكانت على علاتها دولة عربية لم يتخذوا قاعدة ولا قصبة انما كان سكن كل أمير منهم فى داره وضيعته التى كانت له قبل خلافته ولا كانوا المسلمين أن يخاطبوهم بالعبودية ولا تقبيل أرض ولا رجل ولا يد انما كان غرضهم التولية والعزل من أقاصى البلاد منهم فى الاندلس والصين والسند وخراسان وأرمينية واليمن والشام والعراق والمغرب وغيرها من بلاد الدنيا وانتقل الامر الى بنى العباس فكانت دولتهم أعجمية سقطت فيها دواوين العرب وغلب عجم خراسان على الامور وعاد الامر ملكا عضوضا كسراوياً الا أنهم لم يعلنوا بسب أحد من الصحابة رضوان الله عليهم وافترقت فى دولة بنى العباس كلمة المسلمين فتغلب على البلاد طوائف من الخوارج وغيرها . اه

واعلم أن البلاد الاسلامية كانت تدار بمعرفة أمراء يختارهم خلفاؤهم وهم نواب عنه وكانت منقسمة الى امارات كبرى منها مصر وافريقية والاندلس وهاته تارة تضم الى افريقية وكان الامير يقوم مقام الخليفة أحياناً يقيم الصلاة بنفسه ويقود الجنود ويختار من رجاله قائداً للجيش ويعين جابياً للخراج يصرف منه حاجات الامارة وأعطيات الجنود ويرسل مابقى للخليفة ويعين من شاء للقضاء بين الناس وتارة يقصرون الولاة على الصلاة والحرب والقضاء ويعين الخليفة عاملا على الخراج يرجع اليه رأساً والامراء الذين كانت لهم النيابة العامة كانوا متمتعين بما يسمى فى هذا الوقت بالاستقلال الادارى ، والذى دعا الى تمتع هؤلاء الامراء بهذا الاستقلال هو صعوبة المواصلات بين حاضرة الخلافة وبين حواضر الولايات فلو ألزم الامير أن يستشير فى كل ما يقع فى دائرته لطال عليهم وبقيت المشاكل من غير حل زمناً طويلا وهذا يدعو الى الاضطراب الكثير

(١) قوله ابن العذارى المراكشى هو من علماء أواخر القرن السابع . ألف كتاب المعرب فى أخبار المغرب بدأ فيه بفتح أفريقية وتاريخ ما توالى عليها بعد ذلك فى زمن بنى أمية فالعباسيين فولاية آل الاغلب مفصلا فدولة الشيعة والصنهاجية

خلاصة فيما حصل مدة الدولة الاموية

اعلم أن عصرها كله زمن فتوحات ممتدة فاتسعت حدود المملكة شرقا وشمالا وغربا وكان عصرها مع هذا زمن حروب داخلية مستمرة إلا فى مدة الوليد بن عبد الملك مؤسس الجامع الاموى بدمشق فانها كانت غرة فى جبين الدولة ، وكانت همة الدولة تقوية الجيوش البرية والبحرية فقد كان لهم أسطول قوى فى البحر المتوسط يحمى البلاد الاسلامية من غارات الروم المتواصلة ويغير على بلادهم ولم تكن أمراء البحر فى الدولة تقل مهارة واقداما على أمراء البحر الروميين فهى دولة حربية ظهرت بمظهر القوة القاهرة أمام الدول التى تجاورها من الشرق والشمال والغرب فى جميع ادوارها وكانت السيادة فى الجنود للعنصر العربى لأن الدولة كانت عربية محضة لم ينازعها دخيل وامتاز أفراد كثيرون بقيادة الجيوش الى حومة الوغى واشتهرت بالثبات ومضاء العزيمة وحسن التدبير فى الحرب ،من أولئك الامراء المظام: عبد الله بن سعد بن أبى سرح وعقبة بن نافع والمهلب بن أبى صفرة الازدى وابنه يزيد وقتيبة ابن مسلم الباهلى وأسد بن عبد الله القسرى ومحمد بن قاسم الثقفى وموسى بن نصير ، فظهرت بذلك فى مظهر الملك وعظمته وسطوته ولحقها الترف فى آخر مدتها . فى العقد الفريد : سمر المنصور ذات ليلة فذكر خلفاء بنى أمية وسيرتهم وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم الى أبنائهم المترفين . وكانوا مع عظم شأن الملك وجلالته همهم الشهوات وايثار اللذات والدخول فى معاصى الله ومساخطه جهلا منهم باستدراج الله وأمناً لمكره فسلبهم العز ونقل عنهم النعمة

الطبقة الرابعة

قد علمت أن المغرب استولى عليه عبد الرحمن بن حبيب وأن دولة بنى أمية انقرضت وأن عبد الرحمن بن معاوية دخل الاندلس فى أواخر ذى الحجة سنة ١٣٧ وتغلب عليه فلكه واستقل به وصار وراثة فى بنيه وأن أمر الخلافة آل الى بنى العباس وأولهم عبد الله السفاح ثم أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور ومن أخباره أنه لما بلغه ماحل بافريقية من الثوار أمر والى مصر محمد بن الاشعث الخزاعى بانقاذها فوجه أبا الاحوص العجلى سنة ١٤٢ ولما بلغ القيروان هزمه الثوار ورجع مفلولا فكتب المنصور لابن الاشعث بأن يسير بنفسه فسار فى أربعين الف مقاتل وقتل كثيراً من الثوار والبربر ورؤسائهم ودخل القيروان سنة ١٤٦ وضبط افريقية أحسن ضبط ثم لما قام عليه بعض الثائرين خرج منها سنة ١٤٨ ، ولما بلغ المنصور ذلك عهد بولاية افريقية الى الاغلب بن سالم بن عقال التميمى وكان ذا رأى وشدة فقدم القيروان

واستقام أمره ، ثم لما قتل فى حرب مع الثائر بن عبد المنصور لعمر بن حفص بن قبيصة بن أبى صفرة المهلبى وكان بطلا سمحاً قدم القيروان سنة ١٥١ فاستقام أمره ولما قتل فى حرب كالذى قبله وجه المنصور أبا خالد يزيد بن حاتم المهلبى وهو واسطة عقد هذا البيت[1] وأخباره فى السخاء والنجدة والشهامة معروفة وكان من خواص المنصور ووجوه ولاته قدم القيروان فى ستين الف مقاتل سنة ١٥٥ فمهد الامور ورتب أسواق القيروان وأفرد لكل صناعة مكاناً وجدد بناء جامعها وأوقع بالمخالفين وله مع البربر وقائع شهيرة وضبط الاحوال أحسن ضبط واستمر ناسجاً على ذلك المنوال الى أن توفى سنة ١٧١ ولما مرض استخلف ابنه داود وباشر الولاية بعد والده وكانت له وقائع مع البربر الى أن قدم عمه روح بن حاتم بعهد من الرشيد وكان حاجبه وصدراً من صدور ولاته وهو أسن من أخيه يزيد فدخلها أواخر عمره وأفاض فيها سجال عدله وكرمه ، وفي أيامه انكسرت شوكة البربر واستكانوا للتغلب وأطاعوا الدين فضرب الاسلام بجرانه وتوفى روح سنة ١٧٤ وتولى بعده نصر بن حبيب المهلبى بعهد من الرشيد وكان حسن السيرة يؤثر العدل ثم جاء كتاب الرشيد بعزله وولاية الفضل بن روح ولم يستقم له أمر وقتل سنة ١٧٨ وانقرضت بانقراضه دولة المهالبة ، وفى سنة ١٧٩ عهد الرشيد لهرثمة بن أعين وقدم افريقية فى السنة بعدها واستقام أمره وبنى القصر الكبير بالمنستير ثم استقال الرشيد فأقاله ورجع للمشرق لسنتين ونصف من ولايته ، وكان قائداً محنكا وله مع المأمون يد فى تخميد الثوار وتسكين الهرج والفضل له فى ذلك وله مقامات يحمد عليها ويشكر وقتل فى حدود سنة ٢٠٠ وبعث الرشيد لافريقية عوضه محمد بن مقاتل العكى وهو أخوه من الرضاعة وكان اتهم البهلول بن راشد بالقيام عليه وبسبب ذلك اراد اضراره فمنعه الاهالى من ذلك وتوعدوه الثورة ان فعل فى خبر تركناه اختصارا

فى خلاصة تاريخ العرب : كان بالايالات الشمالية من افريقية مسلمون مسمون بالبربر

---

(١) قوله : واسطة هذا البيت الخ آل المهلب بيت من بيوتات الاسلام من الازد اشتهروا بالكرم فى أيام بنى أمية مثل اشتهار آل برمك فى الدولة العباسية ونكبوا مثل نكبتهم وهم ينتسبون الى كبيرهم المهلب بن أبى صفرة . عمل المهلب لبنى أمية وحارب عنهم الازارقة وآخر ما تولى من الاعمال بلاد خراسان تولاها من جهة الحجاج يوم كان له العراقان وما زال عليها حتى توفى سنة ٨٣ وهو من كبار رجال الاسلام فى تلك الدولة ، وكان كريماً التماماً لحسن الاحدوثة . ومن أقواله : الحياة خير من الموت والثناء الحسن خير من الحياة ولو أعطيت مالم يعطه أحد لأحببت أن تكون لى أذن أسمع بها مايقال فىّ غداً اذا مت اه فهو من طلاب الشهرة بالسخاء وسار أبناؤه على خطواته فكثر الشعراء الذين مدحوهم وأشهر أولاده يزيد بن المهلب والمغيرة ومنهم مخلد بن يزيد بن المهلب من الاسخياء الممدوحين وحبيب بن المهلب

مختصون بالحرية السياسية لعدم حاكم عليهم حتى ذهب اليهم من آسيا عرب أجروا عليهم حكم الخلفاء العباسيين ثم أخذ عبد الرحمن بن حبيب يستميل العرب والبربر حتى اتخذ منها أحزابا زمن محاربة الاموية والعباسية من سنة ٧٤٦ الى سنة ٧٥٢ ميلادية واستقل بالحل والعقد لاشتغال العباسية ثم انتصروا فانقاد لهم سنة ٧٥٣ حتى كافه الخليفة المنصور بمطالب أفضت به الى الاعلان بالاستقلال والخطبة باسمه فى جامع القيروان ثم طمع أخوه الياس وأوقع بين العرب والبربر فتنة سفك فيها كثير من الدماء حتى انتهت سنة ٧٧١ بنصر العرب فاجتهد الامير أغلب فى جبر الجميع على الانقياد للمنصور ، ثم عصت البربر المهدى والرشيد مرات خسرت فيها العباسية خسارات عظيمة آلت الى استقلال الاغلبية بافريقية وخلطوا دم البربر بدم العرب بالتصاهر وزال مابينهما من التباغض والشقاق وانقاد الحكم لابراهيم بن الاغلب وفيه لم تهتم العباسية بممالكها الغربية وتركوا من بشمال افريقية يديرون أحوالهم كما شاءوا وأطلقوا للعائلة الاغلبية التصرف فى افريقية مكتفين بذكر أسمائهم وقبل ذلك ابراهيم بن الاغلب من الرشيد اه

فصل

اعلم ان العباسية تولت الخلافة سنة ١٣٢ وأولهم أبو العباس عبد الله السفاح بن محمد بن على ابن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما واستمرت فيهم الخلافة الى سنة ٦٥٦ استخلف فيها منهم سبع وثلاثون خليفة ومكثت هاته الدولة مائة سنة لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الاسلامى ما عدا بلاد الاندلس ، يقولون فيسمع لهم ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف فى وجه جنودهم . وقام فى هذا العصر الزاهر الباهر من العباسية ثمانية خلفاء أولهم السفاح وتوفى سنة ١٣٦ وقام بالأمر بعده أخوه أبو جعفر عبد الله المنصور وكانت وفاته سنة ١٥٨ وقام بالامر بعده ابنه محمد المهدى وتوفى سنة ١٦٩ وقام بالأمر بعده ابنه موسى الهادى وتوفى سنة ١٧٠ وقام بالامر بعده أخوه هارون الرشيد وكان دينا محافظاً على التكاليف الشرعية يغزو سنة و يحج سنة وهو واسطة عقد المدة العباسية وصلت فيها الخلافة الى أفخم درجاتها سلطاناً وسطوة وثروة وعلماً وأدبا وكانت وفاته سنة ١٩٣ وقام بالامر بعده ابنه محمد الامين الى أن قتل فى محرم سنة ١٩٨ وقام بالامر بعده أخوه عبد الله المأمون الى أن توفى سنة ٢١٨ وقام بالأمر بعده أخوه المعتصم الى أن توفى سنة ٢٢٧

قد علم مما مضى ان نظر الخلفاء منسحب على المغرب وظلهم ممتد اليه وهم قادة الامم الاسلامية فى كل شىء من أمور الدنيا والآخرة وذلك حينما كان أمر الخلافة ممتداً وحكمها مجتمعاً وكلمتها نافذة فى جميع ممالك الاسلام شرقا وغربا بحيث لا يخرج قطر من الاقطار ولا مصر من الامصار فيما بعد أو دنا من الارض عن نظر الخليفة الاعظم وقد كان ذلك دينا متبعاً

وحكما مجتمعاً ولا تصح لأحد امارة ولا ولاية الا باسناد اليه حتى اذا طال العهد وضعف أمر الخلافة وتقلص ذكرها من القاصية تفرقت ممالك الاسلام البعيدة عن دارها وتوزعها الثوار واستبدوا بها كل بما غلب عليه وصار أمر الوحدة الى الكثرة وحكم الاجماع الى التفرقة وسيتضح لك ما قررناه مما سيأتى فى محله ان شاء الله

صلة

قال ولى الدين بن خلدون: هؤلاء الملوك الذين أتوا بعد الخلفاء الراشدين لم يكن مذهبهم فى الملك مذهب أهل البطالة والبغى انما كانوا متحرين مقاصد الحق جهدهم الا فى ضرورة تحملهم على بعضها مثل خشية افتراق الكلمة الذى هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لك ما كانوا عليه من الاتباع والاقتداء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك فى الموطأ بفعل عبد الملك بن مروان وكان من الطبقة الاولى من التابعين وعدالتهم معروفة ثم تدرج الأمر فى ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذى كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع الى طريق الخلفاء الاربع والصحابة بعدهم ثم جاء خلفهم واستعملوا طبيعة الملك فى أغراضهم الدنياوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرى القصد فيها واعتماد الحق فى مذاهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى أن نقموا عليهم بافعالهم وأدلوا بالدعوة العباسية وتولى رجالها الأمر فكانوا من العدالة بمكان وصرفوا الملك فى وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد بعدهم فكان منهم الصالح والطالح ثم أفضى الامر الى بنيهم فأعطوا الملك والترف حقه(١)

(١) قوله والترف الخ بعث الاستاذ أرسطاطاليس رسالة لتلميذه اسكندر المقدونى نلخص المقصود منها « ان البطالة والرفاهية والكسل واهمال الاجسام والعقول مضيعة للامم وان مايظنه الناس من ان الراحة سعادة والنصب والتعب شقاوة قضية فاسدة فالحكمة عكست آراء العامة وذلك بالبراهين المعلومة فى التاريخ وان المدن التى آلت الى الراحة يقهرها الغاصبون وان الرجل الذى جاءت اليه المناصب والاموال عفواً تذهب بمنصبه وماله عواصف الحوادث ومصائب الايام » وأتى فيها على نصائح منها : « ينبغى للمدبر أن لايتخذ الرعية مالا ولا مأكلا ولا قنية ولكن يتخذهم أهلا واخوانا وان لا يرغب فى الكرامة التى من العامة كرها ولكن فى التى يستحقها بحسن الاثر وصواب التدبير وينبغى أن يكون السلطان رئيساً لأحرار خيراً من أن يكون رئيساً لعبيد أذلاء واذا أذلهم وكرهوه لاتدوم رآسته وان الرئيس اذا أذل رعيته فقد اختار أن يرأس البهائم لا أن يسود الرجال وينبغى أن يكون فى شكل الاب ورآسته على قليل من الاخيار خير من التسلط على كثير من العبيد ودوام الرآسة يكون بالعدل ولين الجانب

وانغمسوا فى الدنيا وباطلها ونبذوا الدين وراءهم ظهريا فتأذن الله بحربهم وانتزاع الامر من أيدى العرب جملة والله لا يظلم مثقال ذرة اه

فى سراج الملوك : ان أدعى خصال السلطان صلاح الرعية وأقواها تمسكهم بأديانهم وحفظهم لمروءتهم واصلاح السلطان نفسه وتنزيهه عن سفاسف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترفيع نفسه عن استصحاب أهل البطالة والمجون واللهو والاعلان بالفسوق

اذا ما غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب

أما ترى الشمس فى الميزان طالعة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

وقد كانت صحبة محمد الامين لابى نواس الشاعر وصمة عظيمة عليه أوهى بها سلطانه ووضع عند العامة والخاصة قدره وأطلق لسان الخلق بالشتم والثناء القبيح عليه فخلفه بذلك أخوه المأمون على الولاية وأبو نواس هذا هو القائل :

ألا فاسقنى خمراً وقل لى هى الخمر ولا تسقنى سراً اذا أمكن الجهر

وبح باسم من أهوى ودعنى من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر

والفضلاء يخضعون بالحياء والمحبة والسفهاء بالخوف . والسلطان اذا لم يكن عدلا فهو يسمى غاصباً لا سلطانا وينبغى اذا حارب قوما وانتصر عليهم أن يجعل الرحمة محل الغضب وأن لا يحقد على الاشراف وأن لا يكون شديد الغضب كالسباع ولا ضعيفاً كالصبيان وأن يكون مستشاره مائلا الى فعل الخير » وحذره استشارة المموهين الخادعين . وختمها بثلاث نصائح تكسب السلطان حسن الذكر وهى : « حسن السيرة والبلاء فى الحروب وعمران المدائن » . واسكندر المذكور قصته تدرس فى المدارس المصرية ومدارس العالم وهو تلميذ أرسطاطاليس الفيلسوف ويسمى المعلم الاول وهو الذى انتشرت فلسفته فى الامة الاسلامية وقد كان هذا الملك قبل الميلاد بنحو ٣٣٠ سنة وتولى الملك بعد أبيه وهو من أهل مقدونيه وحارب الفرس واستولى على ملك دارا وتزوج ابنته وقتل الرجل الفارسى الذى قتل دارا حين جاء ليأخذ الجائزة وأظهر كرماً وشجاعة ولما دخل بلاد فارس رأى رجالا ذوى وجاهة وبهجة وجمال وأبهة من أبناء الملوك والامراء وأراد قتلهم فاستشار أستاذه المذكور فأرسل اليه «لا فضل فى قتلهم وان قتل الرؤساء تتأجج ناره فى قلوب الامة ولا تخمد» وأمره بأن ينعم عليهم ويعطى كلا منهم ملك أبيه ويوقد بينهم العداوة والبغضاء دائماً ويكون هو الحكم بينهم فيكون محبوبا . فمشى على تلك السياسة ثم سافر الى الهند وحارب هناك وهو الذى بنى الاسكندرية لما حكم مصر لانها كانت تحت حكم الفرس . مات عند رجوعه من الهند وعمره ثلاث وثلاثون سنة قبل أن يصل لبلاده ببابل وحمل للاسكندرية ودفن بها فى تابوت ذهبى

فريدة أذكر فيها نبذة من حضارة بغداد

فى عهد المنصور والرشيد وابنه المأمون

اعلم ان بغداد وصلت فى عهد هؤلاء الامراء الى قمة مجدها ومنتهى فخارها

أما من حيث العمارة فقد فاقت كل حاضرة عرفت لعهدها : بنيت فيها القصور الفخمة التى أنفق على بناء بعضها مئات الالوف من الدنانير وتأنق مهندسوها فى احكام قواعدها وتنظيم أمكنتها وتشييد بنيانها وصارت قصور الجانب الشرقى بالرصافة تناوىء قصور الجانب الغربى كان فى الشرق قصور البرامكة وما أنشأوه هناك من الاسواق والجوامع والحمامات وبالجانب الغربى كانت قصور الخلافة التى كانت تبهر الناظرين اتساعا وجمالا وامتدت الابنية امتدادا عظيما حتى صارت بغداد كأنها مدن متلاصقة تبلغ الاربعين على جانبى دجلة واستبحر العمران فيها لما جاءها من الثناء وصار سكانها نحو ألفى ألف نسمة حتى ازدحمت بساكنيها . وكانت متاجر البلدان القاصية تصلها براً وبحرا تجيئها من خراسان وما وراءها والهند والصين والشام والجزيرة ، والطرق اذ ذاك آمنة والسبل مطمئنة

وأما من حيث ثروة الدولة فقد كان يرد على الخليفة ببغداد مايبقى من خراج الاقاليم الاسلامية ويدخل بيت مال الخليفة يصرف منه مرتبات الوزراء والمساعدين له والباقى يتصرف فيه حسبما يرى وهو شىء جسيم وكان الرشيد أسمح خلفاء بنى العباس بالمال يعطى عطاء من لايخشى فقراً للقصاد والشعراء والفقهاء والمنجمين والكتاب وجرى على سننه كبار وزرائه وشيوخ دولته ورؤساء قواده حتى امتلأت الاسفار بذكر عطاياهم التى يتردد الانسان فى صحتها وراجت التجارة واشتد الترف وتغالى الناس فى حاجاتهم وتأنقوا فى معايشهم وانغمسوا فى الملاذ واللهو والخلاعة وذلك شأن كل أمة سالت عليها سيول الثروة

وأما العلم فان بغداد صارت قبلة لطلاب العلم من جميع الامصار الاسلامية يرحلون اليها ليتمموا مابدأوا فيه من العلوم والفنون فهى المدرسة العليا لطلاب العلوم الدينية والعربية على اختلافها فقد كان فيها كبار المحدثين والفقهاء وحفاظ اللغة وآداب العرب والنحويين وكلهم قائمون بالدروس والافادة لتلاميذهم فى المساجد الجامعة التى كانت تعتبر مدارس عليا لتلقى هذه العلوم وقلما كان يتم لانسان وصف عالم أو فقيه أو محدث أو كاتب الا اذا رحل الى بغداد وأخذ عن علمائها وجميع هؤلاء العلماء كانوا يعيشون عيشاً رغداً مما كان يفيضه عليهم الرشيد والبرامكة ومن دونهم من الخير الواسع والبر العميم ولم تكن بغداد بالمقصرة فى علوم الدنيا كالطب والحكمة وغيرها من سائر الصناعات فقد حشد اليها الاطباء والمهندسون وسائر الصناع من الاقاليم المختلفة وحصل بذلك نعيم عظيم ونهضة علمية بقى أثرها خالداً

أما الدولة الاموية فلم يكن فى عهدها لترجمة الكتب كبير حظ ولا عظيم أثر لانها أقرب الى من قبلها فى السذاجة الصناعية فلما جاءت الدولة العباسية وكان لها اختلاط كبير بالفرس وهذا الاختلاط قد جعل نفوس العباسيين تصبو الى الاطلاع على شيء مما عند الفرس واليونان من آثار مقدميهم من العلماء والحكماء والفلاسفة وأول من عنى بترجمة تلك الكتب أبو جعفر المنصور ثم الرشيد . أما أوروبا فى ذلك الوقت فكانت مهد جهالة لانه بانقراض الرومانيين وغفلة الامم المتبربرة على أوروبا انطفأ مصباح العلم وأما الحال فى البلاد الاسلامية فكانت على العكس من ذلك علماً وعملا ببغداد وقرطبة فسعى شارلمان فى اصلاح قوانين دولته مقلداً الرشيد وبعث وفداً اليه مصحوباً بهدايا ثم رجع الوفد ومعه هدايا منها ساعة وفيل وشطرنج وبعض أقمشة نفيسة فلما نظرها رجال شارلمان ظنوها من الامور السحرية وأوقعهم فى حيرة حتى هموا بكسر الساعة . كانت العلوم فى عهد المأمون أرقى عهود العلم فى العصر العباسى وظهر فى وقته جمهور من فطاحل العلماء توغلوا فى البحث عن أصول الدين والعقائد وكان المأمون محبا للعلم ولزيادة نشره ومغرى بعلوم الاوائل وتحقيقها وله جولة فى العلوم الدينية كما كانت له جولة فى العلوم الصناعية وكان أثره فى هذا أظهر من أثره فى تلك وكانت له حركة قوية ونشاط عظيم بترجمة الكتب اليونانية وغيرها الى اللسان العربى وكان لعهده جماعة ذوو يسار اعتنوا بنقلها الى اللسان العربى وبذلوا الرغائب وأنفذوا جماعة الى بلاد الروم فجاءوهم بطريف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب والنجوم فكثرت الكتب المترجمة فى جميع العلوم الصناعية ولما نقلت الى العربية اشتغل بها ناس كثيرون علما وعملا ووجد منهم فلاسفة عظام ألفوا كتباً عظيمة فى هاته العلوم وكانت الامة فى استعداد تام لتلقى هاته العلوم والتصرف فيها والبناء عليها والزيادة فنفقت بسبب ذلك هذه العلوم وكان المأمون المساعد الاكبر فى نفاقها والفضل له فى ذلك مع حفظ الفضل لمن سبقه كأبيه الرشيد وجده المنصور فانهما وضعا الاساس اهـ . من محاضرات الخضرى

وفى خلاصة تاريخ العرب أن الصدر الاول من خلفاء بنى العباس استعملوا شوكتهم فى تزكية العقول وتنمية المعاش فأحدثوا كثيراً من المكاتب والمدارس التعليمية والا كالات الاحسانية وحضوا على اكتساب التجارة وسائر الفنون واختص المنصور منهم فانه أول من حث على الاشتغال بالعلوم واقتدى به من بعده فى نشرها وتوسعتها بجلبهم من الاقاليم التى فتحوها علماء لترجمة أعظم كتب اليونان وانشائهم كتبخانات ومدارس يتعلم فيها الخاص والعام العلوم الفلكية والرياضية والطبية والفلسفية مع تعلم القرآن العظيم وتدريس تفسيره وخصصوا مدرسة رتبوا لها خمسة عشر ألف دينار يتعلم بها مجانا ستة آلاف تلميذ من الفقراء والاغنياء وانتشرت اللغة العربية فى كثير من الجهات واعتاد المأمون ومن اقتدى به حضور

الدروس العامة التى يلقيها المدرسون ويمتحن من أراد أن يوظف عدة امتحانات وصرف مبالغ من النقود على ذلك وعلى جميع العلماء لحل مشكلات المسائل ومهر فى زمنه كثير من العلماء فى العلوم والفنون على اختلاف أنواعها واطلعوا شموس العلوم الرياضية وبنوا الارصاد التى بها آلات عجيبة للاستكشاف الفلكى ومستشفيات ومعامل كماوية لاستكشاف النباتات ومكثت تلك المدرسة على رونقها الباهر نحو مائتى سنة فكان للعباسيين فى ذلك أسعد حظ واستخرجوا معادن الحديد ونسجوا الاقمشة فى كثير من المدن واستخرجوا الغاز والنفطوطيئة الاوانى الصينية والملح الاندرانى والكبريت وتقدموا فى فنون النقش والعمارة والجبر والموسيقى والمنطق وظهر بين أولئك العلماء مؤلفات كثيرة بارعة فى فنون شتى وأظهر دور الفنون الميكانيكية تقدمات يشهد بها مابعثه الرشيد الى شرلمانية ملك الفرنسيين من الساعة الكبيرة الدقاقة التى تعجب منها أهل ديوانه ولم يمكنهم معرفة كيفية تركيبها ومع ذلك لم يكن فى عصر العباسية أهم من صناعة الفلاحة ولما حصلت التوسعة فى الممالك مع غزارة المحصول وتنوع الاقطار توجه النظر الى رواج التجارة تتميما للتمدن وامتثالا لامر الشارع بالتكسب فاجتهدوا فى أمن الطرق وحفر الآبار والصهاريج فى محطات القوافل فانتشرت التجارة فكانت غلات الاندلس والبربر ومصر والحبشة والفرس والروس والهند والصين وغير ذلك من الممالك تأتى الى مكة والمدينة والشام والعراق ويستبدلون البضائع الموجودة فى جهة بالبضائع المفقودة بها وكان بينهم بسبب ذلك علائق تمارف وكذلك اتسعت بالسواحل الشمالية من أفريقية دائرة التجارة وكان بها معامل كثيرة وكانت القوافل التجارية تسافر من طرابلس الى الاقيانوس الاطلنطيق غير خاشية من سيرها فى وسط الصحراء الكبرى اه. وفيه قد حفظ العرب مؤلفات اليونان واستمدوا لتجديد المعارف فى أوروبا فكانوا رابطة بين هذين الزمنين وبذا يثبت فضل العرب على الفرنج الذين حاول بعضهم خفض فضائل العرب الواضحة كالشمس فى رابعة النهار ويعلم أن لاموقع لافتخار المتأخرين من أهل أوروبا بتصورات أكثرها للعرب وسبق لك ما كان لعلماء المدرسة البغدادية من التحكم النافذ بالمشرق والمغرب اه

وزبدة القول أن الحضارة اتسعت فى عصر هؤلاء الخلفاء ونمت العلوم الدينية والصناعية والاقتصادية نمواً باهراً فهو عصر النهضة العلمية وتزكية العقول فقد أسس أبو جعفر المنصور مدينة بغداد وتعاون على بنايتها العقل العربى والفارسى والرومى وتأنق فى ذلك بوجه جعلتها تفوق جميع مدن العالم فى ذلك العصر وحشر لها العلماء من جميع الامصار والتجار والصناع واذا أطللت على منتهى المملكة الاسلامية من جهة الغرب وجدت مدينة قرطبة تسعد الى مساماة بغداد، وتجد فى أفريقية مدينة القيروان التى ورثت عظمة المدن الافريقية الرومانية وانتقل اليها جمالها، وتجد مدينة الفسطاط حاضرة مصر وقد جمع مسجدها الاعظم حلقات العلماء الذين

أبقوا أكبر الآثار فى الاجتهاد والاستنباط والذين أظهروا للناس كافة فقه الائمة المجتهدين على اختلاف مذاهبهم من أصحاب مالك والشافعى وظهرت حركة علمية ونمت نمواً عظيما مما كان من وصول المدنيات القديمة التى ترجمت كتبها الى رؤوس المفكرين من العرب وأول من اهتم بذلك أبو جعفر المنصور ثم جاء دور ثان على عهد المأمون فبلغ العلم الى أرقى درجاته وكان مغرما جداً بالآداب اليونانية فانتشرت تلك الكتب انتشارا عظيما وصار ما فيها عاملا مهما فى تكوين معلومات كثيرة صناعية وفى هذا الدور ازداد حفاظ القرآن واشتهروا فى جميع الاقطار إلا أن المسلمين فى كل قطر اعترفوا بالتبريز للقراء السبعة المترجم لهم فى المقدمة وهذا الدور كان عصراً مجيداً للسنة فقد تنبه رواتها الى وجوب تصنيفها وتدوينها وقد وجدت هذه الفكرة فى جميع الامصار الاسلامية فى أوقات متقاربة فكان من مدونيها فى الدور الاول مالك بن أنس

تنبيــــه

من أعيان علماء الدين وأئمة المسلمين فى عصر هؤلاء الخلفاء إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضى الله عنه

الطبقة الخامسة

اعلم أن هارون الرشيد عهد بولاية أفريقية لابراهيم بن الاغلب ، فباشر أمرها واشتغل بها ، وصارت وراثة فى عقبه ، وكان فقيهاً أديباً شجاعاً أريباً حافظاً للقرآن عارفاً به ، سمع الليث بن سعد فمهد الامور وطوع البربر وكانت له معهم وقائع مشهورة ووقائع بالمغرب الاقصى مع أهل الدعوة لادريس العلوى مؤسس فاس . وتوفى هذا الأمير سنة ١٩٦ وبويع لابنه أبى العباس عبد الله . وكان سيء السيرة . وتوفى سنة ٢٠١ وبويع لاخيه زيادة الله بن ابراهيم وكان ملكا جليلا فصيحاً أديباً ، وهو الذى شيد جامع القيروان وبنى سور سوسة ووجه له المامون بعهد الولاية سنة ٢٠٣ وتوفى سنة ٢٢٣ . وبويع لأخيه ابى عقال الاغلب بن ابراهيم وكانت سيرته حسنة وله فتوحات بصقلية وتوفى سنة ٢٢٦

صـــــلة

لما توفى القاضى أبو محمد عبد الله بن غانم سنة ١٩١ أشخص ابراهيم بن الاغلب أبا محرز محمد بن عبد الله الكنانى وقال له : انى عزمت على توليتك القضاء . فقال له أبو محرز : لست

أصلح لهذا ولا أطيقه ، فقال له ابراهيم لو كان الاغلب بن سالم و يزيد بن حاتم باقيين لم أكن أميراً ، ولو كان عبد الله بن غانم وابن فروخ باقيين لم تكن أنت قاضياً ، ولكل زمان رجال ، وعلى الأمير الاختيار . فامتثل أبو محرز وكان فاضلا ورعاً فصيح اللسان بصيراً باللغة والشعر . أخذ عن مالك وكان يميل لمذهب أبي حنيفة ثم وقع تشريك أسد بن الفرات معه فى القضاء ولم يعهد مثل ذلك فى مصر واحد . وتوفى أبو محرز سنة ٢١٤ وكان هذا الأمير يقول ما أبالى انى قدمت عليه يوم القيامة وفى صحيفتى أربع حسنات تجديد جامع القيروان و بناء قنطرة أبي الربيع وحصن مدينة سوسة وولاية أبي محرز قضاء افريقية . وكانت ولاية أسد بن الفرات القضاء سنة ٢٠٤ بعهد من زيادة الله . وأسد هذا مولده سنة ١٤٣ بحران من ديار بكر . رحل به والده وعمره عامان مع الجند العربي لقيادة ابن الاشعث ودخل معه القيروان سنة ١٤٦ ، ثم دخل تونس وانقطع لقراءة القرآن وعلومه وروى الموطأ عن ابن زياد ، وفى الثامن عشر من عمره رحل للمشرق وأقام بالمدينة مدة وأعاد رواية الموطأ على مالك ، ثم رحل للعراق ولقى أعلاما من أصحاب أبي حنيفة منهم الامامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن وأخذ عنهما علماً غزيراً ، ثم رحل لمصر ولقى جماعة من أعيان العلماء منهم الامام عبد الرحمن بن القاسم فلزمه مدة وهناك ألف الاسدية ثم قفل راجعاً للقيروان وبها انتشر ذكره وظهر علمه وارتفع قدره وفى سنة ٢١٢ جمع زيادة الله جيوشه وأسطوله لغزو صقلية وكان أمير هذا الجيش وقاضيه أسد المذكور فخرج فى حفل عظيم وجمع فخيم من أهل العلم ووجوه الناس لمشايعته . ولما رأى أسد الناس خاصتهم وعامتهم بين يديه وخلفه قال بعد حمد الله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يامعشر الناس ، والله ما ولىَ لى أب ولا جد ولاية قط ولا أحد من سلفى رأى هذا قط . وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام فاجهدوا أنفسكم واتعبوا أبدانكم فى طلب العلم وتدوينه واصبروا على شدته فانكم تنالون به خير الدنيا والآخرة . وهذا الاحتفال انتهى بمرسى سوسة ومنها أقلع الاسطول قاصدا صقلية ودخلها بعد مكابدة مشاق وحصل له فتح عظيم بها . ومات أثر جراحات فى حصار سرقوسة ودفن بذلك الموضع سنة ٢١٣ . فى كتاب الاعتصام نص كتاب بعثه أسد بن موسى الى أسد ابن الفرات يشكره على اتباعه للسنة والذب عنها وطعنه فى المبتدعة . وقال فى خاتمته : ادع الى السنة حتى يكون لك فى ذلك الفة وجماعة يتومون مقامك ان حدث بك حادث فيكونون أئمة بعدك فيكون لك ثواب فى ذلك الى يوم القيامة ـ كما جاء فى الاثر ـ فاعمل على بصيرة ونية حسنة فيرد الله بك المتبوع والمفتون الزائغ الجائر فتكون خلفاً عن نبيك ﷺ فاحى كتاب الله وسنة نبيه فانك لن تلقى الله بعمل يشبهه

تذييل

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن فروخ وابن غانم وأبو محرز والبهلول بن راشد وأبو الحسن بن زياد وأسد بن الفرات

الطبقة السادسة

لما توفى أبو عقال المتقدم الذكر بويع لأخيه أبى العباس محمد وكان مظفراً فى حروبه، وله وقائع مع بعض آل بيته. ومن فضائله ولاية سحنون القضاء، راوده حولا كاملا على أن يوليه القضاء فأبى، ثم عزم عليه بالايمان التى لا يخرج منها فلما رأى ذلك سحنون اشترط عليه شروطاً منها أنه قال له : انى أبدأ بآل بيتك وأعوانك فان قبلهم حقوقاً للناس منذ زمان طويل ومنها أن آل الاغلب اذا طلبهم أحد يحضرون بأنفسهم فى مجلس الحكم ولا يوكلون غيرهم لما يرون فى ذلك من الردع لهم لأن الانفة تمنعهم ذلك فلا يقع منهم التعدى ولا حجر الحقوق . وباشر بنفسه خطة الحسبة مع القضاء . رحل لمصر سنة ١٨٨ وقرأ الاسدية على ابن القاسم . وفى الديباج : لما ولى القضاء دخل على ابنته خديجة ــ وكانت من خيار النساء ــ وقال لها : اليوم ذبح أبوك من غير سكين . فبذلك علم الناس أنه قبل القضاء . انتهى وناهيك من قوم قاضيهم مثل الامام الذى لم يقبل القضاء الا بشروط وناهيك بذلك الامير الذى وفى له بتلك الشروط وتوفى هذا الامير سنة ٢٤٢ وبويع لابن أخيه أبى ابراهيم أحمد بن محمد وكان فاضلا عادلا حسن السيرة كثير الصدقات رفيقا بالرعية وكانت فى أيامه وقائع بصقلية أكثرها للمسلمين، وله مآثر خالدة منها التوسعة فى جامعى القيروان وتونس وتوفى سنة ٢٤٥ وهو ابن ثمان وعشرين سنة وبويع لزيادة الله بن أحمد بن محمد وكان فاضلا عاقلا حسن السيرة شجاعا جميل الافعال . كان سليمان بن عمران القاضى يقول : ماولى من بنى الاغلب أعقل من زيادة الله هذا، وتوفى سنة ٢٥٠ وبويع لاخيه محمد بن أحمد المعروف بأبى الغرانيق لشغفه بصيدها وكان يغلب عليه اللهو وكانت فى أيامه حروب عظيمة وكان فتح جزيرة مالطة على يده سنة ٢٥٥ وأسر ملكها وتوفى سنة ٢٦١ وبويع لاخيه ابراهيم بن أحمد وكان عادلا حميد السيرة وفى أيامه كان فتح سرقوسة، ثم ساءت سيرته وأفتك بكثير من اخوته وبناته وآل بيته وجواريه وخدمه فى أخبار تذوب منها الاكباد وتقشعر منها الجلود وكانت أفعاله السيئة أحد الاسباب فى ضعف هاته الدولة المؤذن بزوالها ثم أظهر التوبة وأقلع عما كان عليه واستنفر الناس للجهاد ووسع على المقاتلة وفرق الاموال وخرج من سوسة الى صقلية وهو أمير الجيش سنة ٢٨٤ فسبى وغنم ودخل بليرمو وبها توفى سنة ٢٨٩ فى ذى القعدة بعلة أصابته ودفن هناك، وقيل نقل للقيروان وبويع لابنه

أبي العباس عبد الله وكان شجاعا ثبتاً ذا بصر بالحروب أديباً عاقلا حسن السيرة وله وقائع فى صقلية مشهورة وقتله غلامان من غلمانه غدراً وكان يثق بهما باغراء من ابنه أبى منصور زيادة الله فى شعبان سنة ٢٩٠ وبويع لابنه أبى منصور المذكور وإذ ذاك ثار دواعى الشيعة تأكل أطراف مملكته حتى استولى عليها شيئاً فشيئاً بعد حرب كانت الهزيمة فيهـا عليه سنة ٢٩٦ ورحل عقب الهزيمة الى المشرق بما خف من الاموال ونفيس الجواهر وتوفى بتلك الجهة سنة ٣٠٣ وجرى له ماجرى فكانت عاقبته كما ترى لعقوقه والده وقتله إياه وانقرضت بانقراضه دولة بنى الأغلب ومدتها مائة سنة وأحد عشر سنة وثلاثة أشهر ، وفى مدتهم استقل المغرب الاقصى وصار فى تملك الادارسة فى أخبار طوال وأولهم ادريس بن عبد الله واستفحل أمره فى تلك البلاد وأسس مدينة فاس وأخبار المغرب الاقصى من عهده الى هذا العهد مبسوطة فى الاستقصى وغيره . واعلم أن ولاة افريقية من الصحابة والتابعين ومن بعدهم كانوا على السذاجة هممهم الجهاد ودخول الناس فى الدين الاسلامى وحفظ مافتحوه ولما آل الامر الى بنى الاغلب اشتغلوا أيضا بالحروب والفتوحات وجمع العساكر النافعة مع ما فيهم من السذاجة العربية والبعد عن عزة الملك وأخلاق الحضارة فكانت قضاتهم يحكمون عليهم وينصفون الناس منهم ومن غيرهم وأخبار قضاة العدل مذكورة مضافة ومستقلة مع تقدم فى احياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة. فى خلاصة تاريخ العرب أدخل الأغالبة فى الاقاليم الافريقية جميع مبادىء التمدن الاسلامى التى كانت بالشام والعراق وأخذوا يقيمون فى تونس والقيروان وطرابلس فامتلأت تلك المدن مبانى أبدت للناظرين الافواس المادة والدعامة المزخرفة على حسب مبنى العمارة الرومانى وبنوا قناطر على مجارى سيول سريعة التيار واجتهدوا فى إحياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة وأنشأوا مراكز تجارية سهلت مخالطة سكان الصحراء بسكان السواحل وجددوا طرقا أبدوا فيها الامن وجعلوا نظارة محل البريد فى أيدى أعيان البلاد ورتبوا بتلك المحال ابقاء التواصل التام بواسطة السعاة والبريد الخيلى من ابتداء حدود المغرب الى حدود مملكة مصر وعمروا سفنا بحرية حكموا بها على البحر الابيض المتوسط وغزوا سواحل مملكتى ايطاليا وفرانسا وجزائر قرقه وسردانيا وسيسليا وبالغ مؤرخو الفرنج فى الحكايات المتعلقة بتلك الغارات واستولوا على مقاطعات كثيرة ومدن شهيرة ثم ذكرها مدينة مدينة تركنا ايرادها هنا اختصارا . ثم قال وبالجملة أجاد العرب فى ترتيب وتقسيم تلك البلاد وقدموا فيها الفلاحة والصنائع ونقلوا اليها شجر القطن من الشام وقصب السكر من طرابلس الغرب ولسان عصفور الفستق واستخرجوا ما فيها من معادن الفضة والحديد والنحاس والكبريت والملح الاندرانى والمبانى الموجودة منها فى ضواحى بالرمة تؤذن بمهارتهم فى العمارة وفشا نسج الحرير بسيسليا ومنها انتشر فى أوروبا . انتهى باختصار

وفى الفتوحات الاسلامية : كانت ولاية ابراهيم بن الاغلب أفريقية سنة ١٨٤ بعهد من هارون الرشيد وتوارث الملك بعده بنوه عمالا للخلفاء بنى العباس واستمر فيهم الى سنة ٢٩٦ فزالت دولتهم وصارت للعبيديين واتسع ملكهم بافريقية وصارت لهم أموال كثيرة وخيل وجنود وافرة وملك ضخم ومراكب فى البحر ولهم كثير من المآثر المحمودة والمواقف المشهودة والغزوات الكثيرة والفتوحات الشهيرة وأكثر فتوحات افريقية كان على أيديهم بصقلية بكسرات مشددة اللام جزيرة عظيمة كثيرة البلدان والقرى والمواشى وكان أول الغزو اليها زمن معاوية بن حديج فى خلافة معاوية رضى الله عنه ولم يفتحها وتتابع الغزو اليها زمن ولاية بنى الاغلب من أول دولتهم الى آخرها وتملكوا أكثر الجزيرة ولم يزل الفتح فيها والغزو الى أن انقضت دولتهم وتفصيل ذلك مبسوط فى التواريخ . انتهى

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء الامام سحنون وابنه محمد وابن عبدوس وحمديس وعيسى بن مسكين ويحيى بن عمر

الطبقة السابعة

لما انقرضت دولة بنى الاغلب وآلت الى بنى عبيد فى أخبار طوال بواسطة أبى عبد الله الصنعانى من صنعاء اليمن وكان صاحب جدل ودهاء وحذق وسياسة . كان أول ملوك هاته الدولة أبو محمد عبيد الله المهدى بن محمد الحبيب ينتهى نسبه الى سيدنا على رضى الله عنه وأثبت نسبهم الكريم ولى الدين بن خلدون . وقال ابن خلكان : فى نسبهم خلاف كثير وهاته الدولة تعرف بدولة الشيعة ، والشيعة لغة : الصحب والاتباع ، وفى عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف تطلق على أتباع على وبنيه رضى الله عنهم وهم طوائف فمنهم الضال ومنهم العاصى ، وكان عبيد الله هذا رجل الدنيا دهاء وعقلا مهيباً ولما استقل بالامارة سنة ٢٩٧ واستقام له الحال بعد تمهيد الامور وتفقد العمال غزا صقلية واسكندرية ومصر وساعده المقدور وأسس مدينة المهدية فى جزيرة جمة وحصنها وانتقل اليها سنة ٣٠٨ وثار عليه مخلد بن كيداد الاباضى واستولى على غالب افريقية وتوفى فى ريعان الثورة سنة ٣١٣ وبويع لابنه أبى القاسم محمد وكان ذا نجدة وبأس وبعث مولاه كاتبه جوهراً باسطول عظيم فى جيوش كثيرة لأرض الروم وفتح مدناً وحصوناً منهاجنوة ومهد النواحى وقمع الثوار ومنهم مخلد المذكور وكان داعياً الى الحق آخذاً بالحسبة منكراً مذهب الشيعة مظهراً اقامة السنة وبذلك استمال الخاص والجمهور وقاد الامور بتجنيد الجنود لقتال الشيعة والى الهزائم على أبى القاسم المذكور حتى استعان بزيرى

ملك صنهاجة ومات أبو القاسم على حصار سوسة سنة ٣٣٤ و بويع لابنه المنصور أبي الطاهر اسماعيل بعهد من أبيه وكان فصيح اللسان بليغاً وتوالت الحروب بينه و بين مخلد المذكور الى أن ظفر به سنة ٣٣٦ وصلب جلده محشواً قطناً على باب المهدية و بعث بأسطوله لغزو الفرنج فأتيح له فتح لا كفاء له و ذلك سنة ٣٤٠ وتوفى فى السنة بعدها وهو أول من استعمل بنى أبى الحسن على مملكة صقلية واتصلت بها أيامهم وفى المدارك اتفق شيوخ القيروان على الخروج على ملوك الشيعة بنى عبيد وقتالهم منهم السبأى والخراط وأبو العرب والمميسى والقطان ومروان العابد و بعد الاتفاق والقاء الخطب المحرضة على ذلك قصدوا المهدية فى جند عظيم و بعد قتال شديد كانت الهزيمة عليهم واستشهد الكثير منهم[1] فمن العلماء والعباد خمس وثمانون منهم ربيع القطان والمميسى . انتهى . وحاصل القول ان هذا الخارجى مخلد المذكور أوهم الناس انه منتصر للسنة وتبين بعد حروب و مصائب انه سىء السيرة خبيث السريرة ولما توفى المنصور بويع لابنه معد أبى تميم المعز وهو محل بيتهم وواسطة عقدهم فأحسن السيرة ودوخ البلاد وآمن المخالفين ورسخت قدمه وعظم سلطانه ووجه وزيره جوهراً للغرب الاقصى فمهد أحواله فى أخبار شهيرة وكان له نصر وفتح فى صقلية سنة ٣٤٥ ثم وجه وزيره جوهر المذكور لمصر فى عساكر تفوق الحصر سنة ٣٥٨ وخرج لتوديعه بنفسه ودخل جوهر مصر فى شعبان من السنة وشرع فى بناء القاهرة وأسس الازهر ثم وجه عسكراً استولى على الشام والحجاز واستحث جوهر سيده المعز على القدوم فأجابه لذلك ورحل فى ربيع الانور سنة ٣٦٢ بأمواله وأهله وذخائره وجنوده فى احتفال لم يسمع بمثله وصاحبه فى رحلته الشاعر المشهور أبو القاسم محمد بن هانىء الاندلسى ومات فى الطريق واستخلف على المملكة أبا الفتوح بلكين وسماه يوسف بن زيرى الصنهاجى ولما دخل المعز الاسكندرية تلقاه فقهاؤها وأعيانها بالاجلال ثم دخل مصر فى شعبان من السنة واستقر بها قراره وصار له ملك الشرق والمغرب من سوس الاقصى ومضيق سبتة الى مكة المشرفة ولم يزل عالى الكعب آمن السرب الى أن توفى سنة ٣٦٥ ومدة ملك الشيعة بالمغرب اثنان وستون سنة

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء فضل بن مسلمة وسعدون الخولانى وربيع القطان وأبو العرب تميم والابيانى وابن اللباد والكانيشى والمميسى

---

(١) قوله واستشهد الكثير ، هذه الواقعة كانت بوادى المالح القريب من قرية تعرف بطيلبة وبقربها على ساحل البحر مقبرة عتيقة تعرف بالفاضلين مقصودة بالزيارة من أهالى على المهدى والمستير الى هذا العهد والمظنون انها مقبرة الشهداء المذكورين والمراد بالفاضلين الفاضلون

الطبقة الثامنة

لما رحل المعز استخلف على المغرب بُلُكين يقال له يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى ويوسف هذا أسس مدائن بالمغرب الاوسط منها مليانة والجزائر وقام بأمر النيابة أحسن قيام ورتب العمال وكان حسن السيرة جميل الخصال مع صيت طائر وكفاءة معروفة وقصد المغرب بجيوش جرارة واستولى على فاس وسجلماسة وغيرها وشتت جموع زناتة واتسع نطاق ملكه ولم يزل على طاعة مستخلفه الى أن توفى سنة ٣٧٣ وبويع لابنه أبى الفتوح منصور بن يوسف وكان جواداً كريماً شجاعا صارماً وكانت أيامه حسنة والظفر حليفه وكانت بينه وبين أعمامه حروب وتوفى سنة ٣٨٦ وبويع لابنه أبى مناد باديس بن منصور وكانت له حروب مع عمه حماد وغيره كان النصر فيها لباديس وعقب انتصاره مات باديس فجأة فى ذى القعدة سنة ٤٠٦ وأسس حماد المذكور دولة فى المغرب الاوسط قاعدتها قلعة حماد وصارت لبنيه ومن يومئذ انقسمت الدولة وطرقها الخلل وهؤلاء الامراء الذين هم فى الحقيقة عمال لبنى عبيد بلغوا درجة الملوك فى الضخامة وبعد الصيت والسلطان . ولأبى اسحاق ابراهيم بن قاسم المعروف بابن الرقيق القيروانى تأليف فى أخبار باديس وأبيه وجده وكان بين باديس وأبى محفوظ محرز بن خلف تراسل وكذلك بينه وبين ابنه المعز الآتى ذكر بعضها فى خاتمة الخاتمة الآتى ذكرها

تنبيه

قد علمت مما تقدم ما كان عليه ملوك بنى الاغلب ومن قبلهم من المحافظة على الدين وعلى ما وقع فتحه والاشتغال بجمع العساكر والفتوحات وتمهيد الراحة وجاء بعدهم الفاطميون بنو عبيد وكان اشتغالهم بالحروب وبث الدعوة فى الافكار والزيادة فى المملكة وعمالهم ملوك صنهاجة مثلهم . وقانون الملك الاسلامى هو القرآن العظيم وأقوال رسوله الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وكان لهم وللمعز الآتى ذكره الى آخر دولته الثقات واهتمام بأهل العلم والادباء بالصلات المتوالية ومجالستهم مع التعظيم والاجلال والتكريم ومكاتبتهم ، فقد كان باديس يكاتب أبا محفوظ محرز وكذلك ابنه المعز وكان يبعث المال والكتب للعلماء وقد سبقت الاشارة الى ذلك فى ترجمة أبى بكر عتيق السوسى ، وفى مدتهم كان سوق العلم نافقاً بالغاً الغاية والعلماء الفحول والادباء والحكماء والمهندسون كثيرون جداً ، كان أبو الطيب ابن بنت خلدون من علماء الحساب والهندسة دبر سوق خليج من ساحل البحر الى القيروان والحكاية مشروحة فى المقصد عند التعرض لترجمته ، وكان للعلماء يد واعانة فى سياسة الملك من ذلك أمرهم

بالمعروف ونهيهم عن المنكر على نحو ما جاء به الشرع العزيز، ولذا كان الملوك يلاقون من شدة العلماء عليهم ما يتجرعون مرارته كسحنون وسعدون الخولانى وربيع القطان وأبى محفوظ محرز بن خلف. وسترى قريباً الخبر عن القيروان بما فيه عبرة لذوى الفضل والشان

فصل

قد علمت مما تقدم أن الاندلس استولى عليه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ويقال له عبد الرحمن الداخل وصار وراثة فى بنيه وبقى الكلام على ما آل اليه أمرهم فنقول: ان فى أيامهم استفحلت الاندلس واستبحرت بالعلوم والمعارف والصنائع مع عمران باهر وحضارة وتمدن زاهر. فى خلاصة تاريخ العرب: نصح عبد الرحمن المذكور ولده الحكم قبل وفاته بقوله: يا بنىّ، ان الممالك ملك الله وهو يؤتيها من يشاء وينزعها ممن يشاء كما يختار وحيث أنه قد أجلسنا على سرير سلطنة اسبانيا فلنشكره جزيل الشكر الابدى ولنصنع الخير بخلقه لنكون عاملين طبق اوامره المقدسة، فان الله تعالى لم يجعل فينا الشوكة العظمى الا لنفعل الخير بعباده، فلتجعل عدالك مستقيما بين الغنى والفقير، وعامل جنودك برفق وبر وأمرهم بالحماية على البلاد وانههم عن الظلم والجور بين العباد. وحام عن الفلاحين الذين نقتات من نتائج أشغالهم واستلفت نظارك نحو مزارعهم ومحصولاتهم حتى تكون الرعية سعيدة الحال فى ظل سلطانك ولتتمتع الرعية فى الأمن بخيرات الحياة ونعيمها. انتهى. ثم قال ما ملخصه: من ملوك الاموية عبد الرحمن الثالث أدخل فى السياسة علوم بغداد واجتهد فى تقديم العلوم والفنون، وجمل قرطبة ومدائن الاندلس بالمبانى الفاخرة، وبنى قرب قرطبة لجاريته زهراء قصراً وصفته التواريخ العربية بما لا يتصوره الذهن، وكان عصره أزهر عصر خلفاء الاموية، وبالجملة كان حائزاً للنصر الحربى والعلم الفائق والمال الوافر والزينة وجميع أسباب الاشتهار الدنيوى، ولما مات وجد فى بعض أوراقه ما نصه: انه قد مضت مدة خمسين سنة منذ توليت الخلافة وتمتعت بعلو الشان وكثير من خزائن الاموال والملاذ والحظوظ حتى أنفذت كل ما ظفرت به منها، وان الملوك المقارنين لى فى عصرى يعتبروننى ويخشوننى ويغبطوننى وجميع ما تشتهيه الرجال قد أنعم الله به على من فضله وقد أحصيت مدة خلافتى التى ظننتنى فيها سعيداً فرأيتها أربعة عشر يوما فيا أيها الناس قدروا بعقولكم ما قيمة عظمة الملك عند الملوك والدنيا والحياة انتهى. قلت: عبد الرحمن هذا هو عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ولى الملك سنة ٣٠٠ وتوفى سنة ٣٥٦ واتسع الملك بالاندلس فى موته ومن اتساعه أنه بنى تجاه قرطبة مدينة

جامع الزهراء لكنها هي من عجائب الدنيا دالة على قدر بانيها وأنفق فيها من الاموال خمسة وسبعين مائة الف دينار وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر الف فتى وسبعمائة وخمسين فتى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر الف رطل غير أنواع الطير والحوت ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وثمانون والمرتب على الخبز لحيتان بحيرة الزهراء اثنا عشر الف خبزة وأما أوصاف هاته المدينة فأنها طويلة . ومن أغرب ما يحكى عن الناصر أنه أراد الفصد يوماً فقعد فى البهو الكبير واستدعى الطبيب لذلك فأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر فبينما هو كذلك اذ اطل زوزور فصعد على إناء من ذهب وأنشد ذلك الزرزور :

أيها الفاصد رفقاً بأمير المؤمنين انما تفصد عرقا فيه محيا العالمين

وجعل يكرر ذلك المرة بعد المرة فاستظرف الناصر ذلك وسر به غاية السرور ووهب لمعلم الزرزور ثلاثين الف دينار . ولما أتم بناء الزهراء وبها قبة لجلوسه مزخرفة صنع طعاماً دعا اليه العلماء وجلس فى تلك القبة فلما حضر العلماء ومعهم القاضي منذر بن سعيد البلوطي فلما رأى تلك القبة أنكر عليه ذلك الصنيع فأثر عليه انكاره فقال له جزاك الله يا قاضى عنا وعن نفسك خيراً وعن الدين والمسلمين أجل جزائه وكثر فى الناس أمثالك . وأمر بنقض سقف القبة الذى طلوه بالذهب وأعادها على صفة ليس بها ما ينكر عليه فيه . ومن أخباره أنه أغضب جاريته طروف فهجرته وكان يحبها ، فأرسل اليه يترضاها فأبت وأغلقت باب مجلسها فامرهم بسد الباب عليها من خارجه ففعلوا وبنوا عليها بالبدر[1] . فاقبل حتى وقف بالباب وكلمها مسترضياً راغباً فى المراجعة على أن لها جميع ما سد به الباب من البدر فأجابت وفتحت الباب فانهالت البدر بينها فأكبت على رجله تقبلها وحازت المال وكانت تبرم الامور فلا يرد شيئاً تبرمه ، وكانت له غزوات كثيرة شهيرة . وقد ذكر أبو العباس أحمد بن عبد ربه فى العقد الفريد اثنين وعشرين غزوة من غزواته ونظم كل غزوة منها فى منظومة من الرجز ، وكان معاصراً له وبذلك طارصيته وانتشر ذكره واطاعته بنو إدريس امراء العدوة وملوك زناتة والبربر حتى صار ملكه غاية فى الضخامة وعلو الشان . ولما توفى بويع لابنه الحكم المستنصر بالله فقام بأعباء الملك خير قيام وكان عالماً نبيلا أقام للعلم والعلماء سوقا نافقاً واجتمع عنده من خزائن الكتب مالم يجمعه أحد من الملوك قبله . فى غرائب الغرب لأبي عبد الله محمد كرد على : كان للاندلسيين غرام بتسبيل الكتب على المطالعة ولهم خزائن كتب عامة وخاصة وكانت قرطبة أكثر بلاد الاندلس كتباً وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب صار ذلك عندهم من آلات التعين والرياسة فلا يكاد يخلو دار من خزانة فيها كتب قيمة وقد أنشأ الحكم الثانى عدة مكاتب للمطالعين فكان يرسل وكلاءه الى المشرق يستنسخون الاسفار فما هو الا أن

(١) قوله بالبدر جمع بدرة وهى الكمية العظيمة من المال

يؤلف المؤلف تصنيفه حتى تستنسخ منه نسخ أو نسخة لتحمل الى خليفة الاندلس ولا يفوت بلاده شيء من حركة العقول ، وكانت داركتبه تحتوى على أربعمائة الف مجلد جاء فهرسها فى أربعة وأربعين مجلداً ولطالما أجزل ملوك الاندلس الصلات لبعض مؤلفى الشرق والاندلس حتى يذكروا فى مقدمتها أنهم ألفوها برسم خزائنهم ، ومن المؤلفين من كانوا يرضون بذلك ومنهم من لا يرضون به يقصدون أن يكون لمن يستفيد منه . وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء والادباء في الاندلس مجامع علمية وأدبية أشبه بالمجامع أو الاكاديميات فى هذا العصر وذلك لنشر العلم والمعارف ومفاوضة الحكمة بينهم فنتج من اجتماعهم فوائد مهمة للعلم والمدنية وكان المظفر بن الافطس صاحب بطليوس من أعلم الملوك بالادب وله التصنيف المترجم بالتذكرة والمشتهر بالكتاب المظفرى فى خمسين مجلداً فى الفنون والعلوم واستأدب لبنيه أبا عبد الله ابن يونس وكان يحضره وأبا الحزم بن عليم وأمثالهما للمذاكرة والمباحثة فيفيد ويستفيد وكان لابى عامر أمير الأندلس فى دولة هشام المؤيد مجلس معروف فى الاسبوع يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته وقد أنشأ الحكم مجمعاً وقلده غيره من أمراء الاندلس فأنشأوا مجامع لهم وأنشأ أحمد بن سعيد النصرى مجمعاً فى طليطلة فكان يجتمع عنده أربعون عالماً من طليطلة وما جاورها ثلاثة أشهر فى السنة ، يعقدون اجتماعاتهم فى ردهة[1] فرشت أحسن فرش يبدءون عملهم بقراءة آيات من الكتاب العزيز ثم يتذاكرون فى تفسير ما قرأوا ويأخذ بهم الاستطراد الى البحث فى فنون شتى فى العلم والحكمة اه وقال ابن حزم عدد الفهرسات التى فيها أسماء بعض الكتب اربع وأربعون فهرسة كل فهرسة ست وعشرون ورقة ليس فيها الا أسماء الدواوين وأما غير الدواوين من سائر فنون العلوم فشيء كثير قيل ان كتبه كانت أربعمائة الف مجلد قلما يوجد كتاب منها إلا وله فيه قراءة ونظر ومكتوب على هوامشه خطه . ولما ألف أبو الفرج الاصبهانى كتابه الاغانى بعث للحكم نسخة فاجازه بألف دينار وقد تقدم فى ترجمة المعيطى وابن المكوى أن الحكم هذا كلفهما بتأليف الاستيعاب فألفاه وأجازها على ذلك جائزة سنية وكانت مدة ولايته ستة عشر سنة وبويع لابنه هشام المؤيد وعمره تسع سنين واستوزر محمد بن أبى عامر الملقب بالمنصور المعافرى ومعافر بطن من حمير وباشر هذا الوزير تدبير الملك بنفسه وكان ذا عقل ورأى وشجاعة وكرم وبصيرة بالحروب ودين متين وكان عالما متفننا وله غير ذلك من الصفات الحميدة وسيرته مشهورة فى التواريخ ومفردة بالتأليف واستمر على سيرته سبعا وعشرين سنة وذكر فى نفح الطيب كثيراً من غزواته وأخباره فى الكرم والعفو والحلم وحسن الخلق ثم قال وأخبار المنصور تشمل مجلدات وتوف

(١) قوله ردهة الردهة النقرة فى الجبل أو فى الصخر يجتمع فيها ماء السماء والبيت الذى لا أعظم منه وأوسع محل فى البيت

في صفر سنة ٣٩٢ فقام بأمر الوزارة بعده ابناه فاولا عبد الملك فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو وكانت أيامه أعيادا دامت سبع سنين ثم قام بالامر بعده الابن الآخر عبد الرحمن وجرى على سنن أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام والاستبداد عليه ثم طلب من هشام أن يجعله ولى عهده فأجابه لذلك لتغلبه عليه وأحضر لذلك أرباب الشورى وأهل الحل والعقد وكتب عهده بذلك ثم سعى كثير من الامويين وغيرهم في نقضه وأثاروا لذلك فتنة الى أن قتلوا عبد الرحمن المذكور سنة ٣٩٩ ثم خلعوا الخليفة هشاما وبايعوا غيره ثم أعيد هشام ثم فقد سنة ٤٠٣ وثارت بسبب ذلك فتن كثيرة يطول ذكرها آل الامر فيها الى زوال ملكهم وافتراق كلمتهم وكل يوم يخلعون خليفة ويبايعون آخر الى أن انقضت الدولة الاموية من الارض سنة ٤٢٨ وانتثر سلك الخلافة بالمغرب وقام الطوائف بعد انقراض الخلائف متغلبين في كل ناحية ملك مستقل وتغلب بعضهم على بعض ولا حاجة بنا الى ذكر أسمائهم ومن أشهرهم بنو عباد ملوك أشبيلية الذين منهم المعتمد بن عباد وعند ذلك استفحل أمر النصارى بالاندلس وجرت بعد ذلك أمور ستقف على بعضها ان شاء الله وهى مبسوطة فى نفح الطيب وغيره . قال ولى الدين بن خلدون ان دولة بنى أمية بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك الطوائف على أمورها واقتسموا خطتها وتنافسوا وتوزعوا ممالك الدولة كل واحد منهم على مكان فى ولايته وشمخ بأنفه وبلغهم شأن ملك العجم من الدولة العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا شارته لاستيلاء الترف عليهم ولذلك يشير ابن رشيق فى قوله:

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتصم فيها ومعتضد
ألقاب سلطنة فى غير مملكة ... كالهر يحكى انتفاخا صورة الاسد

تذنيب

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن أبى زيد والقابسى والخشنى وابن التبان وابن مسرور وميسرة والجبنيانى ومحرز بن خلف

الطبقة التاسعة

لما توفى باديس بويع لابنه المعز بالمهدية وعمره ثمانى حجج وذلك فى ذى الحجة سنة ٤٠٦ وباشرت جدته أمور الدولة الى أن توفيت وسنذكر خبرها فى الخاتمة . والمعز هذا هو واسطة عقد ملوك بنى زيرى توفرت فى أيامه أسباب العز والثروة والعمران وكان حسن السيرة محمود الآثار أديبا مجتنبا سفك الدماء الا فى حق . حديد الذهن . له معرفة بكثير من الصنائع

وله شعر جيد محباً للعلماء معظا لأرباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل . ومن شعراء دولته ابن شرف وابن رشيق . هاداه ملوك السودان والروم واستقامت أموره وكانت بافريقية مذاهب الشيعة والصفرية والاباضية والنكارية والمعتزلة وكانت بها من مذاهب أهل السنة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك فظهر له حمل الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ماعداه حسما لمادة الخلاف بالمذاهب واستمر بذلك الحال الى احتلال العساكر العثمانية افريقية وسنذكره في محله ان شاء الله . وفي أيامه اشتدت شوكة زناتة وكانت له معهم حروب ثم ان المعز قطع العلائق مع دولة بني عبيد بمصر ودعا وخطب باسم دولة بني العباس ولذلك أضمر بنو عبيد الشر والانتقام منه فوجهوا في سنة ٤٤١ قبائل من عرب الصعيد كبني هلال وبني سليم وغيرهم معروفين بالطيش وشدة البطش للتشفي من المعز وافريقية وانتشروا كالجراد ودخلوا افريقية وعثوا فيها بالبغي والفساد وأذاقوا أهلها لباس الجوع والخوف بما لم يعهد . قال ابن خلدون : وصارت خراباً كلها بعد أن كانت مابين السودان والبحر الرومي كلها عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدائن وقال البكري : كان بالقيروان ثمانية وأربعون حماما وأحصى ماذبح بالقيروان في بعض أيام عاشوراء خاصة فانتهى تسعمائة وخمسين رأساً من البقر وجباية سواحل القيروان سوسة والمهدية وصفاقس وتونس لبيت المال خاصة غير الدخل والخرج الذي لغير بيت المال ثمانون ألف مثقال من الذهب وفي سنة ٤٥٢ سبيت القيروان وأخليت ولم يبق فيها الا ضعفاء أهلها . انتهى . وقال ابن عذاري : كانت القيروان من أعظم مدن المغرب طرا وأكثرها بشراً وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالا وكان الغالب على أهلها التمسك بالخير والتخلي عن الشبهات واجتناب المحرمات الى أن توالت الجوائح عليها بدخول العرب لها على ما يأتي ذكره فلم يبق فيها الا أطلال دارسة وآثار طامسة ، وقال : تولى المعز وهو ابن سبع أو ثمان سنين وتربى في حجر وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال وكان عالماً ورعاً زاهداً وكانت افريقية أكثرها على مذهب الشيعة وخلاف السنة والجماعة فحرض ابن أبي الرجال المعز وأدبه وأدله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة والشيعة لايعلمون ذلك ولا أهل القيروان فخرج المعز في بعض الأعياد الى المصلى وهو في زينته وحشوده وهو غلام فكبا به فرسه فقال عند ذلك أبو بكر وعمر فسمعته الشيعة التي كانت بعسكره فبادروا اليه ليقتلوه فجاءه عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضعوا السيف في الشيعة . قال أبو الصلت فصاح بهم في ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا في سائر بلاد افريقية ولم يزل المعز يعمل فكره في قطع دعوتهم وفي سنة ٤٤٠ قطع المعز الخطبة لصاحب مصر . قال ابن شرف : أمر المعز بأن يدعى على منابر افريقية للعباس بن عبد المطلب وتقطع دعوة العبيديين وأمر بلعنهم في الخطب وسبهم بأشنع

السب وأمر بتبديل السكة على أسماء بنى عبيد فنقش الوجه الواحد : « ومن يتبع غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وفى الوجه الآخر : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وأمر بسبك ما كان عنده من الدنانير التى عليها أسماء بنى عبيد وكانت أموالا عظيمة ثم بعث فى الناس من قطع سكتهم وزوال أسمائهم من جميع الدنانير والدراهم وغيرها وتم الأمر بذلك سنة ٤٤١ ولما آل الأمر الى التصريح بلعنة بنى عبيد على المنابر وأمر المعز بقتل أشياعهم أباح بنو عبيد للعرب بمجاز النيل وكان قبل ذلك ممنوعا لايجوزه أحد من العرب ثم أمر لكل جائز منهم بدينار فجاز منهم خلق عظيم من غير أن يأمرهم بشىء لعلمه أنهم لايحتاجون لوصية فجازوا أفواجا ووصلوا افريقية وكان وصولهم الداهية العظمى والمصيبة الكبرى وبعد حروب وأهوال فى أخبار طوال فر المعز بما خف الى المهدية . انتهى ابن عذارى . وقال ابن خلدون : ان ملوك صنهاجة فسدت طباعهم أواسط المائة الخامسة واستمرت لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية حتى تأذن الله بانقراضهم وجاء الموحدون بقوة قوية من المصامدة فمحوا آثارهم انتهى

وفى المعجب كانت القيروان دار ملك المسلمين بافريقية منذ الفتح لم يزل الخلفاء من بنى امية وبنى العباس يولون عليهم الامراء من قبلهم الى أن اضطرب أمر بنى العباس واستبد الاغالبة بملك افريقية بعض الاستبداد فاتخذوا القيروان دار ملكهم فلم يزالوا بها الى أن أخرجهم عنها بنو عبيد وملوكها ثم ولوا عليها حين ارتحلوا زيرى بن مناد الصنهاجى فلم يزل زيرى وبنوه ملوكا عليها الى أن كان آخرهم تميم بن المعز فانتهبتها الأعراب وخربتها وكانت منذ الفتح الى أن خربت دار العلم بالمغرب اليها ينسب أكابر علمائه واليها كانت رحلة أهله فى طلب العلم وقد ألف الناس فى أخبار القيروان ومناقبه وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبى محمد بن عبيد وكتاب ابن زيادة الله الطبنى فلما استولى عليها الخراب تفرق أهلها فى كل ناحية كمصر وصقلية والاندلس ومنهم طائفة عظيمة قصدت المغرب ونزلوا مدينة فاس اه باختصار . وفيه كانت العمارة متصلة من مدينة الاسكندرية الى مدينة القيروان تمشى فيها القوافل ليلا ونهاراً وكان فيما بين الاسكندرية وطرابلس الغرب حصون متقاربة جداً فاذا ظهر فى البحر عدو نوّر كل حصن للحصن الذى يليه واتصل التنوير فينتهى خبر العدو من طرابلس الى الاسكندرية والعكس فى ثلاث ساعات أو أربع من الليل فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوهم ولم يزل هذا معروفا الى أن خربت الاعراب تلك الحصون ونفت عنها أهلها أيام خلى بنو عبيد بينهم وبين الطريق للمغرب وذلك فى حدود سنة ٤٤٠ حين تغير ما بينهم وبين المعز الصنهاجى وقطع الدعاء لهم على المنابر ودعا لبنى العباس . اه . معجب والحاصل أن مقدار ما وصلت اليه القيروان فى أوائل ملوك بنى زيرى ومن قبلهم فوق ما يذكر من الحضارة والتمدن والبهجة والعمران والاستبحار فى العلوم

و الصنائع و التجارة و الفلاحة و كثرة الادباء و الشعراء و الاطباء و المهندسين فما بالك بغيرهم من الفقهاء و المحدثين من علماء الدين ثم كانت على القيروان الطامة الكبرى التى صيرتها خرابا بهؤلاء الاعراب و انحدرت فى تيار الانحطاط السريع و انتقل كرسى ملكها البديع الى المهدية و تقلص ظل الدولة الصنهاجية المؤذن بالفناء و الملك لله الواحد القهار الذى لا يزول ملكه و لا يفنى و صارت مرسح الفتن و مسرح الاحن خالية عن السكان فضلا على العلماء و آخر علمائها على هذا العهد السيورى و التونسى . و لهاته الاسباب خرج غالب من فى البلد و منهم المعز و نجا بنفسه للمهدية بعد مشاق و عاملها يومئذ ابنه تميم فتلقاه بالمبرة و التكريم و بقى بها الى أن توفى سنة ٤٥٤ و دفن برباط المنستير و فى معالم الايمان لم يبق بالقيروان بعد المائة الخامسة من له اعتناء بالتاريخ و غيره لتخريبها على يد المفسدين الاعراب و بقيت على ذلك الى ظهور دولة الموحدين انتهى . قلت و رغما عما حل بها من النوائب فلم يزل بها من المشاهد و المعالم الاسلامية الخالدة الى هذا العهد مما لا يوجد بغيرها من بقية مدن أفريقية كجامع سيدنا عقبة العتيق و منبره البديع الشكل و الصنع الوثيق و هذه المعاهد اكسبت شهرة مطبقة بالعالم الاروباوى و بعد الصيت و جميل الذكر فى العالم الاسلامى و لم نجد شيئا يبقى خالداً الا الذكر حسناً كان أو قبيحا

فلا شىء يدوم فكن حديثاً جميل الذكر فالدنيا حديث

فى روح المعانى عند قوله جل ذكره « و انه لذكر لك و لقومك و سوف تسألون » : الآية تدل على أن الانسان يرغب فى الثناء الحسن و الذكر الجميل إذ لو لم يكن مرغوباً فيه ما امتن الله به على رسوله ﷺ و الذكر قام مقام الحياة و لذا قيل ذكر الفتى عمره الثانى قال ابن دريد :

و انما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

و يحكى أن الطاغية هلاكو سأل أصحابه من الملك فقالوا له أنت الذى دوّخت البلاد و ملكت الارض و أطاعتك الملوك و كان المؤذن إذ ذاك يؤذن فقال الملك هو الذى له أزيد من ستمائة سنة قد مات و هو يذكر على المآذن فى كل يوم و ليلة خمس مرات يريد محمداً ﷺ

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء البرادعى و ابن الضابط و اللبيدى و أبو عمران الفاسى و أبو بكر بن عبد الرحمن و التونسى و ابن يونس و ابن العطار

الطبقة العاشرة

لما توفى المعز بويع لابنه ابى يحيى تميم واشتغل بما بقى من المملكة وضبطه أحسن ضبط وكان شاعراً وشعره رائق مدون وأبو على بن رشيق كان من ندمائه وله فيه قصائد طنانة وكان أعلم بنى مناد وأعفاهم عن الأمور العظام وكان حسن السيرة محمود الآثار محباً للعلماء معظما لارباب الفضائل حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج السيورى ونظرائه يجيز الجوائز ويعطى العطاء الوافر فضائله كثيرة وله أخبار ووقائع عجيبة مع الثائرين وفى أيامه توالت على سوسة أمراء من العرب وملوكها حين استولوا على البلاد وانتزعوها من يد صنهاجة واستقرت أخيراً تحت ملك جباره بن كامل بن سرحان بن أبى العيس البعيد الصيت المشتهر بالجود ومن يده أخذها النصارى حين أخذوا المهدية من يد الحسن الآتى ذكره واستولوا على بلاد الساحل ولما وصل عبد المؤمن استنقذها من يد النصارى وسنأتى على شرح ذلك قريباً وللشعراء فى مدح جبارة قصائد طنانة منها قصيدة التراب السوسى فى رحلة التيجانى قد أولع أعراب زماننا بانشادها وكثرة تردادها ولاجل ذلك ذكرناها بكمالها وان كان فيها بعض طول لان الحسن غير مملول وهى نحو المائة والعشرين بيتاً، أولها :

سلم على ذى سلم مضنى الهوى المستغنم
وقف بها مسائلا عن ساكن والخيم
واستمطر العين بها صوب دموع ودم

وفى أيام تميم هذا استولى العدو على صقلية سنة ٤٨٤ ثم استولى على المهدية ثم خرج منها بعد عقد صلح وبقى على ذلك الحال وأموره معتلة الى أن توفى سنة ٥٠١ بالمهدية ونقل لرباط المنستير (واعلم) انه قد علم مما تقدم فى مواضع على وجه الاستطراد فتح صقلية وذكر بعض المآثر الحسنة التى خلدها الاسلام بها وزيادة على ما تقدم ذكره نذكر لك هنا بعض أخبارها على نسق باختصار كثير مما هو مبسوط فى التواريخ فنقول ان أول من غزا صقلية معاوية بن حديج ولم تزل تغزى الى أيام زيادة الله ابراهيم بن الاغلب وفيها حصل الاستيلاء على جانب عظيم منها وصارت مملكة تابعة لملوك افريقية وتتابع الغزو اليها والى غيرها بعد ذلك حتى اتسع نطاق المملكة وأمراؤها عمال لملوك افريقية يتولون الامارة بعيد منهم واستمرت على ذلك المنوال أميراً بعد أمير ولا حاجة لذكر أسمائهم لانه يؤدى الى التطويل وفى سنة ٣٣٦ صار الوالى عليها الحسن بن على بن أبى الحسين ثم صارت ميراثاً فى عقبه الى أن تفرقت صقلية الى ممالك وصارت كل مملكة بيد ملك متغلب عليها مستبد لا يسأل عن غيره فصار الفرنج ينتزعون تلك الممالك منهم مملكة بعد مملكة حتى كان استخلاص العدو لها تماما سنة ٤٨٤ بعد أن بقيت

بيد المسلمين مائتين ونيفا وسبعين سنة والذى تغلب عليه الملك رجار وكان عديم النظير فى أبناء جنسه صاحب حزم ودهاء وسياسة ولما تم تملك صقلية تتابعت غاراتهم على افريقية فملكوا الجزائر ومالطة وجربه وطرابلس وقابس وسوسة وصفاقس والمهدية وكانت هاته الوقائع متتابعة فى سنين وكان انتهاؤها سنة ٥٤٣ كما ستعلم مما يأتى ذكره . وصقلية فى أيام الاسلام رحل اليها الكثير من وجوه الناس قضاة وفقهاء ومحدثين وغيرهم من الخاصة فضلا عن العامة لرخاء أسعارها وأمن سبلها وعدل سلطانها وظهر منها الكثير من فحول العلماء والفقهاء والمحدثين والشعراء ترجمنا لبعضهم فى المقصد والحاصل انها فى مدتهم بلغت غاية فى الحضارة وعلو الشأن وتبحر العمران وبها كثير من المساجد وقد وصف ابن جبير فى رحلته بعض مدنها وما شاهده من حالها وحال المسلمين بها بعد احتلال العدو لها حالة تبكى العيون دماً وتذيب القلوب ألماً (قلت) وفى هذا العهد لم يبق بها أثر الاسلام وعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقيس

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء السيورى وعبد الحق الصقلى والشقراطسى واللخمى وعبد الحميد الصائغ

الطبقة الحادية عشر

لما توفى تميم بن المعز بويع لابنه يحيى وكان ذا رياسة وسياسة قمع الثوار ومهد النواحى وغزا باسطوله الروم حتى وقع صلح على شروطه وكان رحيما بالضعفاء مطالعاً لكتب السير وأخبار الزمان عارفا بالنجوم والطب وينظم الشعر الجيد ويجيز عليه ومن شعرائه وجلسائه العلامة الأديب المؤرخ الاريب أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الآتى ذكره فى الخاتمة وكان له شعر رائق ونثر فائق ويأتى خبره وخبر بعض ملوك صنهاجة فى الخاتمة . وفى أيام هذا الامير دخل محمد ابن تومرت مؤسس الدولة الموحدية المهدية وأظهر تغيير المنكر ودرس علم التوحيد وكان أوحد عصره فيه ثم رحل للمنستير ثم بجاية ومذهبه تغيير المنكر . قال ابن خلكان وقيل كان دخوله المهدية فى ايام تميم وفى المؤنس كان دخوله المهدية فى أيام أبى الحسن على وتقدم بعض خبره بما يفيد انه دخل المهدية مرتين حين ذهب للمشرق وحين رجع منه انظر ترجمة أبى بكر بن العربى فى الطبقة الحادية عشر من المقصد وتوفى الامير يحيى فى ذى الحجة سنه ٥٠٩ وخلف من البنين ثلاثين ومن البنات عشرين ودفن بقصره على ماجرت به العادة ثم نقل للمنستير

ولاية ابنه أبى الحسن على بن يحيى ۞ تم له الامر بعد أبيه باتفاق من جنده واستقام أمره وكان جواداً مفضالا لا يميل للراحة وكان من الاذكياء محباً للعلم والعلماء . وللقاضى أبى بكر اليابرى

مصنفان فى الاصول والفقه على مذهب مالك رد فيهما على ابن حزم أحدهما المدخل والآخر سيف الاسلام فى مذهب مالك الامام ألفه باسم الامير أبى الحسن المذكور فى المهدية سنة ٥١٣ ورحل لمكة وبها توفى . رحل اليه الزمخشرى من خوارزم للأخذ عنه وقدم لمكة وأخذ عنه وترجمة هذا العالم تقدمت فى الطبقة الحادية عشر من المقصد . ولابى الصلت المذكور منزلة جليلة عند هذا الامير وتوالت بين هذا الامير والاعراب فتن وحاله معهم مثل حال أبيه وجده وكثرت بينه وبين صاحب صقلية الوحشة وتوفى سنة ٥١٥ بالمهدية ونقل للمنستير

ولاية ابنه الحسن تم له الامر يوم وفاة والده وعمره اثنا عشر عاماً وهو آخر ملوك هاته الدولة ، وكانوا كلهم أهل نجدة وشجاعة واحسان ومعروف . وكان فصيحا عاقلا حازما لا يتزحزح لعظائم الامور ولا يتضعضع لنوائب الدهور شجاع القلب كريم النفس ينظم الشعر وفى سنة ٥١٧ قصد صاحب صقلية المهدية فى أسطول عظيم وجنود جرارة ولما وصل المهدية هاج البحر على هذا الاسطول فرمى أكثره والحق الضرر بالباقى فقتل المسلمون الكثير من رجاله وغنموا غنائم كثيرة وانعقد عقب ذلك صلح واستولى الطاغية على جربة وصفاقس وقرقنه وطرابلس . وفى سنة ٥٤٣ خرج بأسطول عظيم ودهم به المهدية على حين غفلة من أهلها فخرج الحسن منها بما خف ولجأ الناس من بلاء هذا الطاغية ما لم يكن له حساب ، ولما دخل المهدية وجدها خالية فاستولى عليها من غير تعب وقتال واستولى على ذخائر الحسن ،وأمن الناس وعمرها أحسن عمران ثم استولى على سوسة وصفاقس ودانت له البلاد ، وأما الحسن فانه بعد خبر طويل وصل للخليفة عبد المؤمن بن على مستجيراً به فأكرمه وأحسن منزله ، وأجاب مطالبه واستعد لذلك ثلاث سنين وتوجه لها بنفسه فى صفر سنة ٥٥٤ ، وبين يديه الحسن المذكور بعسكره الجرار وجيشه العرمرم يقال انه لما وصل باجة عرض العساكر فكانت الفرسان أزيد من مائة الف والرجال لا تحصى وهى تمر بالطريق الضيقة فى المزارع فلا يضرها شيء وعقد المحلة تمتد أميالا وكلهم يصلون الصلوات الخمس بامام واحد وتكبيرة واحدة ولا يتخلف أحد منهم عن الصلاة لانه كان يقتل من يتأخر منهم وكانت مقدمة هذا الجيش اثنا عشر الف مقاتل قد كانوا يحفر الآبار واستخراج المياه وتمهيد الطريق وتهيئة ذلك للجيش ولولا هذا التدبير لم يقدر على هاته الاسفار البعيدة بهاته الجيوش العظيمة فنازل تونس وأخذها صلحاً وكانت بيد أحمد بن خرسان واستخلف على تونس أبا محمد عبد السلام الكوفى ورتب معه أشياخا من الموحدين ثم رحل للمهدية والاسطول يحاذيه فى البحر فوصل اليها منتصف رجب وكان بالمهدية ملوك الفرنج وأبطال الفرسان فحاصرها بما انضاف اليه من أهل البلاد بما يخرج عن الاحصاء وفى مدة الحصار فتح طرابلس ونفوسة وقابس وثغور افريقية وما والاها وأقام فى حصارها ستة أشهر الى أن فتحها بكرة عاشوراء سنة ٥٥٥ ولذا يقال لها سنة الاخماس

ودانت له البلاد بالطاعة واستخلف عليها أبا عبد الله محمد الكوفى وجعل معه الحسن وأمره أن يقتدى برأيه وأقطع الحسن جانباً منها وارتحل ولبثت افريقية فى أمن ودعة واطمئنان بقية أيامه وصدراً من أيام بنيه ومدحه الشعراء على هذا الفتح منهم أبو محمد عبد الله بن أبى العباس التيفاشى بقصيدة أولها :

ما هزّ عطفيه بين البيض والاسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

ولما أنشدها بين يديه أشار اليه أن يقتصر على هذا البيت ولا يتم قراءة القصيدة وأمر له بألف دينار وقيل لم لم تسمع تمام القصيدة؟ فقال وما عساه أن يقول بعد هذا البيت أى لا يأتى بامدح منها وأخذ يجيزه كل يوم ألف دينار على قراءة هذا البيت الى أن بلغت أربعين ألفاً وكان عبد المؤمن هذا عاقلا حازما سديد الرأى حسن السياسة كثير البذل للاموال الا انه كان سفاكا للدماء على الذنب الصغير وكان يعظم أمر الدين ويلزم الناس فى كل بلاده بالصلاة وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين وكانت له معرفة بالشعر والادب يحكى عنه انه مرّ ببعض طرق مراكش ومعه وزيره أبو جعفر بن عطية فأطلت من شباك جارية بارعة الجمال

فقال عبد المؤمن : قدت فؤادى من الشباك اذ نظرت
فقال ابن عطيـة : حوراء ترنو الى العشاق بالمقـل
فقال عبد المؤمن : كأنما لحظها فى قلب عاشقها
فقال ابن عطيـة : سيف المؤيد عبد المؤمن بن على

وتوفى عبد المؤمن سنة ٥٥٨ وعمره ثمان وستون سنة ومدة ملكه ثلاث وثلاثون سنة وهو أول ملوك هاته الدولة ومدتها مع مبديهم مائة واثنان وخمسون سنة وكانت من أعظم الدول الاسلامية وكانوا يدعون على المنابر الى مهديهم محمد بن تومرت ويضربون اسمه على السكة ومن أصحاب ابن تومرت عمر بن يحيي الهنتاتى صار بعد المهدى من وزراء عبد المؤمن وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس فكانوا يسمون بالحفصيين وسنقص عليك خبرهم وابن تومرت هذا مضى لنا ذكره فى ترجمة أبى بكر بن العربى قال بعض العلماء انه أراد بقيامه اظهار الحق فاجتهد وأخطأ وقال بعضهم انه كان على الأمة شراً من الحجاج ويزيد وأخباره طويلة الذيل مذكورة فى التواريخ أما الأمير حسن الصنهاجى المذكور فانه أقام بالمهدية الى أن توفى عبد المؤمن وتولى بعده ابنه يوسف المتوفى سنة ٥٨٠ فاستقدم الحسن الى المغرب ومات بالطريق وهو آخر ملوك صنهاجة وبه انقطعت كواكب سعودهم وأجلت عن منازلهم الشموس والاقمار والملك لله الواحد القهار وهذه الدنيا لا يدوم نعيمها ولا ييأس سقيمها وبهذا جرت عادة الله فى خلقه انما الدهر دول بعد دول لا يسأل عما يفعل وهم يسألون كما جرت عادته فى بيوت

أهل الفضل والشرف والملوك وغيرهم(١) اذا تطاول عليها الزمان واعتمد الابناء على مابلغه الآباء

(١) قوله كما جرت عادة الله فى بيوت أهل الفضل الخ فى كتاب الفراسة للامام فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ مانصه: الباب الرابع فى مقتضيات سائر الاحوال فنقول أما أرباب النسب الشريف فانهم راغبون جداً فى الكرامة ويتشبهون بأوائلهم ومن القضايا الغالبة على الاوهام ان كل ما قدم فهو أكمل وأتم فلهذا السبب يكون التكبر والترفع والاستطالة والتيه على الناس غالباً عليهم وحبهم لهذه الاحوال والتشبه بأسلافهم فى مكارم الاخلاق قد يدعوهم للعمل الا ان هذه المعانى انما تبقى اذا كانت آثار أوائلهم باقية ثم انهم يتعطلون عن تلك الآثار الفاضلة فى آخر الأمر وذلك لانهم بسبب ذلك التيه والترفع لايتحملون متاعب التعليم وطلب الادب ولا يرغبون أيضاً فى تعلم الحرف والصناعات النافعة فى اصلاح مهمات المعيشة فلهذا السبب يبقون فى الآخرة معاتيه(١) مخاذيل عاجزين محتاجين. أما أخلاق الاغنياء فأمور (الأول) ان من عادتهم التسلط على الناس والاستخفاف بهم ويعتقدون فى أنفسهم كونهم فائزين بكل الخيرات لانهم لما ملكوا المال الذى هو سبب القدرة على تحصيل المرادات فكأنهم ملكوا كل الاشياء ولما اعتقدوا فى أنفسهم حصول هذا الكمال لاجرم انهم كانوا محبين للثناء الجميل راغبين فيه (الثانى) انهم يحكمون على كل من سواهم كونهم حاسدين لهم لانهم لما اعتقدوا فى أنفسهم الكمال والكمال محسود لزم أن يعتقدوا فى أنفسهم كونهم محسودين ولهذا جاء فى أمثال العرب « كل ذى نعمة محسود » . (الثالث) ان الذين كانوا أغنياء فى قديم الزمان هم أكثر نبلة وحذقاً وسماحة من الذين صاروا أغنياء ولهذا قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: « عليكم ببطون شبعت ثم جاعت واياكم وبطوناً جاعت ثم شبعت فان آثار اللؤم باقية فيها » والسبب فيه ان بسبب الفقر المتقدم يشتد حرصهم على امساك المال والشح به عند وجدانه فتعظم آثار اللؤم (الرابع) ان الاغنياء يكونون فى الاكثر مجاهرين بالظلم لاعتقادهم ان أموالهم تصونهم عن قدرة الغير على قهرهم ومنعهم (الخامس) ان المال سبب القوة فان كانت النفس خيرة فى أصل الجوهر صارت كثرة المال سبباً لمزيد القوة فى الخيرات وان كانت النفس شريرة فى أصل الجوهر صار المال سبباً لمزيد القوة فى الشرور. ولما كانت الشهوة والاخلاق الذميمة أغلب على الاناث منها على الذكور لاجرم جعل الله نصيبهن فى الميراث أقل من نصيب الذكور تقليلا للمفسدة وأما أصحاب السيادات الاتفاقية وهم المجدودون فمن أخلاقهم الاستمتاع باللذات وقلة المبالاة ويكونون محبين لله تعالى واثقين به معولين على التوكل لانهم اعتادوا الانتفاع بالجد دون الكد. اهـ

(١) معاتيه جمع معتوه

ولم يحصلوا على شرف من قبلهم فلا يلبث فيهم الاشتغال بالترف ونضارة العيش أن يهدم معالمهم التي بناها آباؤهم وغفلوا عن تجديدها والذود عنها

(واعلم) ان صنهاجة قبيلة من قبائل البربر والمصامدة قبيلة من قبائل البربر أيضاً ومنها عبد المؤمن بن علي . واختلف النسابون والمؤرخون في نسب البربر اختلافاً كثيراً وتقدم الكلام على ذلك

تنبيه

قد علمت ان العلم انقطع من القيروان بانقطاع العلماء منها وانتقال كرسي المملكة منها الى المهدية وظهر بها فحول من العلماء والادباء منهم ابن النحوي والامام المازري وأبو الصلت أمية ابن عبد العزيز وابن بشير وأبو محمد التيفاشي

الطبقة الثانية عشر

قد علمت ان افريقية آل أمرها الى الخليفة عبد المؤمن بن علي باني دولة الموحدين على يد المهدي محمد بن تومرت ومن القائمين بدعوة هذا المهدي أبو حفص عمر بن يحيي الهنتاني يرجع نسبه الى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وله القدم الراسخة في دولة عبد المؤمن والمواقف الشهيرة والمقامات الحميدة وتوفي سنة ٥٧٥ ولما آلت الخلافة الى يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن المتوفى سنة ٥٩٥ استوزر أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص المذكور وابنه الآخر أبو سعيد ولاه افريقية فدخلها واشتغل بتونس واستعمل أخاه أبا علي على المهدية ولم يتم له أمر وفي خلال تلك المدة وصل أبو زيد بن أبي حفص بن عبد المؤمن افريقية والياً عليها بدل أبي سعيد وخرجت في تلك المدة المهدية وسائر الجهات القبلية عن أبي زيد المذكور واستولى عليها يحيي بن اسحاق الميورقي من بني غانية ثم استولى على تونس وقبض على أبي زيد المذكور في ربيع الاول من أول عام من المائة السابعة ولما آل أمر الخلافة للناصر بن المنصور المذكور بوفاة والده وبلغه ما حل بافريقية توجه لها في عسكره واستصحب وزيره أبا محمد المذكور ودخل تونس ووجه وزيره المذكور للمهدية فافتكها وغيرها من ابن غانية سنة ٦٠٢ في أخبار طوال ودانت له البلاد ثم رجع الناصر لمحل خلافته واستخلف على افريقية وزيره المذكور وكانت وفاة الناصر سنة ٦١٠ وتولى بعده ابنه المنتصر يوسف المتوفى سنة ٦٢٠

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن الحداد وأبو الحسن السوسي وابن عوانة

الطبقة الثالثة عشر

تقدم ان الناصر استخلف على افريقية وزيره أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص المنتاني وهنتاتة من قبائل المصامدة وهم القائمون بدعوة المهدى والسابقون لها وكان قبوله الاستخلاف بعد تمنع وشروط شرطها عليه وفى له بها الناصر وذلك فى شوال سنة ٦٠٣ وكان عالماً ذكياً شجاعاً عاقلا ومما يدل على ذكائه هو انه دخل عليه يوماً أبو محمد عبد السلام البرجيني وكان تحت جفوة منه فقال له كيف حالك يافقيه فقال فى عبادة فقال له الامير عبد الواحد تعوضها ان شاء الله بالشكر وأراد البرجيني بقوله فى عبادة قول رسول الله ﷺ « انتظار الفرج بالصبر عبادة »وله حروب طالت لم تهزم فيها له راية ولم يزل على ولايته فى جلالة الى أن توفى فى تونس فاتحة سنة ٦١٨ وتقدم للولاية ولده أبو زيد عبد الرحمن ثم قدم المنتصر عمه ادريس والياً على افريقية ومعه ابنه أبو زيد عبد الرحمن وله مع ابن غانية حروب وتوفى سنة ٦٢٠ وقام مقامه أبو زيد المذكور ولم يحسن السيرة ولما تولى الخلافة عبدالله العادل ابن المنصور عزله وولى أبا محمد عبد الله بن عبد الواحد الحفصى على افريقية فدخلها فى شعبان من السنة ومعه أخواه أبو زكرياء وأبو ابراهيم ولم يزل حميد الحال الى ان ثار عليه أخوه أبو زكرياء المذكور ووقعت بينهما حروب آلت باستيلاء أبي زكرياء على افريقية واستقلاله بها وذلك سنة ٦٢٥ ومهد دولة نخيمة لآل أبي حفص ورفع رايتهم كما ستعلم واستقام له الامر بعد موت ابن غانية واستولى على الجزائر وتلمسان وغيرهما وخلع دولة بني عبد المؤمن لاسباب ذكروها واتسع نطاق سلطانه ووافته بيعة ملوك شرقي الاندلس وغربيها واطاعته سجلماسة وسبتة وطنجة ومكناسة وخطب له بنو مرين وكان من العلماء العاملين والأمراء العادلين ختم على الشيخ الرعيني السوسي المستصفى وغيره من الكتب العالية وناظر فى النحو ابن عصفور وكان معدوداً من الادباء الشعراء وله مآثر جيدة وهو الذى بنى جامع القصبة والمدرسة الشماعية وجمع فى خزائنه من الكتب ستة وثلاثين ألف مجلد وفى سنة ٦٤٧ تحرك للمغرب ومات فى طريقه ودفن ببونة ثم نقل الى قسنطينة وترك من الاولاد أربعة محمد المنتصر وأبا اسحاق وأبا بكر وأبا حفص وفى هاته السنة توفى السلطان الشهير الذكر الجليل القدر صلاح الدين الايوبي (واعلم) انه لما تأسست الدولة الحفصية انتقل سرير الملك لتونس بعد ان كان بالمهدية واستقام أمرها وشاع ذكرها وتراجع العمران بافريقية وتتابع وبلغت أوج العلاء وبسطة الملك وصارت دار علم تلقاه فحول عن فحول وصارت تونس منبت عز تشد اليها الرحال من سائر الاقطار والامصار والفضل فى ذلك لابي زكرياء المذكور نوه بذكره ولى الدين بن خلدون وغيره وقال سند تعليم العلم قد كاد أن ينقطع من المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدولة فيه وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع

أو فقدانها وذلك ان القيروان وقرطبة كانتا حاضرتى المغرب والاندلس واستبحر عمرانهما وكان فيهما من العلوم والصنائع أسواق نافعة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب الا قليلا ثم تراجع . وفى كتاب اللقطة من شرح الابى على صحيح مسلم : لم يزل الشيوخ يحكون عن كثرة ما كان بتونس من الخير

حكى أنه بقى دينار ملقى بطريق العطارين مدة لم يرفعه أحد ثم بعد ذلك لم يوجد فقال الناس اليوم دخل لبلدنا غريب وحين كانت قاعدة الموحدين مراكش وكانت القضاة يأتون لتونس منها فاتفق أن قدم اليها قاض من مراكش فجلس للحكم فبقى أياما لا يأتيه أحد من الخصوم فظن أن الناس لم يرضوا به ثم قدم اليه يوما خصمان من سوق الجبة فقال أحدهما للآخر أصلحك الله ان هذا شريكى وقد باع جبة من العرب وأنا لا أستحل دراهم العرب فحينئذ علم القاضى أن عدم اتيان الخصوم اليه انما هو لتناصفهم واتباعهم الحق اه . وفى أيامه تقدم للقضاء أبو زيد عبد الرحمن بن نفيس ثم استعفى فتقدم عوضه ابو زيد عبد الرحمن التوزرى المعروف بابن الصايغ وفى أيامه سنة ٦٣٨ توفى الولى العالم أبو سعيد الباجى ابن خلف يدعى التميمى

فصل

قد علمت مما تقدم أن الدولة الاموية انقرضت سنة ٤٢٨ وتفرقت الاندلس الى ممالك ملوكها تعرف بملوك الطوائف وبذلك رجع أمر الاندلس للقهقرى ثم جدد الموحدون الرونق الذى كان لها زمن الاموية فقد جدد كل من عبد المؤمن ويوسف ويعقوب مجدها وحاموا عن العلوم والصنايع وعملوا بالشريعة الاسلامية وأسسوا مدارس عامة وأخرى للشبان وغمروا بعطاياهم علماء الاسلام واشتهر فى زمنهم بالطب والفلسفة وقرض الشعر ابن رشد الحفيد وابن زهر وأنشأ الامير يوسف باشبيلية عمارات فاخرة وأوصل لها مياها غزيرة وبنى جامعا صرف عليه مصاريف طائلة وأنشأ فى جميع جهات المملكة مستشفيات وتكايا وحفر آبارا بالصحارى وخانات فى الطرق للمسافرين وزاد فى مرتبات القضاة والفقهاء للاستعانة وملوك الاندلس صارت عمالا له ثم لما حصل ضعف لهاته الدولة اغتنم العدو الفرصة وصار يقطع كثيرا من المدائن والمعاقل والحصون ويستولى عليها حيث لم يوجد بالاندلس من الجيوش والرجال من يدافع العدو ويقاتله ثم فى سنة ٦٢٦ استولى على كورة ماردة وفى سنة ٦٢٧ على ميورقة وفى سنة ٦٢٩ على جزيرة شقرة وفى سنة ٦٣٦ على قرطبة وعلى شرق الاندلس شاطبة وغيرها سنة ٦٤٥ وفى السنة قبلها على طرطوشة وما يتبعها من القلاع والحصون وفى السنة بعدها على أشبيلية

و بيان الوقائع فى أخذها يطول الكلام بذكره وذلك مشتمل على ما تتقرح له الا كباد وتنسجم له العيون ولما أخذت هذه المدائن انحاز المسلمون الى قطعة من شرقي الاندلس وأول من قام بالامر فى هاته الجهة من بنى الاحمر محمد بن نصر وكان أبوه نصر فى دولة عبد المؤمن من أمراء الاجناد ومحمد بن نصر هذا يقال له محمد الشيخ وبويع له سنة ٦٢٩ وخطب لابى زكرياء يحيى بن عبد الواحد الحفصى صاحب تونس ودخل مع ابن الاحمر فى تلك البيعة أهل فيان وشريش والطاغية فى ذلك الوقت محاصر بلنسية وذلك سنة ٦٣٦ ثم أرسل ابن الاحمر جماعة من أعيان أهل الاندلس منهم ابن عصفور وحبر قضاعة ابن الابار مستصرخين به يريدون منه النجدة فى قتال العدو وعقد أبو زكرياء لتلك البيعة يوما مشهوداً وأنشد حبر قضاعة المذكور القصيدة المشهورة التى أولها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   ان السبيل الى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ماالتمست   فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وهى طويلة بليغة مذكورة فى نفح الطيب فاجاب أبو زكرياء بيعتهم ولبى دعوتهم وجهز لهم أساطيل فيها المال والرجال فلما وصلوا الاندلس وجدوا العدو ملك بلنسية ثم مرسية وهاته الطامة الكبرى والمصيبة العظمى على الاندلس كانت عقب واقعة العقاب الواقعة سنة ٦٠٩ ثم واقعة انجية التى استشهد فيها شيخ الجماعة وخاتمة المحدثين مؤلف السيرة أبو الربيع الكلاعى وصارت بعد هذه الهزائم والنوائب الى الانقسام والتنافس مع كثرة الفتن والاضطراب وانحاز المسلمون لغرناطة وجنوب الجزيرة وهاجر الكثير من الفضلاء والعلماء الى فاس ومراكش وتونس وتلمسان . فى خلاصة تاريخ العرب ماملخصه فاق مسلمو الاندلس الفرنج فى العلوم والصنائع والاخلاق كبذل النفيس والكرم مع ما امتازوا به من معرفة قدرها وعزتها حتى ذهب الكثير منهم الى قرطبة يستشيرون حكماءها المشتهرين بالطب وكان المسلمون فى سائر الجهات منقادين لابى العائلة مجلين للشيوخ ذوى غيرة شديدة على مراعاة العدل أصغرهم كأكبرهم بالاعتناء بحفظ العائلة من العار لايمنع خمول أصل أحدهم من الوصول الى أرقى المناصب غير معولين فى اعتبار الشخص على شرف حسبه ونسبه فقط بل على اعتبار فضائله وأخلاقه وكانوا متفننين فى الفهم والعمل بالقرآن الدال على أهمية اكتساب الفضائل والاعمال الصالحة ولذا كان الخلفاء يشوقون الناس الى الشغل ووقاية الاملاك من العدوان والذى ساعدهم على بلوغ شأو العظمة اتساع العلوم والفنون والفلاحة والصنائع . ذاق جميعهم لذة المعارف وتنافسوا فى ابتكار ما يمتازون به وكان اقتراحهم للشعر يرفع قدر نفوسهم ولابد لقضاتهم من حوز معلومات عويصة حتى يعتبرهم الناس زمن قيامهم بوظائفهم وكانوا يكتبون على جميع المبانى الجليلة اسم المهندس والآمر بالتشييد ويجزلون الثناء على كل ماهر فى فن

وقد بلغوا الدرجة العليا فى فنون العمارة والموسيقى والقريض ولذا اقتفى الافرنج أثرهم فى أساليب أبنيتهم وزخارفها وأتقنوا أجناس الاصوات وما فى الصوت البشرى من الدلائل والطرق النغمية ومارسوا ضروب الشعر خصوصاً نظم الحكايات المشتملة على نكت مشوقة فبرع فيها الكثير وتعلموا فى المدارس علم الفلك والجغرافيا والمنطق والطب والنحو والهندسة والجبر ومبادىء علم الطبيعة والكيمياء الطبيعية والتاريخ الطبيعى وهو علم المواليد الارضية الثلاث ملئت كتبخاناتهم نسخاً منقولة عن كتب علماء اليونانيين من كتب فلاسفة الاسكندرية واستخرجوا المعادن من الأرض واللؤلؤ والمرجان من البحر وأتقنوا صناعة الدباغة ونسج القطن والاقمشة الحريرية والصوفية ونصال السلاح والسروج والجلود وغير ذلك رغب جميع أهل أوروبا كل الرغبة فى ذلك واتجروا فى الزيت والعنبر الخام وبلور الصخور والكبريت وغير ذلك واستعملوا طريقة تماثل أوراق الحوالة وكانوا يرسلون البضائع الى الممالك الشرقية فيرسلون اليها بدلها مما هو مفقود عندهم وبذلوا غاية عنايتهم بالفلاحه وكان بمدائن اشبيلية وقرطبة وغرناطة ومرسية وطليطلة وغيرها كتبخانات ومدارس جليلة تدرس فيها العلوم الرياضية وبالجملة فان المسلمين بذلوا صادق الهمة والعزيمة فى تعلم وتعليم العلوم على اختلاف أنواعها رغماً عما طرأ من الحوادث والتقلبات وحوادث الحروب الصليبية وتقدموا تقدما محسوساً باعتناء العلماء وبعض الملوك والعلوم المشار لها رياضيـة وهندسية وهى الفلك والارصاد والهيأة والاسطرلاب والزيج والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيك والجغرافية رياضية وتخطيطية وتعرف بعلم تقويم البلدان وتحديد المسافات والخرائط على مقتضى الاطوال والعروض والعلوم الرياضية هى المتعلقة فى الغالب بالاجسام العضوية وهى الحيوان والنبات وارتفعت فى زمنهم الى درجة البحث عن القوى الطبيعية والجواهر الاولية التى تحلل لادخالها فى مركبات أخرى ويعرف بعلم قواعد تحضير الادوية وحصلت لهم براعة فى ذلك وأنشأوا الاجزخانات الكيماوية وأدى انشاؤها والمادة الطبيعية اللذان هما أول ما يلزم لفن الطب الاشتغال بعلم الكيمياء وهو عبارة عن مجرد التحليل والتركيب وبما حصل لهم من المعارف فى ذلك أدخلوا فى الادوية نباتات كثيرة ومادات ترابية واعتنوا بغرس كثير من النباتات وتركيب طبقات الارض وبعبارة أخرى انها بلغت معارفهم فى الزراعة والاقتصاد الزراعى وقواعد الطب وعملياته والتشريح والادوية المفردة والنباتات والاحجار والمعادن والحيوانات ذوات الخواص الطبيعية أقصى درجات الكمال ونبغ فى ذلك كثير من العلماء الجهابذة وألفوا التآليف البارعة حفظ التاريخ أسماء كثير منهم كما حفظ أسماء كثير من الملوك الذين يدعون العلماء والحكماء الى دواوينهم ويمدونهم بالاموال الجزيلة للغرض المذكور وشوهدت مؤلفات كثيرة من تلك الفنون فشت بها اللغة العربية لدى الممالك الاسلامية والاروباوية وترجم بعضها الى اللغات الاجنبية واتخذت أصلا

من أصول التعليم فى المدارس وتكون من معظم تلك التآليف الموجودة الآن علم أدبى من أوسع العلوم الادبية المعروفة فى الدنيا ولهم اختراعات واكتشافات من ذلك بيت الابرة وصناعة الورق وبارود المدافع والاسلحة النارية وانتشارها فى الدنيا. ثم قال بعد شرح ماذكر وبما أسلفناه يظهر لك كيفية تحكم الاسلام على جميع فروع تمدن اوربا الحديث وكان عندهم أوسع ماسمح به الدهر من الادبيات ونتائج أفكارهم الغزيرة واختراعاتهم النفيسة وانهم أساتذة فى جميع الاشياء كالمواد المختصة بتاريخ القرون المتوسطة وأخبار السياحات والاسفار وقواميس سيرة الرجال المشهورين والصنائع العديمة المثال والابنية الدالة على عظمة أفكارهم واستكشافاتهم المهمة ولذا كله وجب الاعتراف برفعة شأن هذه الامة المحمدية التى تحقرها الفرنج منذ أزمان مديدة وظهر بذلك تحكم التمدن العربى المتسع ونشأ عن ذلك العمران الزاهر فكان بالاندلس ست تخوت وثمانون مدينة كبيرة وثلاثمائة مدينة أقل منها ومالا يحصى من الضياع والقرى وفى قرطبة وحدها مائتا ألف بيت وستمائة مسجد وخمسون مستشفى للمرضى وثمانون مدرسة كبرى عامة وتسعمائة حمام وعدد ساكنيها مليون وليقس مالم يقل وجامعها المشهور زخرفة وضخامة الباقى الى الآن يضاهى فى الفخامة الجامع الاموى بدمشق انتهى باختصار كثير مع تقديم وتأخير من خلاصة تاريخ العرب، وقد أتى على أخبار الاندلس الشهاب المقرى فى نفح الطيب وأزهار الرياض وأشبع الكلام عليها بما فيه تذكرة وعبرة لذوى الالباب

واعلم أن الاندلس اشتمل على فحول العلماء المبرزين فى كثير من الفنون ترجمنا الكثير منهم فى المقصد واشتمل على كثير من العجائب والمعادن وغير ذلك. فى نفح الطيب: خص الله بلاد الاندلس من الريع وغدق السقيا ولذاذة الاقوات وفراهة الحيوان ودرور الفواكه وكثرة المياه وتبحر العمران وجودة اللباس وشرف الآنية وكثرة السلاح وصحة الهواء وابيضاض ألوان الانسان ونبل الافهام وفنون الصنائع وشهامة الطباع ونفوذ الادراك واحكام التمدن بما حرمه الكثير من الاقطار مما سواها. وقال أيضاً: ان الاندلس بلد كريم البقعة طيب التربة خصب الجنان منبجس الانهار الغزار والعيون العذاب قليل الهوام وذوات السموم معتدل الهواء والجو والنسيم ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال متوسط الحال تتصل فواكهه أكثر الازمنة وتدوم متلاحقة غير مفقودة. وقال أيضاً: فى الاندلس من أنواع المعادن مالا يحصى وفيه المدن الحصينة والمعاقل المنيعة والقلاع الحريزة والمصانع الجليلة وطول الاندلس ثلاثون يوما وعرضه سبعة أيام ويشقها أربعون نهراً كباراً وبها ثمانون مدينة من القواعد الكبار وأزيد من ثلاثمائة من المتوسط وفيها من الحصون والقرى مالا يحصى، قيل ان عدد القرى التى على نهر اشبيلية اثنا عشر ألفاً وكانت دور قرطبة أربعة عشر ميلا وعرضها ميلان وكانت قرطبة قبة الاسلام وبها استقر سرير الخلافة الاموية وهى

معدن العلماء وهى من الاندلس بمنزلة الرأس من الجسد ومسجدها ليس له نظير فى الدنيا طوله ثلاثمائة و ثلاثون ذراعا وعرضه مائتان وخمسون ذراعا وسواريه ألف وأربعمائة و هو مزخرف بالرخام و المرمر وماء الذهب واللازوردى ومخارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية فى كل واحدة منها منبر و فقيه مقلص تكون الفتيا فى الاحكام اليه ، وكانوا لا يكون فيهم مقلص إلا من حفظ الموطأ وقيل إلا من حفظ عشرة آلاف حديث وحفظ المدونة ، وكان هؤلاء المقلصون المجاورون لقرطبة يأتون يوم الجمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويسلمون عليه ويخبرونه بأحوال بلدهم ويجعلون فى مساجدهم نوابًا يصلون بالناس الجمعة . وقال : الاندلس ينقسم الى مشرق ومغرب ومتوسطة وكل واحد من الاقسام الثلاثة مشتمل على مدائن عظيمة كل مدينة منها مملكة مستقلة مشتملة على أعمال وقرى ومزارع وبساتين وأقطار واسعة وخلائق لا يحصون فى غاية التنعم والرفاهية . فمن المتوسطة قرطبة وطليطلة وجيان وقسطلة وغرناطة والمرية ومالقة وغير ذلك مما يطول ذكره ، ومن شرق الاندلس مرسية وبلنسية وشاطبة ودانية والسهلة والثغر الاعلى وسرقسطة وغير ذلك مما يطول ذكره ، ومن غرب الاندلس اشبيلية وماردة وأشبونة وشلب وشريش ولبلة والخضراء وبطليوس وغير ذلك مما يطول ذكره . ولما ضعف أمر الخلافة وافترق أمر الاندلس وكثر الخلاف بينهم وانتشرت الفتن صارت الممالك بيد ملوك كثيرة ــ يسمون ملوك الطوائف ــ لكل مملكة ملك مستقل ينفذ أمره ونهيه فيما كان تحت يده وهم مختلفون فى اتساع ممالكهم وعدم اتساعها وكان ابتداء تفرق الممالك من سنة ٤٠٧ وصار يقاتل بعضهم بعضاً فيتغلب بعضهم على بعض وكان عدد أولئك الملوك خمسة عشر لا حاجة لذكر أسمائهم وأعظم تلك الممالك قرطبة بيد المعتضد بن عباد المتوفى سنة ٤٦١ وصارت وراثة فى بنيه . انتهى محل الحاجة باختصار . وغرناطة التى انحاز المسلمون لها بعد تغلب العدو على غالب الاندلس صارت كرسى المملكة مأوى المسلمين المتشتتين لكثرة خيراتها الجاذبة وكثرة المهاجرين لها حين أخذ الملك جالك يطرد المسلمين مما استولى عليه ، وقد أحسن ملوك غرناطة الترتيب السياسى فرتبوا فى كل بلدة خفراء منها وأعطوا جميع سكانها سلاحاً يستعملونه حالة هجوم العدو عليهم فرفعوه مرات على ملوكهم المتمنعين من أداء واجباتهم الملوكية أو الذين لا يعبأون بمشاورة الامة وجعلوا للعساكر المحافظين بالثغور اقطاعات من الارض تكفيهم وعائلتهم لتبعثهم على الوقاية من الاعداء ورتبوا فى غرناطة التى دائرتها أكثر من ثلاثة فراسخ ضبطية فى كل ثمن منها ضابطاً ورتبوا عساكر تدور ليلا وعملوا قوانين لزمن اغلاق المحال العامة كالاسواق وخصصوا كل حرفة بطائفة ومنعوا شرب الخمر والربا وابتكروا فى كتابة الحجج والصكوك طرائق واضحة تمنع المنازعة وشغلوا العلماء بتأليف رسائل فى الصنائع العملية وانقاد الائمة والفقهاء لقوانينهم النظامية وأحدثوا لتأدية العبادة قوانين تنبىء عن كمال ايمانهم وعلو أفكارهم وشرف التأديب والتهذيب

الدينى ، منها انعزال النساء عن الرجال فى المساجد واكثار الطاعة فى رمضان وتوزيع الزكاة والصدقات على الفقراء أو ابقاؤها لتنفق فى عمارات عامة وغير ذلك وبما سلف يعلم أن مملكة غرناطة نظراً لما كانت عليه من الامور الجليلة تستحق أن تعتبر فى التاريخ من الممالك الشريفة لكن ساء حظها حيث لم يكن توارث سلطنتها مقرراً على قواعد متينة فتولاها بعد الملوك الجديرين الذين يتعجب الاجيال المتغلبة من عدلهم وحسن سياستهم ملوك جبابرة ليسوا بكفء للسلطنة التى عجلوا زوالها من الاندلس ولا حاجة لذكر سلسلة هؤلاء الملوك وسيأتى ذكر هذا الزوال والملك لله ذى العزة والجلال

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الأمراء ابن التين والبرجينى وابن شقر والبرقى والمسراتى والرعينى السوسى

الطبقة الرابعة عشر

لما هلك أبو زكرياء بايع الملأ ابنه محمداً ولقبوه بالمستنصر ودعوه بالأمير واشتهر بالفضل والاعتدال وحسن السيرة والعلم وحميد الخصال وطار صيته فى الآفاق وكان العلم فى أيامه بحراً زاخرا وقمراً باهرا وعلت دولته ومدت اليه ثغور القاصية يد الاعتصام واجتمع بحضرته من أفاضل أعلام العلماء الوافدين عليه وعلى أبيه وخصوصاً الاندلس من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير وملك أورع متفيئين ظل مملكته لائذين به منهم حازم ومدحه بمقصورته المشهورة وأبو الحسن بن سعيد وابن الأبار وأضرابهم وأبو محمد عبد الحق بن برطلة وفد عليه ببيعة أهل مكة شرفها الله وتلا قصيدة من انشاء أبى محمد عبد الحق بن سبعين الصوفى المشهور ووقف القاضى أبو القاسم ابن البراء المذكور على منبر جامع الزيتونة يوم قراءتها موقفاً مشهوراً وذلك سنة ٦٥٩ واتسع ملكه وقوى سلطانه وأباد مخالفيه وقيل فى هاته البيعة

اهنأ أمير المؤمنين ببيعة ... وافتك بالاقبال والاسعاد
فلقد حباك بملكه رب الورى ... فأتى يبشر فافتتاح بلاد
واذا أتت أم القرى منقادة ... فمن المبرة طاعة الاولاد

وفى السنة قبلها قبض على ابن الأبار المذكور وكان كاتباً له ولأبيه من قبله وأمر بقتله وحرق جثته وتآليفه وكتبه وفى سنة ٦٥٩ قبض أيضاً على وزيره الفقيه العالم أحمد ابن اللياني شارح المدونة ومات تحت العذاب وأحرق جثته والكمال متعذر الا فيمن عصمه الله وغزاه صاحب فرانسا سان لويز الغزوة الشهيرة آخر سنة ٦٦٨ ونزل قرطاجنة واستوسع فيها بجنوده

وذخائره وعظم الخطب على أهل تونس واتصل القتال نحو الاربعة أشهر وضاق الخناق ثم تدارك الله سبحانه وتعالى أهالى المملكة بهلاك هذا الملك بالطاعون وعرضوا على أبى عبد الله المنتصر الصلح فصالحهم بما غرموه فى حركتهم وكان مبلغاً جسيما على يد القاضى ابن زيتون المذكور وانعقد بانشائه وخرج الفرنسيس من قرطاجنة لبلاده وهنى هذا الامير بهذا النصر الذى لم يكن فى الحساب (قلت) وفى هذا العهد بقرطاجنة كنيسة ضخمة تعرف بسان لويس بها جماعة من الرهبان وبها دير مملوء بالآثار العتيقة العجيبة والتحف المستظرفة الغريبة التى هى فى الحقيقة كنز من الكنوز المدخرة ، ولم يزل هذا الامير على حاله من علو الكعب وبعد الصيت واتساع السلطان واتخاذ المصانع الباقية آثارها الى هذا العهد وتوفى عالى الكعب آمن السرب سنة ٦٧٥ كان يقول مايسألني الله عن أمور الامة بعد أن قدمت عليهم للقضاء أبا عبد الله محمد الخباز . وقد أفرد ولى الدين بن خلدون فصلا فى أخباره يكتب بماء العيون ولا يتعلق بأذياله الطامعون وبويع لابنه يحيى ولقب بالواثق، فرفع المظالم وأفاض العطايا ثم فسدت بطانته من استبداد وزيره ابن الغافقى وسوء سيرته وبلغ ذلك عمه أبا اسحاق فسار من الاندلس وأخذ بجاية وبايعه الموحدون ووقع خلع الواثق ثم قتل سنة ٦٧٩ وكان دخول أبى اسحاق لتونس فى ربيع الثانى سنة ٦٧٨ وتمت له البيعة ثم قام عليه احمد ابن مرزوق المسيلى البجائى وزعم أنه المهدى واستولى على طرابلس وغالب بلاد افريقية وأخيرا استولى على تونس ثم قصد بجاية وغيرها وظفر فى وجهته هاته بأبى اسحاق ، وقتله فى أخبار طوال وذلك سنة ٦٨٢ ولما ساءت سيرة هذا الدعى بايع العرب أخاه أبا حفص عمر وهو إذ ذاك بقلعة سنان ولما بلغ ذلك الدعى خرج لقتاله واتصلت بينهما الحرب ثم لما انحلت عصبيته اختفى وكان كذاباً سفاكا للدماء ظلوماً لم يأت بحسنه الا احداث جامع الخطبة خارج باب بحر من تونس . ولما اختفى دخل أبو حفص تونس وطهر سرير ملكه من هذا الدعى الخبيث ثم وقع العثور عليه ومثل به وطيف بشلوه سنة ٦٨٣ وحصل الاطمئنان واستقام أمر السلطان وبادر الناس بطاعته من طرابلس الى تلمسان ولقب بالمنتصر بالله ثم خرج عليه أبو زكرياء بن أبى اسحاق المذكور وانضمت اليه الاعراب وأطاعته بجاية والجزائر وبسكرة والثغور الغربية وانقسمت الدولة لدولتين وفى أيامه استولى صاحب صقلية على جربة وعهد بالولاية لابى عصيدة محمد بن الواثق باشارة من معتقده الولى الصالح أبى محمد المرجانى وتوفى فى ذى الحجة سنة ٦٩٤ وكان ملكا عاقلا كريما فاضلا لم تحدث منه عقوبة لاحد يعظم العلماء والصلحاء ويبرهم وكانت أيامه أيام عدل وهناء وأمن وسرور

تنبيه

قال ولى الدين بن خلدون لاوثوق فى الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة

والعديد وانما الظفر فيها من قبيل البخت والاتفاق انتهى . قلت يؤيده حرب ابن مرزوق المذكور وأشباهها والله يؤيده بنصره من يشاء

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن عريبة وابن بزيزه وابن البرا وابن الخباز وابن زيتون وابن الابار وابن سعيد وابن الغماز

الطبقة الخامسة عشر

تقدم أن أبا حفص عهد بافريقية لابى عصيدة المستنصر محمد بن الواثق وتمت له البيعة لما توفى أبو حفص وانشرح الناس لها وكانت أيامه مواسم وتوفى سنة ٧٠٩ وبويع لابى بكر الشهيد عبد الرحمن بن أبى بكر بن يحيى بن المنتصر بالله بن أبى زكرياء ولما بلغت هاته البيعة خالد ابن أبى زكرياء بن أبى اسحاق ابراهيم وهواذذاك أمير قسنطينة وغيرها خرج لتونس وخرج له أبو بكر فى جنده غير ان غالب الجند مال لخالد فانهزم ثم وقع القبض عليه وقتل ولذا سمى الشهيد وكانت ولايته سبعة عشر يوما ودخل خالد الحاضرة وتمت له البيعة ولما استوثق أمر خالد لقب الناصر لدين الله وأفتك برجال الدولة وثار عليه أخوه أبو بكر وكان خالفه واليا بقسنطينة واضطرب الحال بافريقية ولما بلغ هذا الاضطراب لابى يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد اللحيانى وهو بطرابلس عزم على تملكها وبايعه أهل طرابلس وراسله الثائر أبو بكر المذكور مظاهراً له على أمره فاشتد به عضده وقصد الحاضرة فصبحها وانحلت عرى خالد وأشهد على نفسه بالخلع وكانت ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبويع لأبى يحيى المذكور فى رجب سنة ٧١١ وهادن الامير أبا بكر ثم استعجل أمر أبى بكر وانضمت فى طاعته زناتة وقصد افريقية سنة ٧١٦ فهابه أبو يحيى وكان قد أسن فأشرك رؤساء الاعراب فى سلطانه ولما لم يتم له معهم أمر قبض يده على الخلافة وشرع فى بيع ذخائره وجمع القناطير من الذهب والكثير من نفائس الدر والياقوت وخرج لقابس مواريا بتفقد جهاتها سنة ٧١٧ ثم ارتحل لطرابلس وأخرج رجال دولته ابنه المعتقل من السجن أبا ضربة محمداً وبايعوه والاعراب فى اضطراب وقصده الامير أبو بكر المذكور سنة ٧١٨ فالتفت القيروان على أبى بكر وخلعوا أبا ضربة ودخلوا تونس فملكوها وكانت ولايته تسعة أشهر وتم الأمر لابى بكر وهو أبو بكر ابن الامير أبى زكرياء ابن الأمير أبى اسحاق وله مع أبى ضربة وغيره حروب يطول جلبها وكان الظفر له فيها وعز سلطانه وعلا كعبه ورسخت قدمه وطالت مدته وابتهجت به حضرته وعهد بالولاية لابنه أبى العباس وفاجأه المحتوم فى رجب سنة ٧٤٧ ولما توفى تمت البيعة لابنه أبى حفص وعدل عن ولاية ابنه أبى العباس ثم ثار أبو العباس

هذا عليه وقدم الحاضرة فملكها سنة ٧٤٧ ثم ظفر به أخوه أبو حفص وقتله وأبو حفص قتله السلطان المريني الآتي ذكره سنة ٧٤٨ وكان قتله بقابس وولايته عشرة أشهر وكان قدوم السلطان أبي الحسن المريني من المغرب الى الحاضرة في السنة في جند عظيم وصحبته الكثير من علماء المغرب وأدبائه منهم السطي والابلي وابن الامام وابن عبد المهيمن وابن الصباغ ودخل تونس في أعظم أبهة وأحسن احتفال وله في اقامته بافريقية أخبار طوال وأصلح الفساد ومحا دولة بني أبي حفص واستقام له الحال ثم دارت عليه الدوائر من الاعراب وحلت به نوائب وأهوال وآل أمره للرجوع للمغرب في أساطيله سنة ٧٥٠ وقاسى في طريقه الشدائد والمصائب وأحاطت به النوائب وغرق أسطوله وبه الكثير من أفاضل العلماء منهم السطي . وفي مدة اقامته بافريقية كان الوباء الجارف ضاربا خيامه بها وبأثر خروج هذا السلطان من الحاضرة دخلها والى بونة أبو العباس الفضل بن أبي بكر بن أبي زكرياء الحفصي واستقل بالأمر وجدد الرسوم الحفصية ثم قتل في جمادى الاولى سنة ٧٥١

تنبيه

من مآثر أبي زكرياء اللحياني المذكور تجديد أبواب جامع الزيتونة الجوفية من عود الساج سنة ٧١٧ ولا زالت على حالها الى هذا العهد ورحلة التجاني المشهورة كانت صحبته . وكان عالما معظما للشريعة فاضلا أميرا عادلا ومن عدله انه مكن القاضي ابن عبد الرفيع من ابنه أبي ضربة للقصاص في نفس قتلها وأقر بالقتل وحكم القاضي بالقصاص ولما عفا الاولياء بقي في حبس القاضي على مقتضى المذهب المالكي من سجن القاتل عاما ثم ضربه مائة ان لم يقع القصاص كفارة للقتال اذا كان القتل باقراره ولبث في السجن حتى أخرجه أهل الحل والعقد منه وبايعوه لما نفض أبوه يده من السلطنة وهو من الذين خرجوا على القانون الشرعي فانه لما أخذ البيعة وثب على القاضي الذي سجنه ونفاه للمهدية واعتقله بها في ماجل بقي فيه ما ينيف عن العامين فانظر الى الأب كيف سلم ولده للاحكام الشرعية وآدابها والى الابن لما قدر كيف عاقب القاضي على فعل يجب عليه فعله وكان قاضيا الى أربعة من أسلافه وأسلافه لهم أخبار دالة على توطين نفوسهم على الاحكام الشرعية وآدابها مع ملازمة الجماعة في الصلوات في المساجد وفي قصورهم وبساتينهم وقراءة الحديث والميل الى سماع المواعظ والعمل بها والاخبار الدالة على أن بعضهم ومنهم أبو ضربة المذكور وآخر ملوك دولتهم بعكس ذلك كالجراءة على القتل والعقاب بالسجن لمن فعل ما وجب عليه فعله شرعا . وقد عقد ولي الدين بن خلدون فصلا في مقدمته قال في آخره : « اذا أذن الله سبحانه بانقراض الملك من أمة حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طريقتها فتفقد منهم الفضائل ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم وتبدل بسواهم

ليكون نعياً عليهم في سلب ما قد أتاهم من الملك ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها﴾ الآية . ومن استقرأ ذلك وتتبعه فى الامم السابقة يعلم علم يقين ما ذكرناه والأمر كله لله

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن جماعة والتجانى وابن عبدالرفيع وابن راشد والصفاقسى وابن هارون وابن عبد السلام وابن جابر

الطبقة السادسة عشر

لما قتل أبو العباس الفضل بويع لأخيه أبى اسحاق بن أبى بكر عقد له البيعة أبو محمد بن تافرجين وهو غلام مناهز واستبد عليه وأسخط الاعراب وجرت بينه وبين سلطان المغرب أبى عنان المرينى حروب باشر أكثرها بنفسه ثم وجه أسطوله للحاضرة فأخرج منها ابن تافرجين واستولى عليها فى رمضان سنة ٧٥٨ وأبو عنان اذ ذاك فى قسنطينة وظهر له الدخول للحاضرة ثم أعرض عن ذلك وثنى عنانه الى غربه ورجع السلطان وحاميه ابن تافرجين للحاضرة وفى سنة ٧٦٦ توفى الحاجب المذكور ودفن بمدرسة قرب حوانيت عاشور وأقام هذا السلطان بعد ذلك بالحاضرة بين فتنة وهدنة مع أعرابها حتى توفى بغتة فى رجب سنة ٧٧٠ وفى أيامه استولى طاغية جنوة على طرابلس حتى افتداها منهم ابن مكى صاحب قابس وبويع لابنه أبى البقاء خالد وهو صبى ولم يستقم أمره حتى مال الاعراب من بنى كعب الى أبى العباس أحمد ابن محمد بن أبى بكر الحفصى صاحب قسنطينة لما علموا من كفاءته وعدله فتوجهوا اليه وقدموا به بعد ترادف الوفود عليه لنصرته ودخل الحاضرة وتمت له البيعة واعتقل أبا البقاء وكانت ولايته سنة وتسعة أشهر ثم التفت لاسترجاع ما تغلب عليه الثائرون فاسترجع الجريد وقابس وجربة ودخلت طرابلس والزاب فى طاعته وعلت يده وعز سلطانه وكانت له أساطيل فى غاية المنعة لنكاية العدو وتوفى فى شعبان سنة ٧٩٦ وهو من مفاخر ملوك هاته الدولة وممن يوصف بالعدل والانصاف وأسلم على يده عبد الله الترجمان وكان قسيساً وهو مؤلف تحفة الاريب فى الرد على أهل الصليب وأثنى فيها على هذا السلطان . وعلى عهده تقدم ابن عرفة للفتيا والخطابة بالجامع الاعظم وفى أوائل دولة أبى فارس الآتى ذكره أنهى ولى الدين ابن خلدون خبر بنى أبى حفص

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابن علوان وأحمد الغبرينى والبطرنى وابن عرفة وابن خلدون

الطبقة السابعة عشر

لما توفى أبو العباس بويع لابنه أبي فارس وقام بالملك أتم قيام وانتظم أمره أي انتظام ورتب الاحوال وأعطى الاموال وأصلح البلاد وقمع أهل الفساد ، وكان شجاعاً حازما فطناً ذكيا ، تقيا عالما موقرا للعلماء ، محبا للصالحين ، كثير الصدقات محبا للخير . ومن حسناته خزائن الكتب المشتملة على أمهات الدواوين وجعل لها مقصورة بجنبة الحلال من جامع الزيتونة وأوقفها على طلبة العلم ينتفعون بالنظر والكتب بشرط أن لا يخرج منها شيء عن محله وجعل لها قيمين يقومون بها في نفضها ومناولتها للطلبة وردها لمكانها ووقت وقتا من كل يوم ، وكان ملازما لقراءة العلم بين يديه سفرا وحضرا وأقام العدل في جميع رعاياه بالكتاب والسنة وانصاف المظلوم من الظالم . وفي أيامه عظم شأن المولد الشريف وكان قاضي عساكره ابن الشماع المتوفى سنة ٨٣٣ وكانت له وقائع شديدة مع اخوته وغيرهم ودوخ النواحي وقمع الثوار وجاءته الوفود من الشرق والغرب ووافته بيعة فاس ، وانضم له ملك المغرب . وبالجملة فهو درة سلكهم ومجد ملكهم . وتوفي قرب جبل ونشريس من عمل تلمسان فجأة يوم الاضحى سنة ٨٣٧ فكتم حفيده وولي عهده موته حتى تمت بيعته ، ودفن بتربة أسلافه الغربية من مقام أبي محفوظ محرز بن خلف . والحفيد المذكور هو محمد المنتصر بن المنصور بن أبي فارس ودخل تونس في أبهة عظيمة يوم عاشوراء من سنة ٨٣٨ وجددت له البيعة وأفاض العطاء وعم احسانه ، وله حروب مع الثائرين ومآثر منها ابتداء المدرسة المنتصرية وأتمها أخوه بعده وتوفي في صفر سنة ٨٣٩ وعلى عهد السلطان أبي فارس انتهى تاريخ ابن الشماع المذكور . وله مع الامام البرزلي المذكور نزاع في شأن العقوبة بالمال فابن الشماع يقول بالمنع وخصمه يقول بالجواز وألف كل منهما رسالة في الرد على صاحبه وتأييد مقالته

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء عيسى الغبريني والوانوغي والابي والزعبي وابن الشماع والقلشانيان محمد وعمر والبرزلي وابن ناجي وابن عقاب

الطبقة الثامنة عشر

لما توفي محمد المنتصر بويع لأخيه أبي عمرو عثمان ، ولما استقام أمره خالفه الاعراب وحاصروا الحاضرة وله حروب مع الثائرين وأخيرا كان الظفر حليفه واستقام أمره وهو آخر

رجال دولة بنى أبى حفص و تتمة أمجادهم وفرسان جدالهم وصاحب المآثر الباذخة مثل ميضاته المعروفة الى الآن بميضاة السلطان جوف جامع الزيتونة و اتمام مدرسة أخيه المنتصر و مدرسة جوار مقام الشيخ محرز وخزائن الكتب بالمقصورة الشرقية من جامع الزيتونة و غير ذلك مما عفت رسومه . وبالجملة فهو ختام الدولة الحفصية ونظام المحاسن الفاخرة فى بلاد افريقية . وتوفى أواخر رمضان سنة ٨٩٣ وعلى عهده سنة ٨٧٢ كان وباء جارف بلغ من مات به فى اليوم أربعة عشر الفا وعلى عهده كانت وفاة الشيخ فتح الله العجمى فى شوال سنة ٨٤٧ وكان انتهاء تاريخ الزركشى سنة ٨٨٢

فصل

تقدم أن الطاغية الاسباني استولى على معظم الاندلس أواسط المائة السابعة وانحاز المسلمون الى غرناطة وجنوب الجزيرة ، وبعد ذلك صارت هاته الجهة محل مطامع هذا العدو ، والامراء المسلمون هناك الى الانقسام والتنافر وتعارض الاغراض والشهوات من الامراء والثوار بتلك الجهات الذين لم يعتبروا ما فى الانقسام من المضار وفعلا وقع فان الطاغية اغتنم الفرصة وأخذ فى محاصرة جهات غرناطة . ولله در خاتمة أدباء الاندلس أبى الطيب الشريف الرندى ، اذ قال يندب بلاد الاندلس ، ويحرك العزائم من أهل الاسلام لنصرة الدين ، القصيدة المشهورة التى أولها :

لكل شيء اذا ما تمّ نقصان   فلا يغر بطيب العيش إنسان

وقد ألف فى الغرض العالم النحرير الوزير الشهير أبو يحيى بن عاصم كتابا سماه « جنة الرضى فى التسليم بما قدر وقضى » وهو كتاب مفيد عجيب ومضى الكلام على هذا فى المقصد فى ترجمة هذين الشيخين . وجرت أمور وحروب بين المسلمين والطاغية حتى استولى على ما بقى بالاندلس شيئا فشيئا فكان الاستيلاء على مالقة سنة ٨٩٣ وعلى غرناطة والحمراء سنة ٨٩٧ بعد حصار أصاب المسلمين فيه شدة الجوع وتكاثر الكروب و تفاقم الخطوب فكاتبوا الطاغية فى الصلح واشترطوا شروطا وهى سبعة وستون شرطا منها التأمين على النفس والمال والاهل و منها اقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم و منها أن تبقى المساجد كما كانت والاوقاف كذلك الى غير ذلك من بقية الشروط . ثم انهم نقضوا تلك الشروط شيئا فشيئا ونكثوها عروة عروة الى أن آل الامر الى تمكين الكردينال كيميليسى من اعدام جميع آثار المسلمين وأمر باحراق ثمانين الف كتاب بخط اليد فى ميادين الرحبات العامة بغرناطة. ولماحلّ بالمسلمين ما حل خرجوا الى فاس ومليلة و الريف وغيرها منهم ابن الازرق و بنو داود المذكورون فى فهرسة ابن غازى وأبو عبد الله الوادى آشى . ثم وقع اكراه الباقى على التنصر أو الخروج

فخرج الكثير منهم ووصلوا لافريقية الشمالية سنة ١٠١٧ والتي بعدها ، وكانوا خلقا كثيرا وانتشروا في المغرب الاقصى والاوسط وافريقية وسيأتي ان شاء الله مزيد كلام عليهم في الطبقة الحادية والعشرين . ولم يبق بالاندلس ، بعد اكراههم على ما ذكر ، من يجهر بكلمة التوحيد والاذان وجعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن فلا راد لما قضاه الملك الديان . في خلاصة تاريخ العرب : المطرودون من اسبانيامنذ فتح النصارى غرناطة الى سنة ١٦٠٩ ثلاثة ملايين ، كانوا نخبة المسلمين وأعظمهم صناعة . فدرست معالم عز إسبانيا

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء أحمد القلشاني وأحمد حلولو والرصاع ومحمد الزنديوي

الطبقة التاسعة عشر

لما توفي السلطان أبو عمرو في التاريخ المذكور بويع لحفيده أبي زكرياء يحيى بن محمد المسعود ابن أبي عمرو فقام بالامر وخرج لتمهيد النواحي وفي أثناء اشتغاله بما ذكر اشتغل بأمر تونس عمه عبد المؤمن حين وقع الافتراء بموته وشاع حتى تواتر في رجب سنة ٨٩٤ ثم تبين خلافه وقدم من مغيبه ودخل الحاضرة وجددت بيعته وفر عمه عبد الموفق ثم وقع الظفر به وقتل في خبر طويل ووافته بيعة أهل الاطراف واستقام أمره الى أن هلك في طاعون سنة ٨٩٩ وبويع لابي عبد الله محمد بن الحسن بن محمد المسعود وكان فطناً ذكياً محبا للخير وأهله إلا أن دولتهم بلغت سن الهرم وأذنت بالانقراض لخروج الاكثر عن طاعته فملك عروج باشا أخو خير الدين الآتي ذكره الجزائر وملك النصارى طرابلس سنة ٩١٤ وبقيت تحتهم حتى فتحها درغوث باشا كما ملكوا بجاية سنة ٩١٠ وبقيت لهم أيضا حتى افتكها صالح باشا واضطربت أحوال الدولة من يومئذ . ومن آثار هذا السلطان المقصورة الشرقية بالجامع الاعظم وأوقف بها كتباً جمة وهي المعروفة الآن بالعبدلية نسبة له وتوفي وافريقية في أضطراب سنة ٩٣٢ وبويع لابنه الحسن وسار سيرة حسنة ثم انقلب لأسوأ سيرة فازداد الارتباك والاضطراب في البلاد وخرج عن طاعته سوسة والقيروان وملك صاحب الجزائر قسنطينة وتغلب العرب على البلاد وقويت شوكتهم وكان خير الدين وأخوه عروج قدما من جزيرة مدلي للحاضرة على السلطان المذكور فقبلها بالجميل ولها وقائع وغزوات برية وبحرية شهيرة وبعد فتح الجزائر وغيرها أقام خير الدين واليا عليها ووقع توجيه البيعة للسلطان سليم العثماني وانتشر ذكره وبعد صيته بالمشرق والمغرب ثم قصد تونس واستولى على بنزرت وخطب بها للسلطان العثماني ولما بلغ

ذلك الحسن الحفصى أيقن بالغلبة وفر بما خف ودخل خير الدين الحاضرة بلا قتال سنة ٩٣٥ ثم لما ثار عليه بعض أهل تونس خرج منها بعد أن سكن الثائرة وأمن الناس وبأثر ذلك رجع الحسن لتونس ووقعت حروب بينه وبين خير الدين وأخيراً انتصر عليه خير الدين ووقع الاعلان بطاعة السلطان سليمان وساس خير الدين الرعية ولما أيس الحسن من نصرته على خير الدين ذهب لاسبانيا مستصرخا بطاغيتها وأجابه لذلك وأمده بأسطول وقدم الحاضرة وقامت الحرب على ساق حتى انهزم خير الدين لان غالب الناس مالوا لسلطانهم سليل ملوكهم ودخل الحسن الحاضرة والنصارى وأمنوا الناس فلم يرعهم وهم فى أمان إلا هجوم النصارى عليهم على حين غفلة فاستباحوهم قتلا وأسراً ونهباً . يقال قتل فى هاته الواقعة ثلث أهل تونس وأسر الثلث ونجا الثلث وكل ثلث ستون ألفاً وهاته الواقعة تسمى بوقعة الاربعاء وأشار اليها العالم ابن سلامة فى قصيدته التى يتشوق فيها الى تونس ويندب اطلالها ويذكر أيامها الرافلة فى حلل الدعة وكيف تغيرت وتبدلت أحوالها وبقى الحسن مع النصارى تحت الذل والهوان وشاركوه فى البلد وملكوا حلق الوادى وشيدوا به حصنا أقاموا فى بنائه نحواً من أربعين سنة ثم خرج الحسن لاسترجاع القيروان من الثائرين عليه ولما هزموه شر هزيمة ذهب لاسبانيا طالبا من الطاغية الاعانة على استرجاع القيروان كاعانته على أهل تونس قبل فخيب الله سعيه . وستأتى بقية أخباره

تنبيه

اعلم أنه بانتهاء المائة التاسعة أخذ العلم بتونس فى القهقرى والرجوع الى الوراء بعد أن كان سوقه نافقة فى دولة أبى عمرو المذكور وتداول فى مدته ومدة أخيه محمد خطط العلم جماعة وافرة منهم أبو عبد الله بن قليل الهم وأبو عبد الله محمد الزواغى وأبو البركات ابن عصفور وأبو عبد الله البنوتى وتداول خطط القضاء والفتيا جماعة منهم أبو عبد الله الرصاع وأبو عبد الله القلشانى وأبو عبد الله الزنديوى وابنه أبو الحسن وغيرهم من فرائد تاج تونس وزينة جمالها المونق ثم فى أوائل المائة العاشرة كانت دولة السلطان أبى عبد الله محمد بن الحسن الحفصى وهو الذى بنى المقصورة المعروفة بالعبدلية وملأها بالخزائن وملأ الخزائن كتبا وجعل عليها نظاراً وجعل النظر فى ذلك لامام الجامع وهو يومئذ أبو البركات ابن عصفور وتوفى هذا السلطان وتولى بعده ابنه الحسن وفى أيامه دخل خير الدين تونس ثم خرج منها فى خبر طويل الذيل وكان من رجال الدنيا والآخرة وفى أخباره تأليف مستقل ، ثم انقطع الخبر وعمى الاثر وطوى بساط أخبار العلماء والفضلاء لما دهم افريقية عموما والحاضرة خصوصا أواسط المائة العاشرة من الفتن والاحن فتقلص ظل الدولة الحفصية عنها وبلوغها غاية الهرم حتى تجاسر عليها الثوار من كل جانب وامتدت يد الطاغية الاسبانى ولا زالت فى ارتباك الاحوال ومكابدة المصائب والاهوال

وخرج منها فى ذلك الكثير من العلماء والفضلاء الى المشرق والمغرب منهم أبو عبد الله ماغوش المذكور بهاته الطبقة هاجر الى المشرق وأبو الفضل خروف الآتى اسمه فى الطبقة الآتية هاجر الى فاس وفى نزهة الحادى نقلا عن المنجور فى فهرسته أن أبا الطيب الظريف التونسى كان واعظا بجامع الزيتونة رحل لفاس بعد أخذ تونس فخاطبه قاضى الجماعة بفاس ابو الحسن على بن هارون بمنظومة منها :

جادكِ الغيث إذا الغيث انهمرْ حضرةَ الانس البديع المؤنسِ
لم يكن الا كلمح بالبصر او بريق لاح لى من تونس

فأجابه أبو الطيب بابيات منها :

ايها الشيخ الفقيه المعتبر سيد القطر وصدر المجلس
قد تفضلتم بنظم كالدرر حل من قلبى محل النفس

تنبيه

من اعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء ابو الحسن الزنديوى وابو عبد الله ماغوش

الطبقة العشرون

قد ذكرنا فيما تقدم البعض من أخبار الحسن الحفصى ، ولنرجع لذكر بقيتها والاستيلاء العثمانى باختصار فنقول : ان الحسن لما ذهب لاسبانيا مستعينا بطاغيتها على فتح القيروان وخاب سعيه اغتنم ابنه ابو العباس فرصة مغيب والده وقدم من بونة وهو يومئذ عامل عليها الى تونس ودخل قصبتها على حين غفلة ولما اتصل الناس بخبره بايعوه وسار سيرة حسنة ولما بلغ والده خبره عظم عليه ذلك وبذل مالا جسيما للطاغية فوجه معه أسطولا لنصره ونزل بحلق الوادى ووقع القتال بين المسلمين والنصارى وكانت الدائرة على عسكر الطاغية وأما الحسن فر بجزيرة شكلى فأدركه أبو الهول أحد رؤساء الاعراب وأخذه وأتى به الى ابنه فاعتقله ثم أذهب بصره ثم فر وهو على تلك الحالة الى القيروان ومات هناك واستقل ابنه أبو العباس وظهرت كفاءته لولا هرم الدولة ثم قدم للحاضرة على باشا صاحب الجزائر واستولى عليها وأخذ البيعة للسلطان سليم ورتب حراستها ، وأما أبو العباس فانه فر بما خف من أهله وذخائره الى حلق الوادى وذلك سنة ٩٧٧ ولبثوا على ذلك ثلاث حجج فالعرب مالكة للضاحية والنصارى للثغور ثم جاء أسطول عظيم من قبل الطاغية بسعى من أبى العباس المذكور ولما وصل أطلعه قائده على كتاب من موجبه ومضمونه يعينه على طلبه بشرط المقاسمة فى الحكم والجباية فأنكر ذلك وأنف منه وانتقل الى بلرمو من صقلية وبها توفى ثم حمل الى مدفنه بزاوية

الشيخ الجلازى بالحاضرة . والشرط المذكور قبله أخوه محمد وآل الامر بعد ذلك الى دخوله الحاضرة مع العدو قاسمه الملك مقاسمة الغالب مع المغلوب واشتد الخطب بما آل بالمصائب العظيمة والنوائب الجسيمة على العباد والبلاد من هتك الاستار والعبث بالفساد حتى خرج أهل تونس الى الجبال والغابات والبوادى ونالهم من الجوع والعطش ماهو مبسوط فى كتب التاريخ تقشعر منه الجلود وعاثت عساكر الاسبان فى الارض وربطوا خيولهم بجامع الزيتونة واستباحوا مابه وبالمدارس من الكتب العلمية وألقوها فى الطرقات يدوسها العسكر بخيولهم وهذا هو السبب فى قلة وجود تآليف الفحول من هذا القطر فانها ذهبت شذر مذر وفى هاته الواقعة نبشوا قبر ولى الله أبى محفوظ محرز بن خلف وستر الله جسده الكريم فلم يجدوا به الا التراب الى غير ذلك مما ينبو عنه السماع ويبكى العيون دماً ويذيب القلوب ألما وفعلوا مثل ذلك بالمدائن المهدية والمنستير وغيرهما من المحارس والقصور تخريباً وقتلا وأسراً ومات نحو الثمانين ألفاً وأسر مثلها الطاغية المذكور ثم تداركها الله بالتفات السلطنة العثمانية فانقذتها من مخالب هذا الطاغية فى جمادى الاولى سنة ٩٨١ وهذا الفتح من أهم الفتوحات الاسلامية والمآثر الخالدة فى أفريقية لهاته الدولة السنية خلد الله ذكرها وأيد ملكها وفخرها وكان هذا الفتح على يد وزيرها الشايع الصيت المعروف بالفضل والنجدة والشجاعة والثبات والرأى الصائب والفكر الثاقب سنان باشا بعد قتال استشهد فيه الكثير من الابطال وأمراء الاجناد وكانت الدائرة على الاعداء والبغاة وظفر هذا الوزير بمحمد الحفصى المذكور واعتقله الى أن هلك في اعتقاله وانقرضت بانقراضه هاته الدولة ، والله سبحانه وتعالى الفعال لما يريد لا راد لأحكامه وأفعاله فكان ابتداؤها سنة ٦٠٣ وانقراضها سنة ٩٨١ وسبحان الباقي الذى لا يحول ولا يزول . والسبب فى ذلك هو ما أشرنا اليه فيما سلف ، وهو أنه لما فسدت طباعهم واختل حالهم وامتلأ صاعهم وكانت دولتهم على حالة الهرم واستغاثوا بأعداء الدين فكان مآلهم سلب النعم واحاطة النقم . فانظر واعتبر لحال هاته الدولة على ضعف ساحة أرضها ، وقلة أنهارها وأشجارها كيف ابتداءأمرها واتساع مجال ملكها وأملها من أملها من أهل المشرق والمغرب ومدوا اليها يد البيعة ودانوا لها بالطاعة ، واعتصموا بالانتساب الى سلطانها ، وأتته بيعة الاشراف من بيت الله تعالى وحرمه الآمن ومهبط الوحى حيث كانت أقرب الى خلال الخير وأثل ملوكها فى الحاضرة المصانع الواسعة والابنية النافعة كالزوايا فى الطرق لابناء السبيل والتكايا والمساجد والمدارس والمكاتب لقراءة القرآن العظيم ورتبوا الكتب العلمية فى أماكن محفوظة على قانون خاص اعانة لاهل العلم وطلابه والمستشفيات ، الى غير ذلك مما بقى أثره ولم ينس خبره . وفى أيامهم نفق سوق العلم وظهر من الراسخين فيه من هـذا القطر أعلام مصنفاتهم تشهد لهم بذلك . وكان من الحضارة بتونس ما اقتضاه طبع العمران والثروة وحال

البلاد بما لا ينافى سذاجة الدين فتوالت الوفود على سكنى هاته الحاضرة من سائر الجهات على اختلاف الملل والنحل والاصناف يجذبهم مغنطيس العدل فزادوا فى أسباب العمران من البناء والفراسة وغير ذلك . وانظر واعتبر كيف كانت عاقبة أمرها وانقلاب أحوالها بعد تلك القوة وعزة السلطان وعلو الكعب من انتقاض الجهات وكثرة الثوار واستطالة أيدى الاعراب فى البلاد بالنهب والبغى والفساد حتى استعان آخر ملوكهم بالعدو الاجنبى وآل أمره كالمسجون فى حجرة لا يملك الا موضع قدميه ثم الى سجنه وموته تحت أفعاله عقابا له وزجراً لامثاله الناسجين على منواله وما قررناه فى حق ملوك هاته الدولة وعلمائها هو ملخص ما أسلفناه

واعلم أن ملوك بنى أبي حفص كانوا يجلون العلماء ، ومجالسهم بهم عامرة وموائدهم مزدانة بهم باهرة وفى ذلك مصلحة لهم عظيمة ومنزلة رفيعة فخيمة اذ بوجودهم والالتفات اليهم وتعظيمهم تنشر راية العلم وتحفظ الشريعة المطهرة واللغة العربية الفصيحة . وكان غالبهم محافظاً على الشرع العزيز ممتثلا لاوامره . وكان بتونس أربعة قضاة قاضى الجماعة هو المعبر عنه فى الشرق بقاضى القضاة وكان بها مفتون منهم من يكون متصدراً لها كتابة ومنهم من يتصدر للاخبار فقط والاحكام جارية فى مجارى عزها الشامخ يرتاح لها ويخضع القوى والضعيف والامير والمأمور والخاصة والجمهور وتنفذ على يد قاضى الجماعة . وفى المائة التاسعة ظهرت رتبة المفتى وصارت أرفع درجة من رتبة القاضى واذا أشكل على القاضى بعث للمفتى يسأله . وكان هؤلاء الملوك يجلون يوم الخميس لاجتماع القاضى والمفتين بمجالسهم وتنفذ بين أيديهم الاحكام الشرعية فى كل اسبوع وكانت لهم عناية تامة واهتمام خاص بجمع الكتب العلمية على اختلاف أنواعها والتغالى فى اقتنائها وحفظها فى الخزائن بقصورهم للمطالعة وبالمدارس وجامع الزيتونة لنفع العموم بها وتقدمت الاشارة الى ذلك وانه كان فى خزانة أبى عبدالله المنتصر ستة وثلاثون الف مجلد وما وقع تحبيسه من أبى فارس وأبى عمرو وأبى عبد الله فليراجع فى محاله وفى الرزنامة التونسية أن جامع الزيتونة كان مستبحراً بالعلوم على اختلاف أنواعها عقلية ونقلية مقاصد ووسائل حتى كان يقال ان حذاء كل سارية من سواريه مدرساً وفى خزائنه ما يزيد على المائتى الف مجلد وأبو العباس عبد العزيز حبس وحده ما يزيد على الثلاثين الف مجلد ووضعها فى خزائن زين بها جامع الزيتونة حبسها على العلماء والمتعلمين وحبس عليها ما تحتاج اليه للاصلاح وعلى المناول والمتعهد لها أرضين وزياتين ونوه المؤرخون بشأنها . ثم تلاه السلطان أبو عمرو عثمان فجمع خزائن أخرى تقارب خزائن أبى فارس وبنى لها مقصورة متسعة وملأها بالخزائن وملأ الخزائن كتباً وحتى الآن تعرف بمقصورة الكتب وفى هذا الزمان يخزن بها الزيت وتلاهما السلطان أبو عبد الله محمد بن الحسن فبنى مقصورة متسعة وهى المعروفة بالعبدلية وملأها بالخزائن وملأ الخزائن كتباً وجعل نظرها لامام الجامع ثم على عبد آخر ملوكهم القيت تلك الكتب بالطرقات

فداستها أقدام الرجال وحوافر الخيل والبغال وذهبت شذر مذر وبقيت المدارس والمساجد خالية من كتب العلم وضعف العلم بذهاب رجاله وضعفت الدولة باستيلاء الطاغية . وانتهى الخبر عن هؤلاء باستيلاء العساكر التركية . وسنقص عليك خبرهم إن شاء الله

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء محمد خروف ومحمد الاندلسي وأحمد العيسى

الطبقة الحادية والعشرون

تقدم أن الدولة العثمانية احتلت افريقية سنة ٩٨١ ومن الواجب ذكر رجال هاته الدولة وما آل اليه حال افريقية بعد تلك النوائب والكوارث ليكون المطالع على بصيرة من ذلك فنقول اعلم ان بهذا الفتح رفع الله عن أهالى هذا الوطن النوائب والمصائب والأحن ولسان حالهم يقول الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن وذلك أنه لما مهد الوزير سنان الراحة وقطع دابر البغاة والمثيرين للفتن وعزم على الرجوع لدار الخلافة هو وأركان حربه وأمراء أجناده رتب عسكراً لحراسة البلاد وتأمينها وجعل على كل مائة أميراً يسمى الداى ومعناه بالعربية خال كناية عن تعظيم المنادى ورتب أمير لواء لضبط الوطن وجباية المال يسمى الباى ومعناه بالعربية العامل وعين لذلك رمضان باى وجعل النظر فى العسكر الى الآغا ومعناه السيد والنظر العام لحيدر باشا وخطب باسم السلطان سليم ابن السلطان سليمان وضرب السكة باسمه وسافر بعد ذلك لدار الخلافة واستمر الحال على ذلك الى أن ثار الجند على كبار الديوان سنة ٩٩٩ وطلبوا اقامة داى للنظر فى حال عموم العسكر وقدموا أحد ابطالهم ابراهيم رودسلى (آغا) فى تلك الخطة نحو الخمس حجج ولم يستتم له أمر وسافر للحج وتولى بعده موسى فمكث سنة وسافر للحج ثم تولى داياً عثمان داى وخرج لتمهيد النواحى وجباية المال ورتب قوانين الرعايا فى دفتر سموه بالميزان وباشر الامور بنفسه وكانت فيه شهامة وسياسة وشجاعة واتخذ الاساطيل وصار فى منعة من العدو وله آثار حميدة وكان على عهده طاعون جارف وعلى عهده فى سنة ١٠١٧ والسنة بعدها قدمت الامم الجالية من الاندلس فأوسع لهم العطاء وأباح لهم السكنى بالحاضرة وبلدان المملكة وبناء القرى فى أراض استعمروها فبنوا أكثر من عشرين قرية واغتبط بهم أهل الحاضرة وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم ولم يزل هذا الداى عزيزاً مطاعا الى أن توفى سنة ١٠١٩ ودفن بجوار الشيخ أحمد بن عروس وفى خلال مدته ارتفع صيت رمضان باى المذكور وعظمت كفاءته فى قمع الثوار وتمهيد الجهات وجباية الاموال واستخلف جماعة على الاعمال وسماهم بيات جمع باى

منهم رمضان هذا وحسين باى ومراد باى جد بنى مراد الآتى ذكرهم ولما توفى تولى عوضه دايا صهره يوسف وهو مشهور بالفضل والسؤدد وله آثار كثيرة شاهدة بذلك منها جامعه المعروف بجامع سيدى يوسف بسوق الترك ولم يزل حميد الحال حسن السيرة الى أن توفى سنة ١٠٤٧ عن سن عالية ودفن بجامعه المذكور ورمضان باى المذكور توفى سنة ١٠٢٢ وتولى مكانه مراد باى المذكور وكان ذا صرامة وكفاءة ثم سمت همته لرتبة الباشا فراسل فى ذلك الدولة العلية فأسعفته وأتاه التقليد ونزل لابنه حمودة عن سفر الامحال سنة ١٠٤١ وتوفى فى هذه السنة ودفن بتربة جوار الشيخ أحمد بن عروس

تنبيه

قد علمت ما حل بافريقية من المحن وان العلم ضعف بذهاب رجاله وبأثر ذلك وقع الاحتلال العثمانى فابتدأت حينئذ ترجع عمرانها وتستجد شبيبتها وصادف وفود مئات آلاف من الاندلس وجالية غرناطة وعمروا نيفاً وعشرين قرية بين كبيرة وصغيرة لكن التراجع كان بطيئا بالنسبة لبث العلوم لانه لما آل الأمر لهاته الدولة وكان الذين قدموا من الاتراك لافريقية غير منتظمى التصرف الا القليل منهم لم يقع منهم التفات لتدارك العلم الذى كاد أن يضمحل فى ذلك العهد ثم عاد لهذا القطر المأنوس ما انقطع عنه شيئا فشيئاً الى هذا الوقت على ترتيب الطبقات الآتية فكل طبقة هى أرقى من التى قبلها . قال الشيخ حمودة بن عبد العزيز فى باشيه خرج من الاندلس ألوف لفاس وألوف لوهران وتلمسان وجمهورهم جاء لتونس فعمروا بها القرى الخالية واستحدثوا قرى سكنوها واستقرت حاضرتهم بالحاضرة فاستحكمت فيهم الحضارة التى عوائدها مرتكزة فى طبائعهم واستحدثوا بها صناعة الشاشية التى تقصدها التجار من سائر الاقطار وقصدها الترك من بلاد الخلافة وغيرها ومن مصر فارتفعت بهم أوج العلا ووردت عليهم العلماء من الآفاق فتخرج بهم الكثير من العلماء وشرع أمراؤها فى اتخاذ المصانع وتوفير الملك . انتهى بتصرف واختصار . وقال قد كان العلم لاول دولة الترك مرتفعاً منها بالمرة حتى ورد عليها المولى أحمد افندى من أرض الروم فى أول المائة الحادية عشر على عهد عثمان داى وكان متفنناً فى العلوم فأخذ عنه جماعة من أهلها منهم الشيخ محمد الغماد وأبو يحيى الرصاع والشيخ محمد براو وارتحل للمغرب الاقصى وافداً على سلطانها مولاى أحمد الذهبى فوجده يقرئ المطول للمولى سعد الدين بالجامع كل يوم فأوسعه مبرة واكراما ثم عاد لتونس فكان يقول وجدت بجامع القرويين سبعة عشر كرسياً يقرأون التفسير وكلهم عن التفسير بمعزل الا ان ملكهم يفهم الخطاب ثم ارتحل بعد ذلك الى بلاده فكانت بها هاته الطبقة التى ذكرناها ومن عاصرهم كأبى الفضل عظوم وغيره وانتشر بها العلم . انتهى . وكانت القضاة تجيء الى تونس من دار الخلافة والغالب

عليهم العجمة ومذهبهم مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه فاحتاجوا حينئذ الى نائب يكون بين يدى القاضى فيكون بمثابة قاضى الخصومات والقاضى التركى بمثابة قاضى الجماعة واحتاجوا أيضاً لمجلس كما جرت به العادة فى دولة بنى أبى حفص يجعلونه بين يدى الباشا فى هذه الدولة وكان يحضر بالمجلس أربعة من المفتين والمراد من حضورهم الاخبار بالامور الشرعية اذا سئلوا عنها والقاضى ينفذها وأول من تصدر بتونس مفتياً حنفياً الشيخ أبو الحسن على الشريف وباحتلال الدولة التركية أخذ المذهب الحنفى فى الظهور بعد انقطاعه من مدة المعز الصنهاجى حسبما تقدمت الاشارة الى ذلك فى ترجمته

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء أبو الفضل عظوم وأبو النجاة النفاتى وأبو الغيث القشاش وأبو الحسن الرصاع وتاج العارفين البكرى

الطبقة الثانية والعشرون

لما توفى مراد باشا المذكور سنة ١٠٤١ قام مقامه ابنه حمودة باشا فمهد الامور ورتبها أحسن ترتيب وكان كريماً حسن السيرة والتدبير محباً للعلماء مقربا لهم مؤثراً مجالستهم ومباحثتهم شجاعا قمع الثوار ودوخ جميع العرب ورتب أوجاق الصبايحية بتونس والقيروان وباجة والكاف لتأمين السبل واتسعت الجباية وله مآثر مأثورة وآثار ضخمة مشهورة منها بناؤه الجامع المشهور قرب ضريح الشيخ أحمد بن عروس ومنارته الغريبة الشكل العجيبة الانشاء لانظير لها فى المغرب ومنها المستشفى بحومة العزافين واعتنى بتشييد باردو أحد منتزهات بنى أبى حفص وطلب من الدولة العلية تقليد منصب الباشا فأتاه سنة ١٠٦٨ ونزل عن سفر الامحال لابنه مراد واستخلفه مكانه وعقد لابنه محمد الحفصى على القيروان وسوسة والمنستير وصفاقس وعقد لابنه حسن على باجة وفى آخر الامر طلب الاستعفاء فأعفى ومال للراحة وتخلى عن البلاد لاولاده الى أن توفى فى شوال سنة ١٠٧٦ ومن شعرائه أبو عبد الله محمد العروى السوسى وله فيه القصائد الطنانة وكان أديب وقته وشاعره من غير مدافع وله ابن نجيب قدمه والده فى حياته للفتيا وكان يروى البخارى بحضرة والده لمجلس الباشا والحاصل ان هذا الباشا حسنة من حسنات الزمان وهو المؤسس المجد لبنيه والآثار الخالدة بعده ولما توفى استقل بالامر بعده ابنه مراد باى المذكور وانفرد بالكلمة واستقام أمره وضعف أمر الدايات فى وقته وصاروا أتباعا له وسنذكر أسماء الدايات فى فصل خاص . ومن مآثره المدرسة المنسوبة له غربى الجامع الاعظم وأول مدرس

أقيم بها الشيخ محمد الغماد وتوفى سنة ١٠٨٦ وبويع لابنه الاكبر محمد ثم ان عمه محمد الحفصى أغرى أخاه علياً بطلب المشاركة فاصغى له وطلبها فأنف محمد من ذلك ولهذا الخلاف اتفق الاعيان على أن يكون الامير العم محمد الحفصى وبايعوه بعد خلع محمد المذكور وفراره للكاف وذلك فى رجب من السنة ١٠٨٦ ونفذت أوامره بعد ذلك ثم اضطرب أمره وأشهد على نفسه بالخلع وراسل محمداً بذلك وقدم الحاضرة وجددت له البيعة بباردو فى شوال من السنة وتوجه العم بعد ذلك للاستانة وأما على فانه توجه لقسنطينة وأخذ فى جمع الجنود لقتال أخيه ثم قدم العم من الاستانة ومعه سبعة مراكب مشحونة بالعساكر ومتقلداً منصب الباشا من السلطان محمد خان فجمع محمد باى أهل الحل والعقد بجامع الزيتونة للنظر فى هاته النازلة وكان من أمرهم الاتفاق على رد العم وكاتبوا الدولة بأن سبب عدم قبوله هو عدم أهليته وبناء على ذلك رجع العم لدار الخلافة وكان من أمره ما سنذكره وأما على فانه قدم بجند من الاعراب وخرج له أخوه محمد فى جنده ووقع القتال بينهم فكانت الهزيمة على محمد وفر الى الكاف ودخل على لتونس وتمت له البيعة وبعد ذلك وقعت بينه وبين أخيه حروب واضطرب الحال وبيناهم كذلك اذ قدم العم محمد الحفصى من دار الخلافة متقلداً منصب الباشا من السلطان محمد أيضاً ودخل الحاضرة فى حفل عظيم ووفد عليه على وهنأه بذلك وصارا على وفاق ثم صارت بينهما وحشة وخرج العم لقتاله باتفاق مع أخيه محمد وبعد قتال كانت الهزيمة عليهما وفرّ العم للقيروان والاخ للمنستير وفى أثناء ذلك قدم صاحب الجزائر لاطفاء نار الفتنة وعقد الصلح بين الثلاثة وانعقد على تمليك على واقامة العم باشا تبعاً لامر السلطان واستقرار محمد بالقيروان ويبقى ابنه أحمد رهنا عند عمه على وبناء على ذلك رجع على والعم للحاضرة ثم صدر الاذن من الدولة العلية سنة ١٠٩٠ بابعاد العم لارض الروم وأبعد لتلك الجهة الى أن توفى سنة ١٠٩٧ وصفا الجو لعلى ثم أساء السيرة بعد ذلك وتحرك له أخوه محمد فى جموع ووقع القتال وفى أثناء القتال اغتال على ابن أخيه الرهين وفرّ الى الكاف واتبعه أخوه محمد بحملة عظيمة وانضمت له حملة الجزائر يين الذين جاءوا لنصره وفرّ على لصفاقس بعد انهزامه ودخل محمد الحاضرة ولما رأى مايثمر باستبداد الرأى راسل أخاه علياً فى الصلح واصطلحا على مقاسمة البلاد فكانت حصة محمد باجة والقيروان والمنستير وحصة على الكاف وسلات وسوسة وبقية الساحل وارتحل محمد لتلقيه وعزما على قتال الداى حيث استبد بالحاضرة وهو أحمد شلبى وخرج هذا الداى بحملة لقتال محمد وآلت بعد القتال بانهزام محمد وراسل الاخوان بعد ذلك صاحب الجزائر ابراهيم خوجه واشترطا له شروطاً على اعانتهما فخرج بنفسه فى حملة وعامل قسنطينة فى حملة أخرى وسار اليه الاخوان واجتمعوا بالحريرية وألحوا فى الحصار على تونس الى أن استولوا عليها وأسروا الداى شلبى وجددت البيعة للاخوين وذلك فى رجب سنة ١٠٩٧ وولوا الحاج بقطاش دايا وبعد أيام قلائل ظهر للجند عدم امكان الشركة ونادوا بلسان واحد بولاية محمد وقتلوا علياً وأحمد شلبى وارتحل

بعد ذلك الجزائريون بعد توصلهم بما اشترطوا وانفرد محمد باى بالامر وصفا له الجو وخرج لتدويخ النواحى وجباية الاموال وتأمين السبل ثم ثار عليه محمد بن شكر ووقعت له حروب معه آل الامر الى انهزامه وفراره للصحراء واستولى على تونس وسائر البلاد باعانة من صاحب الجزائر وتصرف فى العباد بالقتل والنهب والفساد وآسف الناس فراق محمد باى واستكانوا تحت سطوة هذا الجبار ثم ثار عليه أهل سوسة والقيروان وبعثوا لمحمد باى ينادونه وقدم وانضم اليه خلائق لا يحصون وخرج اليه ابن شكر فالتقوا على وادى برق الليل فكانت الدائرة على ابن شكر ومات مذموما مدحورا وذلك سنة ١١٠٦ واستولى محمد باى على جميع ما معه ودخل القيروان ثم تونس وسر الناس بقدومه واستبشروا وهادن صاحب الجزائر بواسطة الولى العالم الشيخ على عزوز ومن مآثره المبانى الضخمة القاطعة بعلو مقداره منها جامعه الفخيم البديع المنظر والشكل امام ضريح ولى الله الشيخ محرز ومات قبل اتمامه فاتمه أخوه رمضان باى وله مدارس بالكاف وباجة والقيروان ونفطة وتوزر وقابس واسواق الشواشية الثلاث والزيادة فى قصور باردو والقنطرة على وادى مجردة وأقام على بنائها بنفسه وهى شاهدة له بالمزية العظيمة والرتبة الشامخة وكان مؤثرا للعدل والانصاف قامعا لاهل الجور والظلم من عماله وعساكره محبا لاهل الفضل والعلم وبقى فى أمن ودعة الى أن وافاه أجله فى ربيع الانور سنة ١١٠٨ وعظم المصاب به وفى مدة أخيه على انهى صاحب المونس تاريخه وقد استوفى فى مونسه أخبار رجال هاته الدولة وعلمائها وكانت مشاهدة عيان كما استوفاها الشيخ حمودة بن عبد العزيز فى باشيه

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء أبو الحسن النفاتى وأبو بكر البكرى وأبو الفضل المسراتى وأبو العباس الشريف وأبو الحسن الغماد

الطبقة الثالثة والعشرون

لما توفى الامير محمد باى سنة ١١٠٨ تمت البيعة لاخيه رمضان فاقر الناس على مراتبهم ومهد البلاد وجبى الاموال وكان عاكفاً على الملاهى ، وكان له مغن اسمه مزهود استولى عليه وفوض أمره اليه وأقبل على لهوه وتصرف مزهود بالقتل وغيره وتمادى على ذلك حتى قتل العلامة حمودة ابن الشيخ محمد فتاته افتياتاً على سيده فنفرتهما القلوب وارتفعت الاكف بالدعاء بهلاكهما فهلكا وسنقص عليك خبرهما ، وكانت أم رمضان كافرة ماتت على دينها فبنى لها الكنيسة قرب باب قرطاجنة ودفنها بها والشيخ حمودة المذكور كان مختصاً برمضان باى قبل

الولاية وبعدها سفراً وحضراً لحسن محاضراته ولطف آدابه ووثوق علمه وذوقه وفهمه . ثم سعى مزهود فى ابعاده عنه وخلا له الجو وكان فى عهد الامام تاج العارفين البكرى وابنه أبى بكر يقع تدريس البخارى بجامع الزيتونة رواية ودراية فى رجب وشعبان ورمضان الى السادس والعشرين منه ولما توفى أبو بكر تغيرت تلك القاعدة وصارت رواية لا غير تبركا الان ولديه أبا الغيث وأبا الحسن لم يبلغا مبلغ والدهما وجدهما ولما أبعد الشيخ حمودة المذكور عن رمضان باى رجع لاصله وتصدى لاقرائه دراية وغيره من العلوم بالجامع على حين لم يكن به من يقرأه دراية وكان راويه يومئذ الشيخ محمد زيتون فاجتمع عليه خلائق لا يحصون وصار له بذلك صيت . ولما رأى مزهود ذلك تغير وأرسل الى أبى الغيث المذكور امام جامع الزيتونة ليمنعه من اقراء الحديث بالجامع اذ ربما يؤول به الامر الى طلب الامامة بالجامع فارسل له أبو الغيث بابطال درس الحديث وأظهر الغضب منه حيث لم يمتثل لابطاله بعدم اقامة صلاة العصر بالجامع فلم يمتثل لابطاله وانتقل لاقرائه بمسجد سوق البلاط فازداد مزهود بذلك بغضه وأغرى به رمضان باى ومنعه من الخروج من داره ولم يكفه ذلك حتى أرسل اليه حرساً هجموا على دار الشيخ وأخرجوه بترويع أمه وأبيه وأهله وبنيه وأوقعوا به ما بلغ به الشهادة ولاقى من الله الحسنى وزيادة . ورمضان باى لاعلم له بشيء من ذلك غير أنه لما بلغه الخبر لم ينكر على مزهود ولا عاتبه . وجمع مزهود فى تلك الليلة طائفة من الاوباش أصحابه وصنع صنيعاً اجتمعوا فيه على كل فاحشة فرحا بقتل الشيخ وكان قتله سنة ١١٠٩ من الاهوال العظيمة والمصائب الجسيمة وتأسف عليه والده العالم المشهور والخاصة والجمهور . وقابلوا تلك المصيبة بالصبر والابتهال بالدعاء الى الكبير المتعال عليه وعلى سيده وتوسل والده فى دعائه بسيد الانام عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام فى قصيدة أولها :

اليك رسول الله وجهت آمالى وألقيت يا سؤلى ببابك أحمالى

فاستجاب الله دعاءهم فلم يمض قليل من الاشهر حتى شتت الله أمر مزهود وسيده وأشياعه كما سنذكره إن شاء الله وذلك أنه لما قتل الامير الباشا أبو الحسن على ترك ابناً اسمه مراد تحت كفالة عمه محمد باشا ثم تحت عمه رمضان المذكور ثم خوفه منه مزهود وأشار عليه بالقبض عليه فحبسه وسمل عينيه وعالجه طبيب سراً وفرّ من السجن لسوسة وقام بقصره بعد ذلك أهل رسلات وغيرهم ومالت الجموع اليه وبايعوه فى رمضان سنة ١١١٠ ووجه حينئذ من أخرج رمضان وقتله ثم أحرقه وألقى رماده فى البحر فلا خبر له وكانت مدته ثلاثين شهراً فأعمل أولا السيف فى مزهود وشيعته وعزل أبا الغيث البكرى عن الامامة ثم أقبل على سيرته الشهيرة من قتل الانسان والحيوان وانتهاك الحرمات والمجاهرة بالفواحش وقتل بنفسه الشيخ المفتى محمد العوانى الشريف وشوى من لحمه وأكله مع ندمائه ولما أراد قتله قال له أنصحك أن من قتل عالما آيس

من الحياة وفعل بغيره مثل ذلك وقد نزع الله من قلبه الرحمة يؤتى اليه بالرجل فيقوم اليه بنفسه ويجذبه ويقطع أعضاءه ويشق بطنه ويدخل يده لاخراج أمعائه وكبده وكان له سيف يسمى البالة فلا يكاد يخليه يوماً من اراقة دم واذا لم يقتل أحداً يقول ان البالة جاعت فيقتل من يعرض له وله حروب مع الجزائريين كانت الدائرة فيها عليه « وعلى الباغى تدور الدوائر » ولم يستقم له حال الى أن أفتك به ابراهيم الشريف بمواطأة من أمراء الجند وذلك فى محرم سنة ١١١٣ وأرسل من قتل بقية آل مراد وكانت مدته ثلاثة أعوام وأربعة أشهر وانقرضت بانقراضه دولة آل مراد وكانت مدتها الف شهر

تنبيه

اعلم أن الخلق عيال الله ومتى استعمل على الرعية الاراذل والسفهاء وأهل البطالة والاعلان بالشهوات كان ذلك داعياً الى فساد نياتهم وضعف دياناتهم وانهماكهم فى شهواتهم . فى سراج الملوك : أقوى الاسباب فى اصلاحهم أن يستعمل عليهم الخاصة منهم وذوى الاحكام الراجحة والمروءات القائمة والاذيال الطاهرة فمتى كانت رياسة العامة بيد سراتهم حصلت سعادتهم

لا تصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا

وفيه : ان أدعى خصال السلطان الى صلاح الرعية وأقواها أثراً فى تمسكهم بأديانهم وحفظهم لمروآتهم اصلاح السلطان نفسه وتنزهه عن سفاسف الاخلاق وبعده عن مواضع الريب وترفيع نفسه عن استصحاب أهل البطالة والمجون واللعب واللهو والاعلان بالفسوق

اذا غدا ملك باللهو مشتغلا فاحكم على ملكه بالويل والحرب
أما ترى الشمس فى الميزان هابطة لما غدا وهو برج اللهو والطرب

رجوع وانعطاف

لما أفتك ابراهيم الشريف بمراد بايعه رؤساء الاجناد وقدم الحاضرة وتم له الأمر وجاءه تقليد منصب الباشا وكان كاهيته المولى حسين بن على تركى وله حروب مع الجزائريين وغيرهم وأخيراً هزموه وأسروه فكانت ولايته ثلاثة أعوام وشهرين وكانت سيرته أولا حسنة ثم طفق فى ظلم الرعية فذبح أبناءهم ونساءهم واستصفى أموالهم وكاد أن يستأصل العرب راجلهم وخيلهم لشدة بغضه لهم ولظلمه لم تطل مدته ولو دامت لاهلك الحرث والنسل ومعلوم أن الظلم اذا دام دمر والعدل اذا دام عمر . قال أبو العتاهية :

أما والله ان الظلم لوم ولكن المسىء هو الظلوم

الى ديّان يوم الدين نمضى وعند الله تجتمع الخصوم
سل الايام عن أمم تقضت فتخبرك المعالم والرسوم

ولما وقع بابراهيم الشريف ما ذكرناه وقع الاتفاق على تولية كاهيته حسين بن على تركى وقبلها بالزام بعد تمنع وتمت له البيعة فى ربيع الانور سنة ١١١٧ . كان والده على تركى وبه يلقب قدم من جزيرة كندية الى الحاضرة فى أوائل دولة بنى مراد فولاه قيادة أزمة الاعراب وكان من أهل الكفاءة والنجدة وتوفي سنة ١١١٣ ونشأ ابنه المذكور فى خدمة الامراء المراديين وتقلد الولايات الجليلة وتسنم الخطط الرفيعة كخطة خزنة دار وكاهية الخلافة وولاية الاعراض والجريد وهو بانى الملك الحسيني جعلها الله كلمة باقية فى عقبه أبد الآبدين . توارث الملك بنوه كابراً عن كابر الى هذا الوقت على الترتيب الآتى بيانه وله حروب مع القائمين عليه كان الظفر حليفه ورسخت قدمه وكانت أيامه مواسم ثم ثار عليه كفيله ابن أخيه على باشا ابن محمد ابن على تركى . كانت ولادته سنة١١٠١ فتبناه عمه الامير المذكور وأحسن تربيته وتهذيبه وليس له اذ ذاك أولاد وأولاه أمير أمراء الامحال سنة ١١١٨ وزوجه ابنته وأجراه مجرى الاولاد الى أن وهب الله له ولياً من لدنه يرث ملكه فولد له المولى محمد باى ولما بلغ من العمر خمسة عشر عاما أولاه باى الامحال وأولى ابن تربيته باشا فأنف على باشا من ذلك وهرب هو وابنه يونس الى وسلات وذلك سنة ١١٤٠ وخرج عمه لقتاله آل أمره لفراره مع ابنه للجزائر وساءت حاله ثم أمده صاحب الجزائر بعسكر قدم به سنة١١٤٧ ولما قدم هذا العسكر الحاضرة خرج الامير بعسكره ووقع القتال بين العسكرين آل الامر بانهزام الامير وفراره الى القيروان ولحق به أبناؤه واعتصموا بها ودخل غالب بلاد الساحل فى طاعتهم ودامت الحرب بينهم وباشر أكثرها يونس باى ولما ضاق الخناق على أهل القيروان بطول الحصار خرج الامير منها بمن بقى معه وباثر خروجه استشهد وذلك فى صفر سنة ١١٥٣ وحمل ودفن بتربته بالحاضرة وأما أبناؤه فانهم توجهوا للمغرب وسيأتى خبرهم وهذا الامير هو الذى أحيا رسوم العلم بعد اعفائها وأيقظ أجفان طلبته بعد اغفائها بالتفاته الى أهل العلم بالصلات المتوالية والاكرام لهم والتعظيم والجالة وله فى التزام الاحكام الشرعية قدم راسخة بحمل العامة والخاصة عليها فيما يجرى بينهم من المعاملات وكانت أيامه كالخصب بعد الجدب والامن بعد الرعب والسلم بعد الحرب سعدت المملكة وأهلها به وامتلأت أيديهم بالمكاسب فأثاروا الارض وعمروها وأغرى عن العمل ما قوى به الامل ووقع التنافس فى الصنائع وغيرها مما هو محمود والناس على دين ملوكهم وفى أيامه كان سوق العلم نافقاً والعلماء الفحول كثيرون منهم الشيخ محمد زيتونة المذكور كان يبعث اليه ويستشيره فكان اذا أتاه يخرج اليه لتلقية خارج البيت ويأخذ بيده ويقوده ويجلسه حذوه ولا يحضر معهما ثالث فى الغالب ومن مآثره الجليلة احياء مدينة القيروان

ومساجدها وزواياها وبناء مدرسة النخلة والمدرسة الحسينية وجامعه الشهير وأول صلاة أقيمت به ظهر يوم الاحد رابع عشر شوال سنة ١١٢٩ وأنشأ مدارس بصفاقس ونفطة والقيروان وفسقية الملاسين وغير ذلك مما هو كثير وقد ذكرت ترجمته مفردة ومضافة وأتى على أكثرها أبو عبد الله محمد سعادة فى كتابه المسمى بقرة العين فى فضائل الامير حسين والمؤرخ الشيخ حسين خوجة المتوفى سنة ١١٦٩ فى تاريخه بشائر أهل الايمان والشيخ عبد الرحمن الجامعى فى الدرر المديحية فى الدولة الحسينية والوزير حمودة بن عبد العزيز فى باشيه قال فيه قد ألم أبو عبد الله محمد الوزير السراج فى حلله السندسية باخبار المولى حسين بن على باى بلغ فيه الى سنة ١١٤٤ غير ان الجزء الرابع أحرقه على باشا لما اشتمل عليه من ان القصد منه فى قيامه على عمه بجبل وسلات فلا يوجد منه عين ولا أثر . انتهى وفى الاستطلاعات البريزية اتفق لى أنى تذاكرت مع أحد علماء باريز فى التواريخ العربية المختصة بالمملكة التونسية ومنها تاريخ الوزير السراج وانه لاتوجد منه نسخة كاملة عندنا لوقوع احراق الجزء الاخير ولما ذكرت له ذلك أطلعنى على ديوان كتب مكتبة المونيك فى الباڤوره من ألمانيا فاذا به نسخة تامة مؤلفة من أربع مجلدات

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء سعيد الشريف ومحمد قويسم ومحمد الغماد ومحمد فتاتة وعلى النورى وعبد العزيز الفورانى وابراهيم الجمنى ومحمد زيتونة والوزير السراج ومحمد الخضراوى

الطبقة الرابعة والعشرون

لما بلغ أهل الحاضرة انهزام الامير الباشا حسين فى الواقعة التى قدمنا ذكرها بايعوا ابن أخيه الامير الباشا على باى فى صفر سنة ١١٤٨ ولما استقل بالامر أرهف الحد وحكم السيف فى شيعة عمه واشتدت سطوته وعظم سلطانه وصادر الامة بالمال الكثير وعرضت فى مدته محاربات فاز فيها بالظفر ووقعت بينه وبين دولة فرانسا وحشة آلت الى صلح وفى سنة ١١٥٩ قدم الاخوة أبناء الامير حسين من الجزائر ومعهم محلة أميرها باى قسنطينة الى الكاف وامتدت أعناق الآمال الى الاسعاف ووافتهم جموع العرب بالمدد وبالرجال والعدد لولا ما غدر به أمير المحلة فردها بدون كبير قتال وغره فى ذلك ما وصله من المال وتفرقت جموع الحاشدين وأسفوا من شماتة الحاسدين ومات من شدة الاسف أحد أبناء الامير محمود وكان بطلا مقداما شهما هماما ثم تفرقت كلمة أبناء على باشا بسبب الحسد وأدت هاته التفرقة الى حصول وحشة بين الامير

يونس ووالده وبسبب ذلك باشر السعي بنفسه بمعاضدة ابنه سليمان ويونس بعد بالعراء ثم قام على أبيه وانقسم الناس الى قسمين قسم مع الباشا وقسم مع ابنه يونس وقامت الحرب على ساق داخل الحاضرة وصوبت المدافع على الدور والمساجد والجوامع ونال الناس الرعب من كور المدافع وأصابت قنبلة سارية من سواري جامع الزيتونة وعظم الخطب وآل الامر الى انخذال يونس وفراره الى قسنطينة ثم ان ثالث الاخوة محمد فوق سهمه لاخيه سليمان لما خشي من وراثته الملك بعد أبيه لما يرى لابيه من ايثاره عليه لما فيه من الاهلية فعاجله بالاطعام فرض أسبوعا وفاضت نفسه على حين لم يكن والده متوقعاً ذلك فتوفي مسموما سنة ١١٦٨ وأعلم أبوه بصنيعه بأخيه وتحقق ان الله أذاقه بأس ولده محمد لاعدامه لعضدى نصرته يونس بالفرار وسليمان بالممات وكان ذلك من مبادئ انتقام الله منه والله عزيز ذو انتقام ولازمه الاسف. وهذا الباشا كان مع سفكه للدماء وامتهانه للخاصة واضراره للمملكة بمظالمه معدوداً من العلماء وله شرح مهم على تسهيل ابن مالك ويقال ان شيخه أبا عبد الله الخضراوي كانت له يد في تأليفه وقرظه علماء عصره منهم أبو الحسن على البارع بقوله :

لله شرح للامير موضح لم يتصف بصعوبة التلويح
سهل التناول بالخفاء مصرح قد فاق في التسهيل والتصريح
فاذا افتقرت الى كتاب موضح فكتابه المغنى عن التصريح

وله ولوع بجمع الكتب واكتسابها وله مآثر جليلة منها تربته التي بالقشاشين ومدرسته الباشية والسليمانية نسبة لولده سليمان وقدم لمشيختها الشيخ محمد الغرياني وهاته الابنية حول الجامع الاعظم ومدرسة بير الاحجار ومدرسة حوانيت عاشور وقدم لمشيختها الشيخ عبد الله السوسي وأوقف على جميع ذلك أوقافا وجعل جرايات للشيوخ والتلامذة اعانة على طلب العلم الشريف واعتنى بتحصين البلاد وجهز الثغور وأجرى السقايات العظيمة النفع وهدم الحانات ومنع بيع العنب لمن يعصره خمرا وبنى مباني ضخمة بباردو ولما امتلأ مكياله ولاقى من عقوق بنيه ماصنعه لعمه جزاء وفاقا وقيدته هموم فقد ولديه وصارت النفوس شعاعا من تصرفات ابنه محمد باي حنوا الى بنى ملكهم حنين الغريب الى الوطن وكاتبهم الكثير من أهل الحل والعقد يحثونهم على القدوم للقيام بشأنهم فقدموا ومعهم محلة من الجزائر بما انضم اليهم من العشائر حتى نزلوا قبلي الحاضرة ولج الباشا وابنه محمد في القتال حتى انهزما معا وقتل محمد قرب الملاسين وأسر الباشا ثم قتل بعد أيام في ذي الحجة سنة ١١٦٩ وقد استكمل استقصاء خبره وخبر عمه وأبناء عمه المؤرخ الشيخ محمد بن يوسف الحنفي الباجي في تاريخه المسمى المشرع الملكي بدولة ابناء على تركي ودفن بتربته ورثاه كاتبه الشاعر المفلق محمد الورغي بقوله:

مضت دولة الباشا على كأنه من الدهر يوما في البرية ماعاشا
أتته المنايا وهو في عظم قوة وجيش كثيف مثله قط ما جاشا

فصار دفينا بعد ما كان دافنا   فقلت وقد أرخته دفن الباشا

وباثر ذلك دخل الحاضرة الامير الباشا محمد بن حسين باى وأخوه على فى يوم مشهود خفقت فيه الرايات والبنود فى ذى الحجة سنة ١١٦٩ فهرعت الخاصة والعامة الى بيعتهما واطمأنت الانفس وقرت العيون بعود الدر الى معدنه وجلس محمد على كرسى المملكة فزانه بعدله واحسانه وكان من سمحاء الملوك وصدور الادباء وفحول الشعراء له ديوان شعر بديع وقصائد نبوية وتوسلية تدل على حسن وثوقه بالله وأوليائه اما قصيدتاه الميمية والقافية فهما غاية فى الابداع وقد سمى أولاهما محركات السواكن الى أشرف الاماكن ومطلعها :

هل زورة تشفى فؤاد متيم   يا أهل مكة والحطيم وزمزم

وشرحها قاضى محلته وأستاذه الشيخ محمد بن محمد الشافعى الشريف بجزئين ضخمين التزم فى شرح كل بيت منها خمسة فنون اللغة والنحو والمعانى والبيان والبديع فهو شرح مشحون علما وأدبا وأما القصيدة القافية فشرحها الشيخ صالح الكواش وقيل ابنه محمد الكواش وكانت أيامه على قصرها مواسم بواسم وتوفى فى جمادى الثانية سنة ١١٧٢ ورثاه الشيخ محمد الورغى المذكور بقصيدة مطلعها :

هـذا ضريح للامام الامجـد   فخر الملوك السيد ابن السيد

وآخرها :

بشرى له اذ جاء فى تاريخه   ياحسن حور زينت لمحمـد

وأطال الثناء عليه الوزير حموده بن عبد العزيز فى باشيه بما هو أهله وبعد انتقاله للدار الآخرة اجتمع أهل الحل والعقد على بيعة أخيه الامير الباشا على ولما تمت له أقر رجال دولة أخيه على مناصبهم وقرر الامور على ما كانت عليه واستعمل من الرفق والحنان ما جلب به جمع القلوب واصطفى بمجلسه العلماء ودخل فى زمرتهم مايوسعهم برا واكراما مؤديا لحقوق احترامهم الواجب مع ماله من الذكاء والمشاركة فى العلوم وحب المجاورة وملازمة صحيح البخارى بنفسه وحصل على اجازات عامة من الشيخ عبد الحفيظ تلميذ الشيخ أحمد بن نصر وغيره وبالجملة فانه كان ملكا شجاعا عاقلا ذا صيانة وعفاف ونجدة وحلم وكرم أقام فى دولته سوق العلم والادب فكثرت فيه الشعراء وتنافسوا فى مدائحه بدواوين من الشعر وأولاهم من الجوائز والصلات ما هو كثير أفرد له وزيره أبو محمد حموده بن عبد العزيز تأليفه الباشى فى مجلد ضخم جمع فيه مفاخر مملكته ودولته واستوفى من خصاله الحميدة وقصائد مديحه مالم يحطه غيره من المؤرخين وفى سنة ١١٧٣ ثار عليه اسماعيل ابن الامير يونس وتحصن بجبال شعنهم من قبل وكانت له حروب معه شاقة بجبال وسلات وآل الامر الى فراره وانحلال عرى عصابة أهل وسلات وبعد مادانوا له بالطاعة فرقهم على قرى افريقية وأصبح جبلهم خاويا على عروشه من يومئذ الى هذا العهد وأما اسماعيل المذكور فانه فر الى الجزائر وتوفى هناك سنة ١١٨٤ ووقع بينه وبين دولة فرانسا حرب ثم وقع صلح بينهما

ومن مآثره الاثيرة الخالدة مدرسته الشهيرة وتربته حذوها وهي مدفن آل هذا البيت الى هـذا العهد ومنهاتـكيتان مشهورتان للفقراء والمساكين وبناء المحكمة الشرعية والمياه العذبة التي اجراها للحاضرة وبناء سور القيروان ونظم مكتبة بالكتب أنيقة بمسجد دار الباشا حصل بها النفع وغير ذلك ومن مآثره بالمنستير الاصلاحات بالجامع الاعظم وتأسيس الجامع الحنفي وبناء سور الربط الجوفي وبناء مقام الامام المازري بعد نقله من مدفنه الاول واقامة مدرس به وبناء مقام أبي على يونس بن السماط بعد نقله أيضا من مدفنه الاول وفي أيامه وقع ابطال تولية القضاء من الحضرة العلية ونصب قاضياً حنفياً من الحاضرة وقاضياً مالـكياً يفصلان ما خف من القضايا وبراسلان بما أشكل عليهما المفتين من المذهبين ويعقد في كل أسبوع مجلساً لفصل تلك القضايا ومن مفاخره تعطيل الخمر والتنكيل بالخمارين وهدم الحانات واجراء الصدقات وعهد بالولاية لابنه حمودة وراسل الدولة العلية في ذلك وجاءته الخلعة والتقليد في محرم سنة ١١٩١ وتمت له البيعة وتوفى آمن السرب عالى الـكعب سنة ١١٩٦

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء حمودة الريكلي ومحمد سعادة ومحمد الشحمي وقاسم المحجوب ومحمد الغرياني ومحمد الورغي ومحمد بن سعيد ومحمد الطوير

الطبقة الخامسة والعشرون

لما تخلى المولى على باشا عن الملك لابنه حمودة بايعه أهل الحل والعقد في التاريخ المذكور فاستقام أمره ورسخت قدمه وكان والده بلغ الغاية في تربيته وتهذيبه وتأهيله للامارة على يد فحول من علماء دولته عارفين بالرياسة والسياسة منهم وزيره حمودة بن عبد العزيز فنشأ في دوحة الامارة شهماً ورمى في كل غرض من أغراضه سهماً فـكان في سلسلة الجيد الحسيني واسطة عقد ودرة يتيمة ذا همة باذخة وحال شامخة حازماً حامياً للذمار غير متحمل للعار خبيراً بسياسة البلاد نصوحاً لها حسن التدبير محباً للعلماء والصالحين يباشر المهات بنفسه مقتصداً في شخصياته حافظاً لاموال المسلمين عن غير مصالحهم لا تأخذه في الله لومة لائم وحارب البلنسيان سنة ١٢٠٤ ثم انفصل معهم على صلح وأرسل وزيره يوسف صاحب الطابع الى دار الخلافة فاحكم وصلته معها سنة ١٢١٠ وفي سنة ١٢١٨ لما كانت مجاعة كبرى بافريقية وجه العالم الطائر الصيت الشيخ ابراهيم الرياحي لحاضرة فاس بمكتوب الى سلطانها الشريف المولى سليمان في استمداد الميرة فأعظم السلطان مقدمه وأمده بمطلبه . وتقدمت الاشارة الى ذلك في ترجمة هذا الشيخ

وكانت له حروب مع الجزائريين آلت بانهزام جيشه ، ولما بلغه خبر الهزيمة هاله الامر فنهض رجال دولته كالوزير يوسف صاحب الطابع ومن تابعه من الوجوه كالهمام محمد الجلولى وهوّنوا عليه الخطب وجهزوا فى الحين من أموالهم محالا أخرى وخرجت تلك الامحال لنظر وزيرهم المذكور فى احتفال مشهود فى أفخم شارة وأحسن زى والتقى بجيش الجزائريين وبعد قتال انتصر هذا الوزير واستولى على محلاتهم بما حوت من الذخائر والنفائس ورجع مؤيداً منصوراً غانماً فى ربيع الأنور سنة ١٢٢٢ وزينت البلاد وتوالت الافراح ومن ذلك اليوم نزعت البلاد أطمار مهانة الجزائريين ولبست ثياب العز وأصبحت رافلة فى جلابيب أمنها وهو الذى حكّم المذهب المالكى فى ثبوت الاهلة وكان يشق على المتعمقين من مقلديه تقليد المذهب الحنفى حتى كانوا يصومون ويفطرون سراً اذا لم يكن ثبوت ذلك على قواعد مذهبهم وهم السواد الاعظم قال : كلهم على هدى من ربهم : رحمة وحسبنا تقليد امام دار الهجرة لا سيما وأهل مذهبه هم السواد الاعظم فى المملكة فأمر القاضى المالكى بمباشرة ذلك ولم يزل العمل جارياً بذلك الى هذا العهد ، وله مآثر كثيرة كالابراج الضخمة والقشل الكثيرة داخل الحاضرة وخارجها والسوق القريب من سوق الترك ، وقصره المطل عليه البالغ الغاية فى الاحتفال وهو من أفخم الآثار يباهى به فى الاقطار ، وكانت له أساطيل لنكاية العدو فى غاية المنعة وبالجملة فان هذا الامير تصرف فى المملكة تصرف الاب الشفوق على أبنائه ، وأحيا لها ذكراً وفك لها أسراً . وتوفى على الكعب عظيم الجاه بعيد الصيت فجأة ليلة الجمعة مفتتح شوال سنة ١٢٢٩ وفى يوم الجمعة الموافق ليوم المولد النبوى من السنة أقيمت صلاة الجمعة بجامع الحلفاوين الذى أنشأه وزيره أبو الخيرات يوسف صاحب الطابع وحضر هذا الامير الصلاة به فى وجوه دولته وكان يوماً مشهوداً ووضع به أربع خزائن من نفائس الكتب العلمية فى يوم كان جامع الزيتونة لا كتب به وأوقف عليه وعلى المدرسة المؤسسة حذو هذا الجامع أوقافا طائلة وله غير ذلك من الآثار الخالدة والمرافق الجليلة والسبل النافعة والصدقات الجارية مع ما اشتهر به من محبة العلماء والصالحين ومات شهيداً فى خبر طويل فى صفر سنة ١٢٣٠ على عهد المولى محمود باى الآتى ذكره وفى ليلة العيد التى مات فيها المولى حمودة تمت البيعة لاخيه عثمان باتفاق من أهل الحل والعقد وكانت أيامه على قصرها أيام خصب ورخاء واستشهد بعد خلعه ليلة عاشوراء سنة ١٢٣٠ وبويع لابن عمه الامير محمود باشا ابن المولى الباشا محمد ابن المولى حسين بن على صبيحة الليلة المذكورة وباشر الامر برفق وامنت فى أيامه السبل ودانت لطاعته القلوب وكان مفضالا ذا حلم وحنان محمود الاخلاق طيب الاعراق ممدحاً مشتهراً بالكرم وفعل الخير الا ان الامارة وافته على كبر سن مع المرض فمال للراحة وفوض الامر لبنيه . ومن آثاره البيت الذى أنشأه بقصر باردو الذى لم يسبق نظيره فى البلاد جعل سقفه

من البلور المعقود بالصفائح المذهبة باتقان بديع وألبس حيطانه الرخام المنمق المرونق على أبدع شكل وأجمل منظر وأنفق الاموال العظيمة فى جلب الاقوات الكافية لسد خلة المملكة فى مجاعة عام ست وثلاثين وذلك عقب الطاعون الفتاك الذى دام أكثر من عامين . وكانت مدته فى أمن وسرور الى أن توفى فى رجب سنة ١٢٣٩ بعد أن عهد بالامارة لابنه المولى حسين باشا وتمت له البيعة بعد وفاة والده وقام بالامر أحسن قيام . ومن الحوادث التى كانت فى أيامه امداد الحضرة السلطانية بالعساكر والميرة . اعانة على قتال العدو المحارب لها . ومنها عقد صلح مع دولة الصاردو بعد وقوع الوحشة . وفى محرم سنة ١٢٤٦ استولت فرانسا على الجزائر ثم على باقى الثغور شيئاً فشيئاً وقدم بعض أهلها لحضرته فاوسع لهم الكنف وأحلهم على الغبطة والامان وفى سنة ١٢٤٧ رتب الجند النظامى وأحكم أساسه ورتب قوانينه وابتنى لسكناه قشلة المركاض وهى من المبانى الضخمة ، وفى السنة وافته الخلعة النظامية السلطانية وكان لباسه لها فى يوم مشهود ومحفل عظيم وهو المجدد لرباط المنستير وفى أيامه وقع مسك الغيث وجزع الناس من ذلك وطاشت أفكارهم ولما رأى هذا الامير شدة الحال أمر العلماء بقراءة صحيح البخارى بجامع الزيتونة فاجتمعوا وفرقوا اسفاره فى جماعتهم وختموه فى يوم واحد وهو أول من سن هاته السنة وجرى العمل الى هذا الوقت بقراءته على نحو ما ذكر عند الشدة . وكان شهماً هماماً وقوراً محباً لمعالى الامور محافظاً على شارات الملك كريم النفس لطيف الاخلاق شجاعا كثير العطايا أمنت فى دولته العباد والبلاد توفى فى محرم سنة ١٢٥١

تنبيهات

الاول : كان فى عهد الامير المولى محمود باشا المذكور طاعون جارف دام أكثر من عامين مات فيه فى بعض الايام آلاف ثم أعقبته مجاعة. وللدول فى شأن الطاعون قوانين جرى بها العمل براً وبحراً لاتخاذ ما يلزم لقطع عدواه على زعمهم وتعرف بالكرنتينة ووقعت محاورة فى شأن ذلك بين أبى عبد الله محمد المناعى المذكور بهاته الطبقة وبين العلامة الهمام العمدة الامام محمد بيرم شيخ الاسلام الثانى فهو يقول بالجواز والمناعى يقول بالمنع والف كل رسالة حافلة فى الاستدلال على رأيه بالنصوص الفقهية . والحاصل فى ذلك أن العلماء افترقوا فى هذا الطاعون الى قسمين : قسم يرى الاحتفاظ وعدم الخلطة وربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز منها « فرّ من المجذوم فرارك من الاسد » مع دليل التجربة فان غالب من تحفظ حفظه الله مع اعتقاد أن المؤثر هو الفاعل المختار وكان هذا ينظر الى رأى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه والى هذا مال شيخ الاسلام . ومنهم من لا يرى هذا الاحتفاظ وربما ساعده بعض ظواهر الشرع العزيز كقوله « لا عدوى » ويرى التسليم الى ما جاء فى القدر . ومن

القدر لا يخفى المنفر . وهذا رأى سيدنا أبى عبيدة رضى الله عنه واليه مال المناعى . وهاته المحاورة أشار اليها الشيخ رفاعة الطهطاوى فى صدر رحلته وتعرض للمسألة مؤلف الاستقصا فى استقصائه ومال الى المنع ، كما تعرض لها الشيخ محمد السنوسى فى استطلاعاته . والشيخ رفاعة المذكور اجتمع به الشيخ أحمد بن أبى الضياف فى باريز سنة ١٢٦٣ حين توجه لها مع الامير أحمد باشا باى

الثانى : وقعت محاورة أيضاً بين هذين الشيخين فى كروية الارض وبسطها فالبسط للمناعى والكروية لخصمه ورجح بأدلة ذكرها ، وهذا الخلاف مبسوط فى روح المعانى عند قوله عز ذكره « وهو الذى مد الارض وجعل فيها رواسى وأنهارا » وقد مال الكثير من المتأخرين الى الكروية ومنهم الشيخ محمد الكنتاوى بأرض أزوات بالمغرب من بلاد تنبكتو وكان من أعلام العلماء الائمة الفضلاء ، ألف مختصراً فى فقه مالك ضاهى به مختصر خليل وألفية ضاهى بها ألفية ابن مالك ، وله مصنفات فى كثير من العلوم الظاهرية والباطنية وله أوراد وأحزاب كأحزاب الامام الشاذلى . مات سنة ١٢٢٩ وخلفه حفيده المسمى باسمه

الثالث : اعلم أنه كان للامراء الدايات نفوذ عظيم ولبعضهم آثار مجيدة خالدة من أوائل المائة بعد الالف الى أواخرها وتقدم ذكر بعضهم ثم انحط نفوذهم ، واليك أسماءهم على نسق تتميما للفائدة ناقلا ذلك من كناش بخط الامام الهمام شيخ الاسلام بيرم الرابع ونصه ببعض تصرف : هذا ترتيب الدايات من حين الفتح العثمانى . اعلم أن ذلك الفتح لست مضين من جمادى الاولى سنة ٩٨١ على يد سنان باشا وعند ما أجمع على العود الى الروم رتب بالبلد أربعة آلاف من العسكر وانتخب منهم أربعين رجلا وجعل نظر كل مائة الى واحد من الاربعين واستمر الأمر على ذلك الترتيب الى سنة ٩٩٩ وقد ظهر من أولئك الاربعين جور عظيم فثار عليهم الجند ووقعت مقتلة عظيمة ثم حصل الاتفاق على تقديم واحد يتولى الأمر ويلقب بالداى فأول من ولى ذلك ابراهيم داى رودسلى فمكث نحو الخمس سنين ثم سار الى الحج وعاش الى مابعد الستين وألف . وولى بعده موسى سنة ١٠٠٩ فمكث سنة وذهب للحج فأرسل العسكر اليه أن لايعود وتولى عثمان دايا بعده وعلى عهده كان قدوم الامم الجالية من الاندلس وذلك فى سنة ١٠١٧ وهو أول من انفرد بالكلمة من الدايات ، ومن مآثره قنطرة على طريق بنزرت وتوفى سنة ١٠١٩ . وتولى بعده يوسف دايا ومآثره شهيرة توفى فى ٢٣ رجب سنة ١٠٤٩ . وتولى بعده أسطى مراد وهو من الاعلاج وله مآثر شهيرة فى البحر إذ كان من رؤسائه وهو المحدث لمرسى غار الملح لحصار قلبيه وتوفى سنة ١٠٥٠ ، وتولى بعده أحمد خوجه وكان قبل ولايته رئيس خوجات الديوان ومن مآثره البرج الثانى بحلق الوادى وتوفى سنة ١٠٥٧ وهو صاحب التربة أمام مسجد سيدى على بن زياد ، وتولى بعده الحاج محمد لاز ، ومن مآثره قنطرة قرب الشيخ

أبي حميدة على طريق القيروان ، توفى فى ١٣ شوال سنة ١٠٦٣ وهو صاحب التربة بالقصبة الشهيرة بتربة لاز ، وتولى بعده الحاج مصطفى لاز وفى أيامه هجم الانكليز على غار الملح وأحرق مراكب كانت بها ثم وقع صلح معه وبسبب ذلك بنيت أبراج به وجابية ، ومن مآثره المسجد المعروف بمسجد لاز وتوفى فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٠٧٥ . وتولى بعده الحاج مصطفى قركوز وكان ظلوما وعزل لخلل بعقله فى ذى القعدة سنة ١٠٧٦ ودفن داخل القصبة خوفاً عليه من أولياء الذين قتلهم أن يخرجوه من قبره . وتولى بعده الحاج محمد أغلى وهو محبس الكتب على مفتى الحنفية وعزل سنة ١٠٨٠ ، وتولى بعده الحاج شعبان خوجه وقبل ولايته كان رئيس خوجات الديوان وعزل فى ذى الحجة سنة ١٠٨٣ وتوفى بزغوان وجىء به ودفن بتربته المقابلة لمسجد الطراز . وتولى بعده الحاج محمد منتشالى ووقع خلعه بعد احد عشر شهراً وأرسل لزغوان وبها توفى وجىء به ودفن بدريبته المشهورة . وتولى بعده الحاج على لاز ووقعت بينه وبين الامير مراد ابن حموده باشا فتنة عظيمة تعرف بواقعة الملاسين فكانت الغلبة لمراد وقتل الداى فى منتصف صفر سنة ١٠٨٤ فكانت مدته ثلاثة أشهر ، ومن ذلك التاريخ استقل مراد باى وصار الداى يولى من قبل الباى ، فولى مراد دايا الحاج مامى المعروف بالجمل وهو صاحب التربة بزنقة الخسة بسيدى القبة وعزل فى فتنة الاميرين الاخوين محمد وعلى ابنى مراد فى أواخر ذى الحجة سنة ١٠٨٨ . وتولى بعده الحاج محمد بشارة وكان رئيس خوجات الديوان وبعد ثلاثة أشهر عزل وأعيد الحاج مامى الجمل فمكث أياماً واضطربت عليه الاحوال وتكررت غلبة كل من الاخوين محمد وعلى وتعاقب العزل والنصب فسلم الحاج مامى والتجأ الى زاوية الشيخ بلغيث القشاش وأخرج منها بصورة أمان وسير به الى على باى بنواحى الكاف وكان ذلك آخر العهد به ، وتولى أوزن أحمد وبعد ثلاثة أيام ظهر أن علياً باى نصب دايا من جملة العسكر الذين معه بالمحلة وهو محمد المعروف بطباق ، كان قبل ولايته من رؤساء البحر فلما سمع به أوزن أحمد خلع نفسه وذلك سنة ١٠٨٨ ثم عزل على باى محمد طاباق سنة ١٠٩٢ وقتله خنقاً وولى أحمد شلبى فى شوال سنة ١٠٩٣ فسار أولا برفق ثم رام الاستبداد بالأمر لما رأى من الفتن بين الاخوين واذ ذاك اصطلح الاخوان وظهرت بينهما وبين الداى محاربات فكانت الغلبة له فاستنجد الاخوان بالجزائريين وهو أول استنجاد وقع من ملوك تونس بهم فحاصروا الداى المذكور بتونس مدة تقرب من سنة الى أن وقع فراره ثم امساكه وحبسه ثم قتله فى رجب سنة ١٠٩٧ خنقاً وفى اليوم قتل الامير على باى وتولى دايا الحاج بقتاش خوجة وكان رئيس خوجات الديوان وهو صاحب التربة المجاورة للسلسلة ببطحاء القصبة ، وبعد مدة من ولايته قدم عليه وظيف الباشالك من جناب السلطنة فجمع بينه وبين الداىلك وبقى على ذلك الى أن توفى سنة ١١٠٥ وتولى حفيده على دايا وسار سيرة حسنة وبقى عليها الى أن وقع قتال بين الجزائريين

و بين محمد باى بحيرة الكاف ,كانت الهزيمة عليه وذلك فى ٥ ذى القعدة سنة ١١٠٥ وفر الامير الى تونس فوجد الداى المذكور ركب البحر فاراً الى الروم و تولى مكانه ابراهيم خوجه و أعاد الجزائريون محاربة محمد باى وحاصروه بتونس حتى فر منها و تولى صهره محمد بن شكر الامارة وعزل الداى المذكور وولى مكانه الحاج محمود فمكث ثلاثة عشر يوما وعزل وولى مكانه محمد طاطار فمكث خمسة أشهر وتغلب محمد باى على ابن شكر وقتل طاطارا و ولى مكانه يعقوب و كان قد طعن فى السن فعزله وولى مكانه محمد خوجه رئيس خوجات الديوان و كانت ولايته فى ربيع الاول سنة ١١٠٧ وعزله مراد المعروف ببوباله فى رمضان سنة ١١١٠ وولى محمد آغة الصبايحية ثم عزله فى ربيع الاول سنة ١١١٢ وولى مكانه محمد قهواجى وعزله ابراهيم الشريف سنة ١١١٤ وولى مكانه قره مصطفى وهو صاحب التربة أمام دار اسماعيل كاهية بحومة يوسف داى ، ثم عزله ولقب نفسه بالوالى . ولما ولى الامير حسين ابن على فى ٢٧ ربيع الاول سنة ١١١٧ ولى مكانه صارى محمد خوجة وهو المعروف بالازعر فوقعت بينه و بين الامير حسين بن على مخالفة أفضت الى قيام العسكر على الداى وعزله وقتله وذلك فى ١٧ رمضان سنة ١١١٧ ؛ فولى مكانه قره مصطفى المذكور وتوفى فى تلك السنة بعده الحاج على سافر وهو صاحب الدار الكائنة برأس الشبارلية وقد أخبرنى الجد انه كان قبل الولاية اماماً للأمير حسين بن على حتى انه كان يلبس وهو داى فرجية الفقهاء أحياناً وتولى بعده الحاج محمود فى سنة ١١٥٣ و بعده الحاج على سنة ١١٥٤ و بعده عمر ولم تطل مدته و بعده محمود وتوفى أواخر صفر سنة ١١٥٦ و بعده حيدر خوجة و بعده الحاج عبد الله و بعده على سنة ١١٦٦ وتوفى سنة ١١٦٨ ودفن بالجلاز امام تربة القلاشنة و بعده على كردغلى ووقعت وقعة الجزائريين التى قتل فيها على باشا وعزله محمد بن حسين باى وولى مكانه الحاج حسين الموالى وتوفى سنة ١١٧٣ ودفن بتربته بحوانت عاشور وولى بعده الحاج حسين قاره دنغزلى وهو والد الشيخ ابراهيم الشهير بولد لاغه المشهود له بالولاية ومدفنه ومدفن ابنه بالتربة قرب السبابطية و بعده مصطفى الشهير بالزغوانى و بعده حسين بن محمد وتوفى سنة ١١٩٦ و بعده ابراهيم بوشناق سنة ١١٩٩ ثم عزل سنة ١٢٢٠ و بعده احمد البوندى وعزل فى محرم سنة ١٢٣٧ وتوفى بعد عزله بثلاثة أيام ودفن بتربة بحوانت عاشور و بعده فيض الله وكان قبل ولايته آغة بيت المال وتوفى بعد عزله فى شعبان سنة ١٢٣٨ ودفن بتربة ابراهيم بوشناق و بعده عمر بن محمد وتوفى سنة ١٢٤٧ ودفن بتربة الحجار و بعده حسن وتوفى فجأة فى ربيع الثانى سنة ١٢٤٨ ودفن مع الداى قبله و بعده مصطفى وعزل فى جمادى الثانية سنة ١٢٥٨ و بعده احمد آغه . انتهى . وقد أتى على ذكرهم صاحب الخلاصة النقية انظره

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء حمودة بن عبد العزيز وصالح الكواش وعمر المحجوب وأخوه محمد ومحمود مقديش وحسن الشريف ومحمد المناعى واسماعيل التميمى

الطبقة السادسة والعشرون

لما توفى المولى الامير حسين باشا تمت البيعة لاخيه المولى مصطفى باشا فابتدأ الامر من حيث انتهى أخوه وأقر رجال الدولة على مراتبهم وكانت أيامه أيام سكون وهدوء وأمن وعافية وأعاد المجلس الشرعى الى عادته من الاجتماع بحضرته يوم الاحد من كل اسبوع . وكان ذا ذهن وقاد وفهم مصيب لما يرد عليه من النوازل . وهو أول من لبس النيشان من بنى المولى حسين فوافاه من الدولة نيشان أمير أمراء فى شعبان سنة ١٢٥١ ومعه سيف محلى ولبسهما فى يوم مشهود وهو أول من صاغ نيشان الافتخار ونقش عليه اسمه بحجر الديامنت وألبسه وزير الامور الخارجية . وفى شعبان سنة ١٢٥٢ استأذن الشيخ ابراهيم الرياحى فى السفر لبيت الله الحرام وأسعفه لذلك حسبما تقدمت الاشارة لذلك فى ترجمة هذا الشيخ . وتوفى هذا الامير فى عاشر رجب سنة ١٢٥٣ وفيه تمت البيعة لابنه المولى المشير أحمد باشا باى وبمجرد ما تمت له البيعة شرع فى اعادة شباب الدولة وتضخيمها وباشر بنفسه دقيق أمور الدولة وعظيمها ومهد الاحوال وجند الجنود وجبى الاموال وخلد آثاراً ارتقى بها مرتقى شامخاً معلوما باذخا وجمع من العسكر النظامى ما يزيد على الثلاثين ألفاً وبنى لهم القشل والابراج العظيمة وأسكنهم بها . وفى سنة ١٢٥٤ أرسلت له الدولة العلية الخلعة السنية ونيشان المشيرية وذلك على عهد السلطان محمود خان فتلقى لباس المشيرية فى موكب مشهود ، وفى السنة جعل مرتبـاً لاهل المجلس الشرعى المالكى مثل المجلس الشرعى الحنفى وفى السنة توجه الشيخ ابراهيم الرياحى لدار الخلافة فى مهم وتقدمت الاشارة الى ذلك فى ترجمة هذا الشيخ . وفى سنة ١٢٥٦ وجه عنايته للعلم الشريف واعانة طلابه بما بقى أثره وكتب على صفحات الايام خبره فاشترى كتباً كثيرة لها بال وأضاف لها كتب آله الموضوعة بخزائن أسلافه وأمر شيوخ المجلس الشرعى والعلماء بالحضور بجامع الزيتونة لقبولها ولما وصلت تولى العلماء تطبيقها على أسمائها وجعل برنامج لها ثم وضعت فى خزائنها العشرين زين بها صدر الجامع على يمين المحراب وشماله وكتب على كل مجلد منها رسم تحبيسه وأباح للمنتفع به اخراج الكتاب من موضعه مدة عام فقط ورتب لها وكيلين يأتى كل أحد منهما الى الجامع على التناوب لمناولة الطالبة مايحتاجونه وفى رمضان سنة ١٢٥٨ رتب ثلاثين

مدرساً بهذا الجامع نصفهم من الحنفية ونصفهم من المالكية وعين لهم جراية من بيت المال كما رتب اثنى عشر مدرسا ست حنفية وست مالكية هم دون الرتبة الاولى فى المرتب على أن يقرئ كل واحد منهم بالجامع درسين فى أى فن وفى أى وقت تيسر ومن تخلف من غير عذر شرعى لايستحق المرتب أيام تخلفه الا يومى الخميس والجمعة وشهر رمضان وأيام العيدين وجعل النظر فى ذلك لشيخى الاسلام الحنفى والمالكى والقاضيين الحنفى والمالكى وعين لهم جراية من بيت المال بشرط أن يأتى كل واحد من الاربعة يوما الى الجامع لتحريض المتكاسل وكتب فى ذلك منشوراً بالذهب وعلقه عند باب الشفا من الجامع وميز هؤلاء المدرسين بأن يأتوا فى الاعياد مجتمعين يؤمهم كبير أئمة الجامع ويقبلهم بعد أهل المجلس الشرعى ولم يزل يوجه اليهم العناية حتى ظهر العلم وتجدد شبابه وسال سيله وعب عبابه وانفتح الاجتهاد بابه وظهر بالحاضرة أعلام جلة نجوم أهلة من حنفية ومالكية هم شموس وبدور تتجمل بهم المحافل والصدور. وفى ذى القعدة سنة ١٢٦٢ توجه لباريس وكان الاحتفال به هناك عظيما ورجع لتونس فى محرم سنة ١٢٦٣ وفى السنة بعدها منحت دولة فرنسا ادخال السلك البرقى للمملكة التونسية على شروط انعقدت بينهم فى ذلك ولما وقعت الدولة العثمانية فى الحرب مع الروس جهز لها آلافا من العسكر النظامى بجميع لوازمهم وجهها اعانة لخليفة الاسلام على عهد السلطان عبد الحميد خان. وهو أول من اتخذ من ملوك هاته الدولة عمل المولد النبوى باحياء ليلته والحضور لقراءته صباحاً بجامع الزيتونة فى شارة عظيمة وحفل فخيم وهو عمل مشكور وكان شهما حازما ذا صولة عظيمة يعطى العطايا السنية ولم يزل فى صولته ساعياً في تضخيم دولته الى أن أصابه فالج ثم وافته المنية فى رمضان سنة ١٢٧١ وانعقدت البيعة بوفاته لابن عمه المولى المشير محمد ابن المولى حسين باشا ابن محمود باشا نشأ هذا فى عز دولتى جده وأبيه. وفى ذى الحجة سنة ١٢٧٢ رجعت عساكر الجهاد الذين توجهوا لدار الخلافة الاسلامية فتلقاها بغاية البر والانعام والمبرة والاكرام وأسقط على الرعية الكثير من الاداآت والضرائب وساعده البخت بحصول الخصب العظيم الذى بعد العهد بمثله واجتهد فى تأمين الرعية فى الحواضر والبوادى وحصل بذلك الاطمئنان واعتنى بالمجلس الشرعى فبنى دار الشريعة المطهرة وجعل الحكم فيها يومياً يحضر هناك القاضيان المالكى والحنفى ويحضر مع كل واحد منهما فى كل يوم مفت من شيوخ مذهبه ويجتمع جميع أهل المجلس فى كل يوم خميس وفتحه فى الخامس عشر من ربيع الانور سنة ١٢٧٣ وهو الذى أمر بجلب ماء زغوان للحاضرة واقامة مجلس بلدى بها وبنى بين قصور باردو قصراً تحار دونه الالباب أتى فيه من بدائع الابنية بالعجب العجاب وهو الآن خزينة الآثار العتيقة والتحف المستظرفة ويعرف بالمتحف العلوى وهو أول من ضرب سكة الذهب وكانت قبل مسكوكات الفضة والنحاس لاغير وفى محرم سنة ١٢٧٤ أصدر منشور عهد الامان لسائر السكان فى حفظ النفس والمال والعرض وعم بذلك سائر أهل الملك وجمع أعيان العلماء ورجال الدولة للمفاوضة

فى هذا العهد وفى سنة ١٢٧٦ صدر الاذن بتأسيس مطبعة لصحف الاخبار والكتب وكان شهما ثبتا حازما بحانا على الرعية كثير العطايا سليم الطوية وتوفى فى صفر سنة ١٢٧٦ وانعقدت البيعة بعده لاخيه المولى المشير محمد الصادق باشا باى وأعمل الحزم فى انجاز مشروع أخيه باتمام القوانين التى انبنى عليها عهد الامان وجمع خاصة العلماء والاعيان فاستكملوا وضعها وفى صفر سنة ١٢٧٧ خرج من مملكته الى الجزائر حين قدم اليها امبراطور فرانسا لاحكام علاقة المجاورة بين المملكتين وأكرم الامبراطور نزله ولما رجع رتب المجالس لتنفيذ قانون عهد الامان وفى السنة كان نشر جريدة الرائد وفى السنة بعدها وصل ماء زغوان للحاضرة وفى سنة ١٢٨٠ رتب اعانة قدرها اثنان وسبعون ريالا على عموم الافراد وصدرت بذلك أوامره وحين انتشر هذا الخبر بالمملكة لم يقع قبولها واختلف صنيع الاهالى فالعقلاء رفعوا الشكوى طالبين التخفيف وغيرهم ولا سيما الاعراب وسكان الجبال تجاهروا بالعداوة وأشهروا السلاح وتعمدوا البغى والفساد فى البلاد وزعيم هاته الطائفة على بن غزاهم أصله من ماجر واشتدت بذلك وطأة الاضطرابات والاحن والهرج والفتن وقامت المملكة على ساق حتى صارت دار حرب وإذ ذاك صدر أمره بايقاف العمل بقانون عهد الامان واسقاط إعانة الاثنين والسبعين ريالا وخرج الوزير رستم بمحلة فى طلب رئيس البغاة على بن غزاهم ووقع القتال بين الفريقين وآل الامر الى انهزام البغاة وفرار على بن غزاهم الى خارج حدود المملكة وخرج الوزير احمد زروق الى الساحل بمحلة هو أميرها ووصل الساحل فى جمادى الاولى من السنة وانتصر على البغاة وظفر بالرؤساء منهم الدهمانى البوجى وقتلهم وقدم عليه وفود أهل الساحل منقادين نادمين من جملتهم وفود المنستير يؤمهم العلماء أهل المجلس الشرعى فقابلهم بشدة وحكم الاغلال فى أعناقهم وأرجلهم وأولهم رئيس المجلس الشرعى الشيخ أبو عبد الله محمد الجدى بوزقرو وشدد تنكيله وأمر بازالة عمامته فى ذلك المجلس بلفظ مستهجن ووفد صفاقس فقابلهم بأقل من مقابلة أهل المنستير ورئيسهم الشيخ عبد العزيز الفرانى وسجنهم فى جملة من سجن وحكم يد النهب فى الاموال وتفنن فى سلبها حتى بلغ السكين العظم والسيل الربا فكأنه مأمور بايقاد فتنة من جمر رمادها وأغرمهم أموالا أفنت الطارف والتالد ورهنوا أملاكهم عند الوافدين على المملكة وعند طائفة من اليهود وأصبحت بلاد الساحل خاوية على عروشها وذهب هذا الصقع الذى هو عمران هاته المملكة كأمس الدابر ولم يبق به إلا من هو مثقل بالديون ويده فارغة من الكسب ثم ذهب بمحلته لصفاقس وقابس ثم رجع لتونس بعد استيفاء ما أفنى اللحم والشحم وانتهى الى العظم وللشيخ مصطفى بن عزوز المذكور بهذه الطبقة يد فى اطفاء هاته الثورة بتوسطه بين الدولة وابن غزاهم المذكور وازدادت المصائب وتكررت النوائب فى سنة ١٢٨٤ والسنة بعدها بحصول المجاعة التى بعد العهد بمثلها والمرض الذي أفنك بكثير من الاهالى حتى صار وبائياً ولم يستقم حال البلاد والعباد الا بعد عشرات من السنين ولهاته الاسباب

صارت مالية الدولة فى خطر من الديون التى تراكمت عليها وتداركها بتركيب لجنة تعرف بالكمسيون المالى رئيسها الوزير خير الدين وذلك سنة ١٢٨٦ وفى سنة ١٢٨٤ أمر بصنع نيشان عهد الامان وفى سنة ١٢٨٧ قسم ادارة الدولة الى أقسام وهى الوزارة الكبرى ووزارة المال ووزارة العمالة ووزارة الخارجية ولما النظر على الحرب وفى سنة ١٢٨٨ وجهت له الدولة العلية بواسطة الوزارة الخيرية فرمانها العالى مع سيف مرصع ونيشان مجيدى وفى سنة ١٢٨٩ أذن بمجلس النظافة يجرى عمله على مقتضى قانون ذى فصول وفى السنة بعدها أقام مجلسا للصحة يجرى عمله على مقتضى قانون ذى فصول وفى سنة ١٢٩١ جعل قشلة المطارين سجنا وجعل له حفظة لتنظيفه وأجرى عليه مؤنة كافية وجعل لذلك قانونا خاصا وفيها جعل قانونا للفلاحة وفيها أضاف الى خزائن جامع الزيتونة ست خزائن وملأها بالكتب النفيسة وأجراها على قانون المشير احمد باشا وصار به أكثر من عشرة آلاف مجلد وفى السنة أحدث مكتبا عاما أوقف عليه أوقافا لها بال وسمى بالصادقية وأجراه على نظام المكاتب الحديثة لتعليم أبناء الاهالى العلوم الدينية واللغات الاجنبية والمعارف الاروبية وجعل لذلك قانونا اجتمع على ترتيبه أعيان علماء العصر مشتمل على فصول وأجرى به مايلزم التلامذة من أكل وكسوة وفراش وفيها أصدر قانونا مؤلفا من مئتين فصلا لتنظيم ديوان الشريعة المطهرة اجتمع على تأليفه شيوخ المجلس الشرعى وبه تعينت مراسم خطة القضاء والافتاء بالحاضرة وبلدان المملكة والاعمال التى يجرى عليها عمل الوكلاء والاعوان والخصماء وفيها وضع قانونا لضبط حجج الاشهاد فى دفاتر خاصة يجرى عليها عمل شهود المملكة وفى السنة أذن بجمع أوقاف المملكة لنظارة جمعية بالحاضرة تجعل من تحت نظرها وتصرفها وكلاء يقومون بلوازم شعائر الاوقاف وما يفضل من ذلك يدخل فى خزينة الجمعية تدفع منه مرتبات مشايخ المجالس الشرعية والقضاة بالمملكة وعلها يجرى على مقتضى قانون مؤلف من فصول . وفى السنة كان اجراء النور الكهربائى بالحاضرة ولما رأى النقص الحاصل فى مداخيل الدولة والفتور الحاصل فى العلم أمر بجمع المدرسين وشيوخ المجلس الشرعى بجامع الزيتونة واستنهض هممهم العلمية وزاد لهم فى الجراية وذلك فى سنة ١٢٨٧ ثم فى ١٢٩٢ استدرك ذلك بقانون على يؤلف من ٦٧ فصلا اجتمع على تأليفه أعيان علماء العصر وجعل النظارة العلمية لنظر حسين الجركسى وزير الاستشارة والمعارف والنافعة وجعل للنظارة العلمية نائبين عنه من أعيان المدرسين يباشران النظر على أعمال الجامع كل يوم وعن الامتحان العام لسائر طبقات التلامذة للحصول على شهادة فى ماى من كل سنة ومن أحرز بعد الامتحان على رتبة التطويع وهى رتبة تؤهل صاحبها لاقراء العلوم تطوعا بجامع الزيتونة بعد استصداره اذنا من شيوخ النظارة العلمية وهم شيخا الاسلام والقاضيان الحنفى والمالكى وتخول صاحبها تعاطى الشهادة بعد الحصول على أمر علي من أمير البلاد وبذلك تكاثرت الدروس والمدرسون وأقبل الطلبة على العلم والمدرسون الذين لهم جرايات والمتطوعون على التعليم وهى مزية فاخرة له خالدة

وحاصل ما قدمناه فى شأن العلم والعلماء أن جامع الزيتونة أدام الله عمرانه هو الكلية الوحيدة بافريقية والكعبة التى يؤمها طلبة العلم من الجهات ومنها يتخرج الفحول من العلماء والمدرسون به هم الذين يبثون فى الامة روح الشرع العزيز وقواعد الدين الحنيف والتمكين من اللغة العربية الفصيحة التى أصلها مكين وموردها عذب معين [1] . وفى السنة وقع احياء المكتبة المعروف بالعبدلية نسبة لابى عبد الله الحفصى التى بصحن الجنايز من الجامع المذكور وضع فيها مايزيد على الثلاثة آلاف مجلد من نفائس الكتب منظمة على أسلوب عجيب وترتيب غريب حتى ان الراغب للكتاب يتناوله ويطالعه أو ينسخه بأيسر وجه وحصل بذلك نفع عظيم للطلبة لاسيما الغرباء وجعل لها ثلاثة قيمين تستمر اقامتهم سائر اليوم على التناوب وأجرى عليهم الجرايات الكافية وجعل لذلك قانوناً به ستة عشر فصلا . وفى السنة وصل بين المملكة التونسية وسائر ممالك الدنيا بسلك البرق الذى يبلغ به الخبر فى طرفة عين ومد سكة الحديد بين تونس وحلق الوادى وباردو ثم من تونس الى أطراف الحدود الغربية . وفيها كانت الدولة العلية فى حرب مع الروسيا فوجهت اليها اعانة بالمال وغيره لها بال . وفيها وقع تحرير قانون فى خدمة العمال وقانون للمتعينين للاعراب وغيرهم تجرى عليه ادارة خدمة العمال ومقدار ما يأخذه المتعينون من المجرمين . وفى سنة ١٢٩٦ وقع منه زيادة الاهتمام بحفظ الصحة فعين قشلة البشامقية مستشفى وأقام بها أطباء ومرافق وتحسينات وعين له مايلزم لاقامة شئونه من أوقاف صاحبة الخيرات الرفيعة الشأن والمكانة عزيزة عثمانه لجاء على أحسن نظام وأكمل احكام على مقتضى قانون ذى فصول ٤١ وهو المعروف بالمستشفى الصادقى . وفى السنة صدر الاذن باقامة مجلس شورى تحت رياسة الوزير الاكبر للنظر فى مهمات الدولة الداخلية والخارجية وهاته التأسيسات خلدت له جميل الذكر وغالبها كان بسعى من الوزير السياسى الخطير أبى الخيرات خير الدين [2]

(١) انظر أواخر المدخل

(٢) قوله خير الدين هو خير الدين باشا التونسى كان عظيم القدر والشأن من أعيان الوزراء ورجال الكمال أصله شركسى وتقرب من المشير أحمد باشا فقدمه واستخلصه لخدمته وأعانه على اتمام دروسه فأتقن العلوم الدينية واللغات التركية والفارسية والعربية وتقلب فى المناصب السامية عسكرية وسياسية زمن هذا المشير ومن جاء بعده وانتدب لمهمات سياسية فى فرانسا وتقلد وزارة الحربية فأحسن تنظيمها ثم حدث ما بعثه على اعتزال الاعمال السياسية والعكوف على التأليف ولم تستغن الحكومة عن رأيه وفعله فى المهام العامة وأخيراً تقلد الوزارة الكبرى وبلغ أهل الاستانة شهرته فاستقدمه السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٨ وولاه الصدارة العظمى والدولة فى غاية الاضطراب فوضع التقارير الاصلاحية فلم يتفق عمله مع رجال الحكومة فاستقال سنة ١٨٧٩ وسمى عضواً فى مجلس الاعيان وبقى فى الاستانة حتى توفى سنة ١٨٩٠ . مولده سنة ١٨١٠ وله فى تونس مآثر خالدة

مؤلف كتاب أقوم المسالك فى أحوال الممالك ومن مآثره مبانيه البالغة فى الرونق الغاية وفى الاتقان والاحتفال النهاية منها زاوية الشيخ أبى محفوظ محرز سنة ١٢٧٩ وزاوية الشيخ ابراهيم الرياحى سنة ١٢٩٠ وقصره المعروف بقصر السعيد بباردو عديم النظير بهذا القطر وقد باشر الحكم بنفسه بانصاف وكان محباً للعلماء والاولياء وتعظيم الاشراف وفى سنة ١٢٩٨ احتلت دولة فرانسا المملكة ونصبت حمايتها عليها بمقتضى معاهدة انعقدت بباردو وكانت وفاة هذا الامير سنة ١٢٩٩

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء محمد البحرى والسنوسى وابن سلامة وابراهيم الرياحى ومحمد النيفر وأخوه صالح والطاهر بن عاشور وابن ملوكة ومحمد البنا وأحمد الغمارى وابن أبى الضياف وعلى العفيف

الطبقة السابعة والعشرون

لما توفى المشير محمد الصادق باى بويع لاخيه المولى أبى الحسن على باشا باى فى ذى الحجة سنة ١٢٩٩ وكان من أفاضل أمراء هاته الدولة محط الرحال ومنبع صالح الاعمال عارفا برجال دولته مطلعاً على أحوال مملكته محباً للعلماء والصلحاء كريم الاخلاق مساعداً على احداث كثير من الادارات على النظام المعهود الآن وكذلك من أتى بعده . وعلى عهده أسست المدرسة الخلدونية وشحنت بعدد غير قليل من نفائس الكتب فى فنون من العلوم الدينية والعصرية . وعلى عهده كان تجديد منارة جامع الزيتونة فجاءت على أبدع شكل وأجمل منظر وكان الاحتفال عند انتهاء البناء فى ٢٦ رمضان سنة ١٣١٢ حضره هذا الامير وآل بيته والخاصة والجمهور وأرخها شيخنا أبو النجا سالم بوحاجب وكتب ذلك على جدرانها فى قصيدة أولها :

نال فوزاً عناه كل ساعٍ ... كى يرى شمول فضل ذى اتساع
فى بيوت أذن الله بأن ... ترفع الاركان فيها ليطاع

ومنها فى مدح هذا الامير :

ثم فى أيام مولانا الذى ... ملأت غرّ مزاياه الرقاع
حضرة الباشا علىّ من له ... فى قلوب الخلق للود ازدراع

ومنها بيت التاريخ :

ولسان الصدق قد أرخه ... لمنار الدين حق الارتفاع

قيل ان هذا الجامع لايخلو من رجل موصوف بعلم ظاهر أو شرف زاهر أو صلاح باهر ولهذا الامير تأليف سماه مناهج التعريف بأصول التكاليف وتوفى فى ربيع الاول سنة ١٣٢٠ وبويع لابنه المولى محمد الهادى باشا باى وكان شهما هماما عالى الهمة كريم الاخلاق ذكياً ميالا للعلم ومحبة العلماء وعلى عهده كانت زيارة رئيس الجمهورية الفرنسوية للايالة التونسية المفخم مسيو لوبى فى ابريل سنة ١٩٠٣ الموافق لأوائل سنة ١٣٢١ وأقام ثلاثة أيام كانت مواسم بواسم وردّ له هذا الامير الزيارة فى صائفة العام التالى وما حصل لهذين الزائرين جمع فى مجلد وتوفى فى ربيع الانور سنة ١٣٢٤ وارتقى كرسى المملكة الامير المحبوب المولى محمد الناصر باشا باى ابن المشير محمد باشا باى وعلى عهده فى ٢٥ شعبان سنة ١٣٢٨ صدر منشور من الشيخ القاضى المالكى محمد القصار لقضاة الجهات بثبوت الاهلة على طريق سلك البرق وجرى به العمل وهذا المنشور خلد له جميل الذكر وفى سنة ١٣٢٩ كانت الدولة العلية فى حرب مع ايطاليا فى طرابلس وانتهت باحتلالها لهاته الايالة وفى السنة بسطت دولة فرانسا حمايتها على المغرب الاقصى وفيها كانت زيارة فخامة رئيس الجمهورية الفرنساوية مسيو فليار للمملكة التونسية فقوبل بالتبجيل والتكريم وللعالم المؤرخ محمد ابن الشيخ الا كتب البشير بن الخوجة تاليف حافل فى هاته الرحلة فى مجلد سماه الرحلة الفليارية وزار فى أثنائها بعض المدن والمتلوى من عمل قفصة الذى به الفسفاط وهو عبارة عن طبقة من الارض مادتها ترابية صالحة لتسميد الغروس والمزروعات وهى من الكنوز التى حصلت بها ثروة عظيمة لهاته المملكة قال بعضهم هذا كنز لايفنى وثروة لاتبلى واسست لها شركة أسست سككا حديدية رابطة بصفاقس وغيرها . وفى سنة ١٣٤٠ هـ موافق ١٩٢٢ م كانت زيارة رئيس الجمهورية الفرنساوية لافريقية الشمالية وهى عبارة عن المغرب الاقصى والجزائر والمملكة التونسية فقام بهاته الرحلة أعظم عظماء هاته الجمهورية مسيو ميلران ابتدأها من الدار البيضاء مرسى مدينة على البحر المحيط وأنهاها بجربة الغربية من الحدود الطرابلسية فى أبهة وحفل عظيم ساقت المقادير هذا الرئيس الخطير لهاته الجهات التى منظرها جميل زاهر وعمرانها فى تزايد باهر حافلة كالعروس آهلة بنحو الثلاثة عشر مليونا من النفوس ووصل القطر التونسى الذى لايقل سكانه عن المليونين فى غرة رمضان الموافق للرابع والعشرين من ابريل سنة ١٣٤٠ هـ موافق ١٩٢٢ م ولقى من الاقبال فوق ما يقال . وما حصل له فى هاته الرحلة لو تتبع لملأ مجلداً ضخما . وفى يوم الاثنين السادس عشر من ذى القعدة وفى ١٠ يولية من السنة انتقل الى رحمة الله هذا الأمير المحبوب فكان انتقاله روح الله روحه من أعظم الرزايا وأشد البلايا ، كان كريم الاخلاق والسجايا ، سخياً كثير العطايا ، عادلا محباً الرعايا ، سائلا عن أحوالهم ميالا لاجابة مطالبهم و سماع أقوالهم . محباً لدولة فرنسا ، وهو أول مساعد لها ومعاضد على تجنيد العساكر التونسية لاحتلالها المغرب الاقصى وخصوصاً فى الحرب

الكبرى فانه عاضدها بما عنده من النفس والنفيس ووقع الاعتراف له بهذا الفضل . نقلت جريدة الزهرة فى عددها ٦٤٨٦ المؤرخ فى التاسع عشر من ذى القعدة المذكور ما نصه : ورد فى رسالة برقية من باريس أن صحف العاصمة الفرنسوية برزت طافحة بالثناء على حضرة سيدنا محمد الناصر باى الذى كان معيناً صادقاً لفرنسا فى أصعب الظروف وأشدها عليها ، وقد ذكرت جريدة الجورنال أن باريس كانت اقتبلت الباى المتوفى بمزيد الحفاوة والانعطاف . ثم قالت : انه قام بوظيفته على غاية ما يرام ، حتى اذا جاءت ساعة الخطر العظيم نهضت المملكة التونسية جماء للدفاع عن فرنسا المتهددة فجهزت خمساً وستين الف مقاتل وثلاثين الف شغال وتكبدت خسائر لا تقل عن خمس وأربعين الفاً بين قتيل وجريح فهذه قائمة يمكن أن يفتخر بها قوم لا يكاد يبلغ عدد الرجال القادرين منهم على حمل السلاح ثلاثمائة الف . انتهى

وفى اليوم الموالى لوفاته كان الحفل بجنازته بالغاً الغاية ودفن بتربة أسلافه الكرام مأسوفاً عليه من الخاص والعام وفى عشية يوم الوفاة وقعت البيعة بقصر باردو المعمور بغاية من الاجلال والفرح والسرور لابن عمه الامير الجليل الحرى بالتعظيم والتبجيل المولى الامير محمد الحبيب باشا باى ابن المأمون بن حسين باشا باى وهو حفظه الله من الامراء الذين يفتخر بهم أمراء هذا البيت مملوء الجراب بالمعارف والآداب ، موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال ، وقام بالامر على الوجه المطلوب ومالت لمحبته القلوب الا أن الامارة وافته على كبر سن مع مرض أنهك قواه واستمر على حاله الى ان توفاه الله صبحية يوم الاثنين ثالث رمضان سنة ١٣٤٧ وبعد زوال اليوم جرى انعقاد البيعة فى سراية باردو المعمورة فى حفل عظيم وموكب فخيم لولى النعم المستجمع لمكارم الاخلاق والشيم المفكر الكثير الفضائل ، الامير المعظم والملك المفخم مولانا أحمد باشا الثانى ابن المولى الباشا على ابن المولى الباشا حسن ، وقد دبت وقتئذ حميا المسرة فى الضمائر وجالت أفراس الافراح فى ميادين الاكابر والاصاغر وقامت خطباء الاقلام تصدح بالبشائر وصحف الجهات تعلق بالبشارات أجرى الله على يده الصالحات ثم تلقى الجناب العالى بيعة الوفود التى وردت اليه وأمانيها سعادة دولته ورفاهية مملكته فى احتفالات فائقة وأنشدت بين يديه الخطب والقصائد الرائقة لو جمعت لكانت مجلداً . رحم الله السلف ، وأدام دولة الخلف

تنبيه

من أعيان العلماء المعاصرين لهؤلاء الامراء : أحمد الورتتانى والشاذلى بن صالح وأحمد الشاهد والطاهر النيفر وأخوه الطيب وعمهما محمد وحسين بن أحمد وعمر بن الشيخ ومحمد النجار وسالم بوحاجب والطيب النيفر

خلاصة

بها الادوار التى حصلت لدول افريقية

قد انتهى ما جمعته بهذه التتمة ومن وقف عليها علم الادوار التى حصلت فى دول افريقية والاطوار . ان فى ذلك لعبرة لاولى الالباب والاعتبار . وخلاصة ذلك وماوقع من الادوار هنالك هو أن افريقية يسكنها البربر منذ عهد بعيد جداً ولم يحفظ لهم تاريخ على وجه التحقيق وفيهم من زعماء الرجال ماقد علم وتداولتها دول بعد دول والمعروف منهم (القرطاجنيون) ومنهم هنبال البطل الشهير الذى ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز اليهم جبال البرنية بجيوش جرارة وجند كثيف ينازعهم فى صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم من منصات مجدهم فالرومان فالوندال فالروم البزنطيون فالاسلام

أول أمير دخل افريقية عبد الله بن سعد بن أبى سرح البطل الجليل شهد فتح مصر واختط بها وكان صاحب الميمنة فى الحرب مع عمرو بن العاص وكانت له مواقف محمودة وكانت ولايته سنة ٢٥ بعهد من الخليفة الثالث سيدنا عثمان رضى الله عنه وفتح افريقية سنة ٢٧ وهى من أعظم الفتوح . ثم معاوية بن خديج ثم عقبة بن نافع ثم مسلمة بن مخلد وهو أحد الرجال الاربعة الذين قال فيهم الخليفة الثانى سيدنا عمر : مقامه من الرجال مقام الالف ، الزبير بن العوام والمقداد بن الاسود وعبادة بن الصامت رضى الله عنهم . وهو أول من جمعت له امارة مصر وافريقية وبعث مولاه أبا المهاجر لافريقية عوض عقبة المذكور ثم رجوع عقبة ثم زهير بن قيس البلوى بعهد من عبد الملك بن مروان الخليفة العظيم الذى استقصى لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطأنينة ثم حسان بن النعمان ثم موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين دوخا ممالك هنبال القديمة فى افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليل البالغ اثنى عشر الف مقاتل مضيق القارة الاوروبية ففتحا مملكة الاندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار . ثم محمد بن يزيد ثم اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ثم يزيد بن أبى مسلم ثم بشر بن صفوان ثم عبيدة بن عبد الرحمن ثم عبد الله بن الحبحاب ثم كلثوم بن عياض ثم حنظلة بن صفوان ثم تغلب على افريقية عبد الرحمن بن حبيب ثم محمد بن الاشعث ثم الاغلب بن سالم ثم المهالبة ثم هرثمة بن أعين ثم محمد بن مقاتل ثم الاغالبة ثم العبيديون ثم الصنهاجيون ثم الحفصيون ثم الاسبان ثم الترك وهم دايات وبشوات وبايات منهم آل بيت مراد باشا ثم ابراهيم الشريف ثم حسين باشا بن على تركى بانى البيت الحسينى واستمرت باقية فى عقبه بعد وفاة ابن أخيه على باشا حتى الآن وعلى

عهد محمد الصادق باشا باى نصبت فرانسا حمايتها وتولى بعده أخوه على باشا باى ثم ابنه محمد الهادى باشا باى ثم محمد الناصر باشا باى ثم محمد الحبيب باشا باى ثم أحمد باشا باى الثانى أيده الله بالسبع المثانى

فائــــدة

فى روح المعانى ما نصه : فى بعض كتب الله المنزلة أنا الله ملك الملوك مالك الملك قلوب الملوك ونواصيهم بيدى فان العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة وان هم عصونى جعلتهم عليهم عقوبة فلا تشتغلوا بسب الملوك ولكن توبوا الىّ أعطفهم عليكم . انتهى . نقل ذلك عند قوله جل جلاله وعز كاله ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير ﴾

صــــلة

اعلم أن فى الاسلام الكثير من عظماء الرجال والامراء اشتهر فى التاريخ ذكرهم وعظم أثرهم كخالد بن الوليد فاتح العراق العربى وبعض الشام وأبى عبيدة بن الجراح فاتح الشام وسعد بن أبى وقاص فاتح العراق العجمى وهادم عرش الا كاسرة والاحنف بن قيس فاتح خراسان وعمرو بن العاص فاتح مصر وعبد الله بن سعد فاتح أفريقية ومسلمة بن مخلد وموسى ابن نصير فاتح الاندلس واضرابهم فى كل جيل اذا علمت ذلك علمت مراتب الناس فى الدنيا بنسبة الاعمال وهى تتفاوت بتفاوت الرجال فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير وآخر لا فى العير ولا فى النفير

ولم أر أمثال الرجال تفاوتا الى الفضل حتى عد ألف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد الامة وآخر تهلك به الدولة وتشقى الناس وانما قامت الدول واتصلت بالشعوب أسباب السعادة بافذاذ من الرجال مشهورين كبرت نفوسهم أن تخلد الى الدنايا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم الى غايات الكمال فنالوا بذلك حياة لاتفنى وغادروا فى الوجود آثاراً لن تزول . ولبعضهم آثار حسنة حتى الآن تقدم ذكرها منها جامع عقبة رضى الله عنه بالقيروان

فى روح المعانى عند قوله عز من قائل : (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى اجعل لنفسى ذكراً صادقا فى جميع الامم الى يوم القيامة وحاصله خلد صيتى وذكري الجميل فى الدنيا وذلك بتوفيقه للآثار الحسنة والسير المرضية لديه تعالى المستحسنة التى يقتدى بها الآخرون

ويذكرونه بسببها بالخير ثم قال واستدل الامام مالك بهذه الآية على أن لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه صالحا وفائدة ذلك بعد الموت على ماقال بعض الاجلة انصراف الهمم الى مابه يحصل له عند الله تعالى زلفى وأنه قد يصير سببا لاكتساب المثنى أو غيره نحوما أثنى به فيثاب فيشاركه فيه المثنى عليه كما هو مقتضى من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ولا يخفى عليك أن الامور بمقاصدها انتهى . وأسأل الله العظيم أن يجعل عملى وعلى لوجهه الكريم وينفعنى به انه هو البر الرحيم

تنبيه

اعلم ان ماجمعته بالشجرة اقتطفته من : (١) روح المعانى لابى الفضل محمود الالوسى و (٢) الموطأ للامام مالك و (٣) شرحه لابى عبد الله محمد الزرقانى و (٤) البخارى و (٥) شرحه فتح البارى للحافظ ابن حجر و (٦) الاصابة له و (٧) مسلم وشرحه و (٨) اكمال الاكمال لابى عبد الله الابى و (٩) المدارك للقاضى عياض و (١٠) الشفا له و (١١) شرح الشهاب الخفاجى عليه و (١٢) الاستيعاب للحافظ ابن عبد البر و (١٣) طبقات أبى العرب لمحمد بن تميم و (١٤) طبقات قضاة قرطبة لابى عبد الله الخشنى و (١٥) تاريخ علماء الاندلس لابن الفرضى و (١٦) صلته لابى القاسم خلف بن بشكوال و (١٧) تكملتها لابى عبد الله محمد بن الابار و (١٨) تكملة التكملة له أيضا و (١٩) بغية الملتمس فى علماء الاندلس لابن عميرة الضبى و (٢٠) فهرسة أبى بكر بن خير و (٢١) التشوف لرجال التصوف لابى يعقوب يوسف الشاذلى المراكشى و (٢٢) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لابى زكرياء يحيى المراكشى و (٢٣) البيان المغرب لابن عذارى المراكشى و (٢٤) جزء من كتاب أبى عبيد البكرى و (٢٥) وفيات الاعيان للقاضى ابن خلكان و (٢٦) فوات الوفيات لابى عبد الله محمد بن شاكر الكتبى و (٢٧) رحلة أبى الحسين بن جبير و (٢٨) رحلة أبى محمد عبد الله التجانى و (٢٩) سراج الملوك لابى بكر الطرطوشى و (٣٠) بداية المجتهد لابى عبد الله محمد بن رشد و (٣١) مقدمة ولى الدين بن خلدون و (٣٢) تاريخ أبى عبد الله محمد الزركشى و (٣٣) عنوان الدراية لابى العباس الغبرينى و (٣٤) معالم الايمان لابى القاسم بن ناجى و (٣٥) الديباج لابى اسحاق بن فرحون و (٣٦) نيل الابتهاج لابى العباس احمد بابا و (٣٧) الاعتصام لابى اسحاق الشاطبى و (٣٨) بغية الوعاة فى طبقات النحاة للحافظ السيوطى و (٣٩) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة له أيضا و (٤٠) جذوة الاقتباس لابى العباس بن ابى العافية و (٤١) نفح الطيب لابى العباس المقرى و (٤٢) الاول من أزهار الرياض له أيضاً و (٤٣) البستان لابى عبد الله بن أبى مريم و (٤٤) الانيس المطرب لابى عبد الله العلمى و (٤٥) نزهة الحادى لابى عبد الله اليفرنى و (٤٦) خلاصة الاثر لابى

عبد الله محمد الحبى و (٤٧) المؤنس لابي عبد الله بن دينار و (٤٨) الحلل السندسية لابي عبد الله الوزير الاندلسى و (٤٩) بشائر أهل الايمان لحسين خوجه و (٥٠) حجة الله البالغة لابى العباس الدهلوى و (٥١) كشف الظنون لملا كاتب جلبى و (٥٢) رحلة أبي سالم العياشي و (٥٣) رحلة أبي العباس بن ناصر و (٥٤) رحلة الحسين الورتيلاني و (٥٥) التاريخ الباشى لابي محمد حموده ابن عبد العزيز و (٥٦) تاريخ أبي الثناء محمود مقديش و (٥٧) تاريخ أبى العباس بن أبي الضياف و (٥٨) رحلة الشيخ رفاعة التهطاوى و (٥٩) الخلاصة النفيسة لابي عبد الله محمد المسعودى و (٦٠) خلاصة تاريخ العرب للعالم سيديو و (٦١) الفتوحات الاسلامية لابي العباس احمد دحلان و (٦٢) الاستقصا لابي العباس احمد الناصرى و (٦٣) تاريخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتى و (٦٤) عناية أولى المجد لابي الربيع سليمان سلطان المغرب و (٦٥) ذيله شذور العسجد لابي محمد عبد الحفيظ الفاسى و (٦٦) تعريف الخلف برجال السلف لابي القاسم محمد الحفناوى و (٦٧) مفتاح السنة للاستاذ محمد عبد العزيز الخولى و (٦٨) الشرب المحتضر لابى الفضل جعفر الكتانى و (٦٩) سلوة الانفاس لابنه أبى عبد الله محمد و (٧٠) مسامرات الظريف لابي عبد الله محمد السنوسي و (٧١) الاستطلاعات له أيضاً و (٧٢) حسن البيان لابى عبد الله محمد النيفر و (٧٣) أشهر مشاهير الاسلام لرفيق بك العظم و (٧٤) نور اليقين لابى عبد الله محمد الخضرى و (٧٥) التشريع الاسلامى له و (٧٦) المحاضرات له أيضاً و (٧٧) الاول من اليواقيت الثمينة لابى عبد الله محمد البشير ظافر و (٧٨) طبقات الصوفية للعارف الشعرانى و (٧٩) كشف الغمة له و (٨٠) لطائف المنن والاخلاق له أيضا و (٨١) فهرست أبى الحسن النورى و (٨٢) فهرست أبى عبد الله الامير و (٨٣) فهرست أبى الحسن خليفة و (٨٤) فهرست أبى حفص عمر بن الشيخ و (٨٥) فهرست أبى عبد الله المهدى الوزاني وفهرست أبى عبد الله الغرياني وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجى زيدان وغير ذلك مما وقع العثور عليه فى الشروح والحواشي والوقوف على كثير منها وقع بواسطة بعض الفضلاء جزاهم الله عنا أحسن الجزاء حسبنا الله ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الجغرافية

اعلم أنه تقدم الكلام فى الفريدة الاولى من المقدمة على علم الجغرافية وفضيلته وأقسامه وأنه مرتبط بعلم التاريخ ارتباطاً وثيقاً ومتعلق به تعلقاً عريقاً فهما اخوان يتعاونان وفرسا رهان يتسابقان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر. وهو علم يبحث فيه عن هيئة الارض وأحوالها ووصف ما عليها من جبال وأنهار ومدن وسكان وما شاكل ذلك، وحيث تقدم لنا ذكر ما لزم ذكره من العلم الاول وجله يتعلق بافريقيا ناسب أن نذكر هنا باختصار ماكان من علائق ايالة تونس من جهة العلم الثانى تتميما للفائدة فنقول :

ينقسم سطح الكرة الأرضية الى قسمين عظيمين : يابس وماء. فاليابس يشغل ربع سطح الارض والماء يشغل ثلاثة أرباع سطحها. وينقسم كل من اليابس والماء الى خمسة أقسام يعبر عن كل قسم من أقسام اليابس بالقارة

أقسام اليابس خمسة : افريقيا، وآسيا، وأوربا، وأمريكا، واستراليا

فافريقيا يحدها شرقاً المحيط الهادىء وغرباً المحيط الاطلانطيق ويفصلها عن آسيا البحر الاحمر وترعة السويس وعن أوروبا البحر الابيض المتوسط

التعريف بالقطر التونسى

هذا القطر يسمى افريقية وهو أحد الممالك الاربعة الواقعة فى شمال قارة افريقيا غرب القطر المصرى وهى : طرابلس الغرب، وتونس، والمغرب الاوسط، والمغرب الاقصى

جغرافية ايالة تونس

يحدها شمالا وشرقاً البحر الابيض المتوسط وجنوباً طرابلس الغرب والصحراء الكبرى وغرباً الجزائر

جبالها

هذا القطر جزء من سلسلة جبال الاطلس التى تخترق هذا القطر وغيره ينقسم الى عدة

فروع أشهرها جبل مطاطة وجبل عين دراهم و جبل الرقبة و جبل الرصاص وجبل زغوان وهو أعلاها يبلغ ارتفاعه نحو ١٣٠٠ متر

أنهارها وبحيراتها

ليس بها الا نهر واحد يذكر وهو نهر مجردة الذى ينبع من ولاية قسنطينة التابعة للجزائر ثم يخترق هذا القطر من الغرب الى الشرق و يصب فى البحر الابيض المتوسط بقرب غار الملح ولا يحمل القوارب ، وفيها عدة جداول و عيون وثلاث بحيرات وهى بحيرة الحاضرة و بحيرة بنزرت و بحيرة الكلبية بين القيروان والساحل

هواؤها معتدل فى الجهة الشمالية و يغلب الحر فى الجهة الجنوبية و اذا هبت ريح الجنوب على أى جهة فى اى وقت تحدث الحرارة .و يشتد البرد فى الشتاء ولكن لالدرجة تجمد المياه و لا ينزل الثلج الا نادراً في بعض الجهات

مساحتها تبلغ ٤٥ الف ميل مربع

عدد سكانها أكثر من المليونين منها بعاصمة الايالة نحو المائتى الف نفس غالبهم مسلمون

معادنها قليلة و يستخرج منها الرصاص والفضة والقصدير و الزئبق و الحديد والفحم الحجرى والرخام الاحمر والاخضر والفسفاط وهو كنز لا يفنى حصل منه نفع عظيم للعملة وغيرهم

حيواناتها : يوجد بها من الاهلية الخيل والبغال و الحمير و البقر والضان والمعز والابل ومن غيرها الغزال والخنزير ومن الوحوش الضبع والنمر والذئب والوعل وغير ذلك

زراعتها : تنقسم أراضى الايالة باعتبار الخصب الى ثلاثة أقسام :

فالجهة الشمالية الجبلية هى الاكثر خصباً وتربتها جيدة و يزرع فيها القمح و الشعير و الفول وغير ذلك وأهم جبالها عين دراهم و نفزه و المقعد بها غابات كثيفة غنية تستخرج منها الخفاف والاخشاب الصالحة لبناء السقف و غيرها

والجهات الوسطى والشرقية الجنوبية خصبها باعتبار قلة الامطار و كثرتها ولكن الارض من طبعها منبتة للغاية وبها غابات واسعة بالزيتون والمعاصر كثيرة لعصره وهى السبب فى ثروة أهالى تلك الجهة أعنى بذلك الساحل الذى مبدأه قرية أبى فيشه ومنتهاه قرية المحرص و يزرع بها غالب الاشجار ذات الثمار الطيبة كالبرتقال و التفاح والخوخ والاجاص و التين و العنب واللوز وغير ذلك والحبوب كالقمح والشعير و الفول والبطاطس و اللوبيا والحمص والعدس وكافة أصناف البقول

أما الانحاء الجنوبية فهى عبارة عن أراضى شاسعة ولا تمطر فيها السماء الا نادراً و ببعضها واحات ماؤها منهمر بها أشجار كثيرة وأغلبها النخيل الجيد الثمرة الرائحة داخل الايالة وخارجها

وهاته الواحات ذات منظر طبيعي بهيج وهي قفصه وتوزر ونفطه وقابس ونفزاوه وجرجيس

صناعتها: الصنائع المحتاج اليها كثيرة وأكثرها الاعتماد فيها على الآلات القديمة والعصرية آخذة في التقدم وأشهرها استخراج الروائح الطيبة ونسج الحرير المتقن والشاشيه واستخراج زيت الزيتون من معاصره الكثيرة بالآلات العصرية وفي الزيت والمنسوجات العمومية والقمح والشعير والفول رواج وما عدا ذلك انحط رواجه لمزاحمته بما يرد من خارج الايالة

والبضائع الواردة من الخارج كثيرة جداً منها المنسوجات القطنيـة والحريرية وآلات النقل وجر الاثقال وآلات الفلاحة وجلب المياه والاخشاب والحديد وآلات الاسلحة والفحم الحجري والنحاس والفضـة والذهب والفخار بأنواعه وزيت الغاز والسكر والشاي والبن والفلفل وغير ذلك مما هو كثير

وليس للحكومة ولا للاهالي سفن تجارية وأغلب التجارة داخلا وخارجا بيد الافرنج واليهود طرقها منظمة عمت الجهات وكذلك المواصلات بالسكك الحديدية وغيرها وبذلك حصلت الراحة في السفر ونقل البضائع وراجت التجارة في الجهات وعم النفع سائر سكان المملكة

معارفها ولغتها وديانتها

تدرس العلوم الدينية مقاصد ووسائل كالقرآن العظيم والتفسير والحديث رواية ودراية والفقه وأصوله والمنطق واللغة والنحو والمعاني والبيان والبديع والصرف والآداب والحساب والتاريخ في جامع الزيتونة وبه من التلامذة نحو الفي تلميذ وقليل من العلوم الدينية بالحواضر وبعض القرى والحكومة أنشأت مكاتب بالعاصمة وجهات الايالة لتعليم اللغة الفرنساوية ومبادىء العلوم العصرية وأما المعارف العصرية العالية فهي قليلة

لغة الاهالي العربية الشريفة والديانة الاسلامية وغالبهم على مذهب الامام مالك. أشهر مدنها بنزرت وهي مرفأ أمين جداً تحميه حصون قوية والقيروان وكانت عاصمة البلاد ولم تزل موضع احترام وسكانها مايقرب من العشرين الف نفس. وصفاقس وهي مرسى تجارية عصرية رتبتها ثانية بالنسبة للعاصمة وسكانها بأحوازها يربون على خمسة وسبعين الف نفس ويليها مرسى سوسة وسكانها يربون على عشرين الف نسمة ثم المنستير والمهدية وقابس وهي موان على البحر المتوسط وجرسيس ومدنين وحومة السوق بجربة وقفصة وتوزر ونفطة والكاف وباجه وسوق الاربعاء وتبرسق وتستور ومجاز الباب وماطر ورأس الجبل وطبربة وزغوان ونابل وقليبيه ومنزل تميم والحمامات وقرنباليا وسليمان والنفيضة والقلعة الكبرى وجمال وقصور الساف واجم الذيابة المسرح الروماني العجيب البناء والصنع. وهاته البلدان يتراوح سكانها من الخمسة آلاف نفس الى اثني عشر. أما بلد مساكن وبلد المكنين بالساحل فكل واحد منها سكانه نحو الخمسة عشر ألف نفس

الحكومة

إيالة تونس حكومة ملوكية وراثية للاكبر سناً من العائلة المالكة و هى تحت الحماية الفرنساوية من جمادى الآخرة عام ١٢٩٩ ومايو سنة ١٨٨١ م بمقتضى معاهدة باردو المنعقدة بين دولة الحماية ودولة الصادق باشا باى و اتفاقية المرسى الاضافية المنبرمة مع دولة الحماية و دولة على باشا باى فى شعبان عام ١٣٠١ وفى يونية سنة ١٨٨٣ وبمقتضى ذلك فان ادارة الشئون التونسية ترتبط بوزارة خارجية فرانسا التى ينوب عنها بالمملكة التونسية مفوض يسمى المقيم العام مولى من طرف رئيس الجمهورية الفرنساوية ويسمى وزير الخارجية للحكومة التونسية بأمر من سمو الباى

صاحب السيادة و الملك هو الملك المعظم الملقب بالباشا باى الذى له حق وراثة الملك وعند انتصابه على كرسى المملكة يحتفل به ليقر له بالملك سراة الامة من علماء ووجهاء وغيرهم ولحكومة فرانسا حق المراقبة على أعمال سموه والادارات التونسية واذا رأت بعض اصلاحات أو تنقيحات تعرض ذلك على سموه بواسطة جناب المقيم العام فاذا سمح بذلك ورآه سداداً يصدر أمره المطاع بتنفيذها ويراقب أعمال التنفيذ جناب المقيم العام الذى له النظر على كافة رؤساء الادارات وله السلطة على القوة الحامية للبلاد البحرية و البرية

تاريخ ايالة تونس

اعلم أنا بينا فى التتمة تاريخ الايالة بأبين بيان و أشبعنا القول فى ذلك وأتينا فى آخرها على خلاصته ولنأت هنا على خلاصة الخلاصة وهى الخاتمة فنقول :

هذا القطر توالت عليه دول أربع قبل الاسلام وهى القرطاجنيون فالرومان فالوندال فالروم البزنطيون

وبعد الفتح الاسلامى تولاه أمراء من الصحابة والتابعين ثم سبع دول وهى دولة المهالبة من عام ١٥١ الى عام ١٨١ هجرية وكانت تابعة للعباسيين مع التصرف المطلق داخلا ثم دولة الاغالبة من عام ١٨١ الى عام ٢٩٧ ثم دولة الفاطميين من عام ٢٩٧ الى عام ٣٦٥ وكانت الايالة حينئذ مستقلة تماما ثم دولة صنهاجة من عام ٣٦٥ الى عام ٦٠٢ إلا أنها كانت تظهر الخضوع تارة للفاطميين وطوراً للعباسيين وفى سنة ٦٠٢ خلفتها دولة الحفصيين الذين كانوا مستقلين ثم دولة الترك فى عام ٩٨١ وتركت لها استقلالها الداخلى ولقب حكامها بالداى والباشا الذين انتهى حكمهم سنة ١١١٧ حيث تولتها العائلة الحسينية وأولها حسين باشا بن على تركى وهى فى قبضتها الى أن دخلت تحت حماية دولة فرانسا وفى هذا الوقت أميرها الانخم ومليكها الاعظم سمو احمد باشا باى الثانى المؤيد بالسبع المثانى .

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وسلم

الخاتمة

الكلام على المنستير الذى فضله شهير وقدره خطير ومحله فى النفوس أثير وهو مسقط رأس العبد الفقير ومنبت غرسه ومجمع أهله وأنسه ومحل استقرار الاخيار كابن يونس والمازرى وابن العطار نوه المؤرخون وغيرهم بشأنه وبالخصوص التواريخ المختصة بالمملكة التونسية ووقفت على بعضها وسنقص ما اقتطفته منها . فى الشفا عند ذكر مايتعلق بمكة المشرفة مانصه حكى أن قوما أتوا سعدون الخولانى بالمنستير وأعلموه ان كتامة قتلوا رجلا وأضرموا عليه النار طول الليل فلم تعمل فيه وبقى أبيض البدن فقال لعله حج ثلاث حجج حرم الله شعره بالثلاث حجج قالوا نعم قال حدثنا ان من حج حجة أدى فرضه ومن حج ثانية داين ربه ومن حج ثلاث حجج حرم الله شعره وجسده على النار . انتهى . قال الشهاب الخفاجى قوله المنستير بميم ونون وسين مهملة ومثناة فوقية وراء مهملة وهو لفظ رومى معناه عندهم خانقاه للرهبان على الطريق ينزل فيه أبناء السبيل والذى سمعناه منهم بفتح الميم وألف مع سكون السين وكسر التاء الفوقية وياء تحتية وقد يخفف بحذف الالف والياء وهو مما لاشبهة فيه عندهم فقوله فى القاموس منستير بضم الميم وفتح النون موضع بافريقية معبد الزهاد والمنقطعين وبلد آخر بافريقية أهله من قريش بينه وبين القيروان ست مراحل وموضع بشرق الاندلس . انتهى . مخالف لما صح سماعا فان ظنه عربيا فهو خطأ وان قال عُرّب وغُير كان عليه أن ينبه عليه . وقال التلمسانى انه بضم الميم والنون ويجوز كسر نونه والعامة تفتحها وعليه اقتصر الشمنى وهى بلدة بساحل البحر أو حصن رباط بافريقية له سور بناه هرثمة بن أعين بعثه الرشيد لافريقية سنة ١٧٩ . انتهى شهاب . وقال ابن خلكان عند ترجمة الحافظ النظار أبى القاسم هبة الله بن على بن مسعود بن ثابت الخزرجى المنستيرى المعروف بالبوصيرى المتوفى سنة ٥٦٨ مانصه: منستير بضم الميم وسكون السين وكسر التاء بلدة بافريقية بناها هرثمة بن أعين الهاشمى سنة ١٨٠ وكان الرشيد ولاه افريقية وقدم اليها فى ربيع الآخر سنة ١٧٩ . وقال أيضاً المنستير معبد بين المهدية وسوسة يأوى اليه الصالحون والمنقطعون للعبادة ، فيه قصور شبيهة بالخانقاهات وعلى تلك القصور سور واحد ذكره ياقوت فى كتابه . انتهى

قلت ما حققه الشهاب من ان لفظ ‹منستير› رومى هو الصواب يؤيده ان بالقرب من القصر شرقيه جزيرة منحوت بها بيوت كانت قبل الفتح الاسلامى مقر الرهبان والمنقطعين للعبادة فيه وبالقرب منه بالقراعية داموس منحوت فى جبل على شاطىء البحر يعرف الآن بالكحلية كان أيضاً مقراً للرهبان وقيل كان مقراً فى المصيف لبعض أمراء الرومان

أول من ألف فى فضيلة المنستير الشيخ الامام أبو زكرياء يحيى بن عمر المترجم فى الطبقة السادسة ومن تلامذته العالم المؤرخ أبو العرب محمد بن تميم المترجم له فى الطبقة السابعة من تآليفه طبقات علماء افريقية تعرض فيه لفضيلة المنستير وذكر أحاديث واليك بعضها :

قال : قال فرات بن محمد العبدرى : حدثنى أبو زكرياء الخراز بن سليمان قال سمعت البهلول ابن راشد يقول ان هرثمة بن أعين استشاره فى بناء المنستير وعدد له هرثمة مابناه فى أرمينية وفى غير موضع فقال له البهلول ماذكرت شيئاً إلا والمنستير أفضل منه وذلك انه بلغنى عن النبى ﷺ انه باب من أبواب الجنة . وحدثنى فرات قال حدثنى أبو الشيخ المفسر عن عبد الرحمن ابن زياد عن مطرف عن عبد الله رفعه الى النبى ﷺ قال المنستير باب من أبواب الجنة يقال له الانف ودونه قنطرة من قناطر الاولين وحدثنى فرات قال حدثنى خلف بن محمد القابسى قال حدثنا بهلول بن راشد قال حدثنا عباد بن كثير عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ بساحل قونية باب من أبواب الجنة يقال له المنستير من دخله فبرحمة الله ومن خرج عنه فبعفو الله . وحدثنى فرات قال حدثنا عبد الله بن أبى حسان اليحصبى عن أبيه عن سفيان بن عيينة عن عبد الله بن دينار عن أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ من رابط بالمنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة قال أنس بخ بخ يارسول الله قال نعم يا أنس وله فى هذه الثلاثة أيام كأجر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين (قلت) فهاته الاحاديث كما ترى مروية عن فرات وقد أثبت فى ترجمته المذكورة فى الطبقة السادسة انه كان أعلم الناس بالناس وأوقع الناس بالناس حتى نسب للكذب . وهاته الاحاديث ذكرها ابن الشباط والتجانى فى رحلته وذكرها ابن ناجى وقال سمعت من شيخنا البرزلى يقول عن شيخه وشيخنا ابن عرفة يغلب على الظن أنها موضوعة (قلت) واذا ثبت انها موضوعة فالمظنون أن واضعها قصد بها الترغيب فى المرابطة لما يترتب عليها من مصلحتى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فان المراد منها ملازمة النظر فى موضع المخافة من العدو وفى الآخرة حصول الثواب الموجب لدخول الجنة أخرج الشيخان عن سهل بن سعد ان رسول الله ﷺ قال «رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها» وأخرج ابن ماجه بسند صحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «من مات مرابطاً فى سبيل الله تعالى أجرى عليه أجر عمله الصالح الذى كان يعمله وأجرى عليه رزقه وأمن من الفتان وبعثه الله آمناً من الفزع» والرباط والمرابطة أن يربط

هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون ملازمة النظر فى موضع المخافة من العدو . وأصل المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون الفريقان مستعدين لانزال فيحارب كل منهما الآخر ثم أطلق على كل مقيم بثغر يدفع عمن وراءه مرابطاً وان لم يكن له مايربط من الخيل . وقوله بخ بخ كلمة تقال عند المدح للشيء والرضى به وتكرر للتأكيد وهى امامبنية على السكون للوقف واما للوصل فتكسر وتنون وقد تشدد . والقنطرة لم يزل أثرها قائماً وبالقرب منها من الجهة الجوفية أثر بلدة رومانية بعضها غمره البحر والباقى هو بساتين تابعة للمنستير تعرف بالقديمة هواؤها نقى وحكى بعض المؤرخين انه كان هناك قصر يعرف بشقانص لا أثر له الآن

وزبدة القول ان للمنستير الشرف العظيم وقد صرح بذلك غير واحد من المؤرخين قالوا لاشك ان للمنستير فضلا وشأناً . وفى الحلل السندسية والبيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذاري الاشارة لذلك وفى رحلة الشيخ الورتيلاني انه دخل سوسة ولم يدخل المنستير وهى مدينة عظيمة قوية البركة عظيمة فى الزيارة لاحتوائها على طبقة من العلماء وأهل الترجيح من المؤلفين كالامامين ابن يونس والمازرى وغيرهما فان الوفود تأتى اليها من كل جانب . انتهى وقد ذكرها جماعة من الادباء منهم أبو عمرو عثمان بن عتيق المعروف بابن عربية المترجم له فى الطبقة الرابعة عشر ذكرها متشوقا فى قصيدة مدح فيها الامير أبا زكرياء الحفصى منها :

ذكرت جمة والذكرى تهيج لى فأين جمة منى والمنستير
وما مناى لياليها التى سلفت وما مناى محانيها المعاطير

والمراد بجمة المهدية

فصل فيما يتعلق بالقصر

قال البكرى ان محرس المنستير المعروف بالقصر الكبير له فى يوم عاشوراء موسم عظيم ومجمع كبير ضخم وبالمنستير الطواحن الفارسية ومواجل الماء وهو حصن عال متقن البناء والعمل وفى الطبقة الثانية منه مسجد لايخلو من خير فاضل يكون مدار القوم عليه وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين عن الاهل والعشائر وقال محمد بن يوسف هو قصر كبير عال بداخله ربض واسع وفى الربض حصن ثان كبير كثير المساكن والمساجد فى طبقات عالية بعضها فوق بعض وفى القبلة منه حصن فسيح فيه قباب عالية متقنة تنزل حولها النساء المرابطات تعرف بقباب جامع وبها جامع متقن البناء وبها حمامات كثيرة وكان أهل القيروان يخرجون اليهم بالاموال والصدقات الجزيلة وبالقرب من المنستير ملاحة عظيمة تشحن منها السفن بالملح الى البلاد وبقربها محارس متقنة البناء معمورة بالصالحين وليس بافريقية

أجل من محرس المنستير . انتهى . وفى حسن البيان القصر المذكور سامى بضخامته قصر أجم من الميا كل لما تقدم من الامم وفاق باضافة الغرض ومتانة المقصد لانه بنى لمصلحة وهو الرباط وهو قصور ثلاثة شامخة ذات طبقات تشمل مئات من البيوت وقد بنيت بالحجارة العظيمة بأحكم صنعة واتقان على غاية من الاحكام وفى وسطها مخازن للطعام ومواجل الماء ومستودعات آلات الحرب ومرابط الخيول وحولها القلاع الحصينة والحصون المنيعة يحيط بها أسوار شامخة التى تكاد تطرد الطير عن بلوغ أعلاها سموا وشحنها العرب بالقوات والخيل والرجال فكان يقصده من جهات أفريقية أهل التقوى والفضل والاحسان .وقال الشيخ مقديش المهدية لم يكن لها جنات ولا بساتين وانما يجلب اليها من المنستير ماتحتاج من الثمار . وبالمنستير قصور ثلاثة يسكنها العلماء والصالحون والاعراب لاتضرهم فى شىء من ثمرهم ولا من عمارتهم لانها محل رباط وعبادة وأهل المهدية يدفنون موتاهم فيها تبركا وهاته القصور أبراجها منتظمة مع قرب بعضها بها بيوت بعضها على بعض محكمة البناء وحولها دور يحيط بها سور قد رصص بناؤه (قلت) القصر الكبير متركب من قصور ثلاثة على الوصف الذى تقدم نقله عن الشيخ محمد بن يوسف ولم ينقص منه إلا القباب وله بابان قبليا المفتح واحد مفتحه فى صحن الجامع الكبير الذى هو الآن مطموس والآخر هو مدخل القصر

وبالمنستير قصران غير القصر الكبير أثبتها بعض المؤرخين (أحدهما) يعرف بقصر السيدة وقبرها بمقصورة بمسجد يعرف بالسيدة يزار الى هذا الوقت أما القصر فلم يبق له أثر ومحله الآن دور بعض بيوتها عتيق جداً باقية على حالها الى الآن ومن مشمولاته مسجد يشبه فى البناء والقدم مسجد السيدة به مغارة تحت الارض ومقصورة بها قبر والاقرب أنه قبر بعض ملوك صنهاجة ويعرف هذا القبر بسيدى عامر يزار حتى الآن . حكى لى شيخ مسن أنه يسمع سماعا فاشياً أنه كان وقع شروع فى حفر حذو القبر فاذا بنداء من القبر يقول : عامر عامر فمن ذلك الوقت عرف بسيدى عامر ومن مشمولاته أيضاً مسجد يشبه فى البناء والقدم مسجد السيدة يعرف هذا المسجد بمسجد الدز والاقرب أنه حرف وأصله المعز ومن مشمولاته أيضاً قبة فيها قبر أبى الحسن على السراج ويعرف الآن بسيدى السراج يزار (ثانيهما) القصر الذى به الزاوية المعروفة بسيدى ذويب وفيها قبر معروف به يقال انه من بيت ملوك بنى الاغلب وفيها مسجد عتيق يظهر أنه أقدم من مسجد السيدة ولم يبق من هذا القصر إلا هاته الزاوية وباقيه هو الآن دور وهذان القصران والقصر الكبير ودور تعرف بالزريبة كانت مسورة بسور لم يبق له أثر إلا من الجهة الشرقية فلم يزل قائماً الى هذا العهد وكان بين هذين القصرين داموس تحت الارض ممتد الى الجهة الغربية لايعرف له حد وبعض الدور مواجلها مقتطعة منه

عود الى الكلام على القصر الكبير * قال الشيخ مقديش : وقف لمصالح المرابطين جميع الاراضي المتصلة بالقصر لمرعى الدواب و الزراعة لمن يروم ذلك وغرست جنات عظيمة بكل مثمر ، و كانت بساتين قصر الرباط تشمل آلافا من تلك الاراضى ينتفع بها أهل الرباط جميعاً لافضل لاحدهم على الآخر ، وكان معظم غزاة البحر يركبون منه وقد أحدث العرب عند قصر الرباط مدينة لها عمران عظيم وجنات وزياتين بكيفية عجيبة حتى كانت مدينة المهدية فى عنفوان عمرانها وسطوة ملكها وقت الخلفاء العبيديين وملوك صنهاجة عالة على المنستير فيما تحتاجه من الثمار والفواكه وغير ذلك

فى حسن البيان نقلا عن حاوى البرزلى بعد نقل جواب الامام المازرى عن مخازن بالمنستير بالقصر الكبير مملوءة قمحاً وشعيراً لرجال مقيمين بالقصر ولآخرين غيب وعن زوار يغلقون مخازنهم ويخرجون فيقيمون شهرين ونحوهما وعمن له بيت بالقصر وهو يبيت خارجه ويأخذ من المعروف مثل من يبيت بالقصر وعن قوم من المرابطين بأيديهم من الاراضى أكثر مما بيد غيرهم وعن قوم غرسوا غراسة بأرض المنستير ما الحكم فيها ؟ وهل ان من حقوق الغارس أن لايخرج من يده ماغرس فى حياته وهل يكون للناظر فى ذلك اخراجها من يده فى حال دون حال أو لايكون له ذلك ؟ وهل يورث عنه من الغرس ماغرسه ؟

قال بعد نقل جواب الامام عن هذا السؤال مانصه : دخلت رباط المنستير فى حدود عام ستين وسبعمائة فرأيته محفوظا لاتدخله الناس ، وكانت أحباسه محفوظة ، وكان العرب لايتعرضونه إلا بخير فى دنياهم . ثم بعد ذلك جرت أمور على ما سمعت من تعرض العرب للحبس والدور وثمرات القصر ووقع الانتقاض منهم فى المال والرجال وافتتن أهلها مع العرب حتى أدى الامر الى تلاشى غرسها ورحيل أهلها حتى صارت الآن لامير المؤمنين فهى الآن على ماسمعت فى عز وعافية ، وعادة الله أن قصر الرباط لايتحمل التخليط بوجه فمتى حدث فيه ذلك عوقبوا ، وأما بقية غرسها وبياضها فهم اليوم يملكونه ولا أدرى هل توصلوا اليه بحق أو هو كما قال الامام فعلى هذا فى أكل ثمار الموضع نظر إذ هو حبس الا أن يكون جاء بقصد الرباط فيستحقه من هذه الحيثية ، وكذلك ثلاث رباع البلد الدائرة بالقصر وجميع ماحوله من الاراضى مما ينسب الى المنستير الذى يسمى القرطين وهو جميع دخلة القصر منسوب اليه انتهى حسن البيان . قلت: جواب الامام عن السؤال طويل الذيل اشتمل على فوائد كثيرة نقله الونشريسى فى معياره بنصه والقرطين مكان بعيد عن المنستير بنحو ثلاثة أميال أراضيه خصبة وقع الاعتناء بغراستها وزراعتها منذ عهد قديم وبها آبار كثيرة ودور اندثرت ومسجد لم يزل قائما الى هذا الوقت

أول من تولى النظر على هذا القصر الامير أحمد أحد ملوك بنى الاغلب حين امتلأ القصر بالمرابطين وأجرى عليهم مايلزم من النفقة وقد بلغ عدد المرابطين به فى مدة سعدون الخولانى

شيخ القصر المترجم له فى الطبقة السابعة زهاء أربعة آلاف مرابط بين عالم وزاهد وصالح ، وكانت ملوك الشيعة تخشاه ولم ضاق القصر على سكانه أضيفت الاراضى التى حوله حتى القرطين فبقى المرابطون دوراً حوله وغرسوا الاراضى التابعة له للانتفاع بها ، وأول دور بنيت هى الدور المعروفة بالزريبة وكانت قليلة فى زمن سحنون ولذا قال : ان اقامة الجمعة لاتجب على أهلها ، ثم استمر الحال على ذلك الى أن آل أمر القصر والاراضى التابعة له الى مارأيت فى السؤال الوارد على الامام المازرى ثم استمر تزايد بناء الدور والعمران الى أن صارت مدينة مسورة بسور وذلك أواسط المائة السابعة ثم آل الامر الى مارأيت فى حكاية الامام البرزلى ، وفى أوائل المائة التاسعة كان شيخ القصر أبا عبد الله محمد بن أبى زيد المترجم له فى الطبقة السابعة عشر وكان به من التلامذة مايزيد على المائة رحلوا اليه من الآفاق وكل من حل به يجد مسكناً يأوى اليه ومعلماً يؤدبه ويعلمه القرآن والعلوم الدينية ويجد مايلزم من أمر المعيشة وهى أمور تعين على طلب العلم ولا يخفى أن أكبر الاعوان وأهمها فراغ البال من أمر المعيشة وكانت الارزاق تأتى اليهم والى من به من المرابطين من أوقافه ومن جهات افريقية كقفصة ونفزاوة وقابس والجزيرة والقيروان وغيرها ثم قام ابنه أحمد واستمر الحال على ذلك الى أن استولى عليه الاسبان أواسط المائة العاشرة فهدم منه جانباً بعد ماقتل وأسر من لايعد كثرة نقل ذلك الشيخ عظوم فى أجوبته ثم أصلحه وأصلح المنار الذى به ، وقيل هو الذى أسسه ثم افتكه منه الترك وصار أمره الى الانحلال والتقهقر تحت نظر حفدة الشيخ ابن أبى زيد الى أوائل القرن الثالث عشر صيره الامير حموده باشا معقلا حربياً ونقل الطلبة الذين به لزاوية سيدى ذويب المتقدم الذكر وأجرى على عشرة منهم النفقة من أوقاف زاوية الشيخ أحمد بن أبى زيد المذكور وجعل لهم مؤدباً يعلم القرآن ومدرساً يقرىء مبادىء العلوم الدينية جرايتها من الاوقاف المذكورة ونظرهم لقاضى المكان ، ثم ان الباشا حسين بن محمود باى جعل به سنة ١٢٤٦ العساكر النظامية وشحنه بآلات الحرب ، وفى أيام المشير أحمد باشا كان به من العساكر النظامية نحو ثلاثة آلاف واستمر الحال على ذلك الى أن نصبت فرانسا حمايتها على الايالة التونسية سنة ١٢٩٨ فأزالت مابه من الذخائر وآلات الحرب حيث صارت غير صالحة للدفاع وأغلقته واستولى عليه الخراب واعتبرته وأسوار المدينة الحكومة من الآثار العتيقة وصدر أمرها بالمحافظة عليها تحت نظر جمعية الاوقاف والادارة الحربية . ولما قامت الحرب الكبرى المشار لها آخر التتمة وقع اسكان جماعة به من أسارى الالمان وتسخيرهم لاصلاح الخراب الذى به وأقاموا به أشهراً ثم نقلوا وسكن به طائفة من جالية دولة الروسيا عند استيلاء جمهورية السوفيات على بلاد القريم مع طائفة من عساكر الاحتلال ثم خرجوا وبقيت به العساكر الى هذا الوقت ، والحاصل ان القصر الى هذا العهد آثاره تدل على أنه كان فى العهد القديم آية دالة على

عظمة العرب خالدة الى الآن

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا الى الآثار

وهو الى هذا الوقت على طبقات ثلاث به منارة سامية الارتفاع قامت كأنها عمود مخروط يستطلع منها المستطلع فيرى ما يملأ النفوس بهجة وحسناً فيرى المدينة وماحولها من حدائق الزيتون والبساتين الملتفة كأنها بسيط أخضر جميل المنظر مد البصر يتخلل ذلك البسيط قرى تحف بها حدائق الزيتون يرف خضاره ونضاره ويرى مدينة سوسة العروسة القريبة منها بنحو أحد عشر ميلا بحراً ويشاهد مبانيها الانيقة . وبالجملة فانه لاإشراف كاشرافه حسناً وجمالا واتساع منظر يروق ويرى الابصار بهجة ونوراً ، وبالقصر قبور كثير من العلماء والصلحاء وغالبهم مجهول الاسم أو محرف والمعروف منهم أبو عبد الله بن أبي زيد وأبو الفضل يوسف ابن نصر وسعدون الخولاني والشيخ الشريف وبهذا يعرف والشيخ جابر المهدوي وبخارج القصر على يسار الداخل له بيت به قبر الامام أبي عبد الله بن يونس الصقلي ويعرف بسيدي الامام وبالقرب منه قبة بها قبر يعرف بسيدي مفتاح عتيقة

هذا مايتعلق بالقصر أما مايتعلق بالمدينة فقد تقدم أن القصور الثلاثة كانت مسورة بسور ثم أزيل وذلك بعد حصول زيادة كثيرة في الدور وأضيفت للقصور وما حولها من الدور وسورت بسور وهي المعروفة الآن بحومة المدينة بها مساجد كثيرة عتيقة منها مسجد يعرف بمسجد الامام المازري ومسجد يعرف بمسجد ابي يوسف الداهاني به قبر يزار وبالجهة الغربية من هذه الحومة ربض يعرف بالربض الاوسط وبابه يعرف بالباب الجديد به سوق واسع الفناء زاهي البناء وهو مجتمع الناس للتجارة وغيرها وبه الجامع الحنفي ومن الجهة الجوفية منه مسجد عتيق يعرف بمسجد المرأة الصالحة عافية ويشمل هذا الربض حومتين الجبانة والشراقة وبه مقام أبي بكر الحنفي المترجم له في الطبقة الرابعة عشر والشيخ الحياص قديم العهد ومقام الشيخ الهلالي قديم العهد أيضا ومقام الشيخ المجذوب بوطاره الحنفي من أهل المائة الثانية عشر وبالجهة الغربية من هذا الربض ربض يعرف بالربض الاقصى ويشمل حومتي باب الفرج والطرابلسية به تربة الشيخ عمر القلال من أهل القرن الثاني عشر وفي القديم كان على كل منها سور ثم أزيلت الاسوار الفاصلة بين الربضين وحومة المدينة ولم يبق منها الا السور المحيط بجميعها وأما الربض الجوفي من هذين الربضين فسور بسور على عهد علي باشا ابن حسين باشا وبذلك صارت مدينة فسيحة الارجاء لها ربضان جوفي ويعرف بربض الخروبي وبقربه مسجد يعرف بمسجد السراة غمره البحر ولم يبق له أثر وقبلي ويعرف بالقراعية على شاطىء البحر به آلاف المباني الانيقة فللعين هناك منظر وانشراح وللنفس مزيد انبساط وانفساح وبه مقام الشيخ منصور بن يزيد ومقام الشيخ مسعود الغربي ومقام الشيخ العربي وهو عتيق

جيداً وعلى شاطىء البحر داموس منحوت فى جبل يعرف بالكحلية يقال انه كان معداً لمصيف بعض أمراء الرومان أو مقراً لطائفة من الرهبان وبالجهة الغربية من المدينة مع انحراف الى جوف القبلة والجوف حدائق الزيتون والبساتين ذات الاشجار الملتفة اليانعة يحيط بجميع ذلك قبلة وشرقا وجوفاً البحر فى شبه شكل مثلث زاويته المدينة وتلك الاشجار ومنها التى ببساتين شقاقص ثمرات طيبة النكهة سيما التفاح له خاصية من الفضل عجيبة لان رائحته من أعطر الروائح وأطيبها يدخل به الداخل عليك فتجد رائحته العبقة قد سبقت اليك فيكاد يشغلك الاستمتاع بطيب رياه وحسن منظره عن أكلك إياه يهدى للاحبة والامراء والخاصة من الفضلاء وبالجملة فتربتها نقية وهواؤها صحيح منعش للنفوس والابدان فى كل وقت وزمان ويغالب دورها المواجل والآبار منها ماهو صالح للشرب ومنها ماهو غير صالح وفى سنة ١٣٢١ أسست الحكومة شركة تعرف بشركة مياه الساحل لجلب الماء المنهمر المنسرب من عيون معينة من ولجة أبى حفنة بعمل القيروان فى قنوات الحديد وأنابيب الرصاص يتفرع الى فرعين كل فرع ينقسم الى مذانب يخترق بسائط وعمائر وقرى وما من قرية مر عليها إلا ولها نصيب من ذلك الماء . فرع ينتهى الى سوسه وفرع ينتهى الى المنستير وحصل بذلك نفع عظيم ومنحت الشركة الاشتراك فيه لاصحاب الدور والبساتين والحمامات وغيرها بثمن معين من المال يدفع سلفاً فى كل ستة أشهر والقدر المستهلك منه يعرف بمنقالة الماء وهى آلة تشبه منقالة الساعة الزمنية

أهلها معروفون بالذكاء وكرم الاخلاق والتواضع فلا تلقى منهم إلا وجهاً طلقاً وكلمة لينة ولهم كرامة للغرباء وإقبال عليهم . سنتهم فى المعاشرة عجيبة وسيرتهم فى التزام رتبة الخدمة غريبة مع الكد والجد والوفاء بالعهد . محافظون على عوائد أسلافهم ومعتنون بتهذيب أخلاق أولادهم ولهم اعتدال فى معاملاتهم وليس لهم الآن كبير حظ فى التجارة لقربها من سوسه المقصودة براً وبحراً لتحسين مرساها التحسين العصرى . أما قبل هذا التحسين فقد كان للمنستير الحظ الاوفر فى تجارة الزيت وغيره براً وبحراً

سكانها زهاء عشرة آلاف نفس ومع قلة هذا العدد بالنسبة للحواضر غيرها فان كثيراً من الخطط النبيهة بأيديهم فلا يخلو منهم ديوان من دواوين الحكومة وفيها كثير من ذوى البيوتات النبيهة كبيت ابن أبى زيد وبيت مخلوف وبيت مزالى وبيت نويره وبيت بوزقرو وبها مجلس شرعى متركب من قاض ومفتيين وبها مدرسون خمسة يقرؤون العلوم الدينية وواحد يقرئ فن القراءات وفيها مكتب تبرع به بعض أهل البر لتعليم أبناء المسلمين القرآن العظيم وبعض مبادىء العلوم الدينية به الآن ما يربو على مائة تلميذ

وفيها مكتب ذو طبقتين جميل ينقسم الى قسمين قسم للذكور وقسم للاناث لتعليم أولاد

الاهالى على اختلاف أديانهم مبادىء اللغة الفرنساوية ومبادىء بعض العلوم العصرية به نحو سبعمائة تلميذ وفى سنة ١٣٢٧ أحدث بها مستشفى غاية فى الاحتفال مع الاتساع وكثرة المرافق جار الآن على استقامة لاهتمام الحكومة به . أوقف عليه الاهالى ما ربو على ألفى أصل زيتونا وألفت رسالة لطيفة سميتها بالمازرى فى فضيلة المستشفيات والطب وتعرضت فيها لترجمة بعض المشهورين بعلم الطب وما لهم من المؤلفات فيه كابن رشد وابن زهر والمازرى

وبالمستير معمل وآلات لصيد الحوت المعروف بالتن شهرته تغنى عن التعريف به والمستير معدودة عند الحكومة من الحواضر الاربع التى لها مزيد اعتبار القيروان وسوسه وصفاقس وقريب عهد كانت هاته الحواضر الاربع وتونس معفاة من أداء المجبا

ذكر من بالمقبرة من الفضلاء

المقبرة بفتح الميم وتثليث الباء موضع القبور ومقبرة المستير بالجهة الجوفية بها قبور كثير من العلماء والزهاد والصلحاء والكثير منهم ذهب اسمه أو غير اسمه ورسمه وغالب قبور هؤلاء الافاضل بالعتيقة غمرها البحر ولم يبق لها أثر فدثرت بسبب ذلك مشاهدهم المباركة وذهب على أهل البلد أسماؤهم ولنذكر ما أمكن معرفة اسمه أو قبره منهم أبو زكرياء الحداد وأبو الحسن الكانشى وابن العطار وابن سعدى وأبو اسحاق الصفاقسى وهؤلاء تقدم ذكرهم فى المقصد وابن الفرس من بيت عبد المنعم بن الفرس الاندلسى وأبو على الدبوسى وأبو الفضل الغدامسى الذى مقامه بالجزيرة قرب المقبرة وتقدم ذكره فى المقصد وبالقرب منه قبر الشيخ السنفاج وبالمقبرة مقام الشيخين عبد الغنى المزوغى وأبى على يونس بن السماط وتقدمت الاشارة اليه فى المقصد مع أخيه أبى يعقوب يوسف ونقلا من مدفنهما الاول الى المقام المذكور حين خشى عليهما من البحر ومقام الامام المازرى منقوش بحجر فوق الباب انه نقل ومعه كثير من العلماء وتقدم نقله بنصه فى ترجمته بالمقصد وذلك حين خيف عليهم من البحر على عهد الباشا على ابن الباشا حسين وعلى عهده كان اصلاح الجامع الكبير وتأسيس الجامع الحنفى وبناء سور الربض الجوفى ومقام أحمد ابن أبى زيد المترجم له بالمقصد نقل اليه سنة ١٣١٠ من مقامه الاول وكان عليه بناء حفيل ضمه البحر اليه بعد النقل ولم يبق له أثر الآن ومقام الصالحة البرقاوية وقبور تحت السور تعرف بقبور بنات السلطان ومقام الشيخ الطرودى وصدر الاذن بنقلته حيث تهيأ البحر لجذبه ومقام جد العبد الفقير الشيخ عمر مخلوف الشريف وهو من فريق أولاد مخلوف الذين ينسبون أنفسهم لذلك وينسبهم الناس اليه خلفاً عن سلف وكان بأيديهم ظهير من أمراء افريقية فى اعفائهم من المطالب الدولية ومن هذا الفريق الشيخ مخلوف الشرياني الذى قبره بشريانة القريبة من

صفاقس قال الشيخ مقديش ومن مشايخ صفاقس الشيخ مخلوف الشريانى أصله مغربى صحب الشيخ العياشى بطلبه وهو من أكابر الصالحين والعلماء العاملين له تخميس على بردة المديح وله عقب بأيديهم ظهير من أمراء الحفاصة وأمراء العساكر العثمانية . انتهى . وقوله مغربى يعنى من فرقة بالمغرب أشار لها الشيخ العياشى فى آخر رحلته حيث قال ثم مررنا بأولاد سيدى مخلوف وهم فقراء أشراف . انتهى . والجد عمر مخلوف المذكور مقامه متبرك به كان معتقداً من أكابر الصالحين كثير الكرامات وكان بالحياة أوائل القرن الحادى عشر ومن أخص أصدقائه الشيخ عبد الرحمن الجندولى ومقامه بالمقبرة والشيخ منصور بزيد الذى مر ذكره قريباً والمرأة الصالحة عائشة الفتحية التى مقامها قريب من مقام الجد وهم معروفون بالصلاح معاصرون للشيخ المربى المعتقد الكثير الاتباع أبى شامة عامر ابن الشيخ سالم الشهير بالمزوغى صاحب الزاوية الشهيرة بالساحل بين سوسة والمنستير المتوفى سنة ١٠٤٩ المتولد سنة ٩٢٩ ووالدته ريانة بنت الشيخ نصر الشارف الذى مقامه ببلد الساحلين وبالمقام قبر الشيخ سالم المذكور وكانت طريقة الشيخ عامر جزولية وكان من أصحاب أبى الغيث القشاشى وتاج العارفين البكرى وتقدم ذكرهما فى المقصد وأقام بصفاقس نحو الخمسين عاماً ومنها انتشر ذكره

وبالمقبرة ألواح وأعمدة من حجر كثيرة منقوش عليها بالقلم الكوفى مبعثرة وأكثر من ذلك مادرس فى القبور والحيطان وجمل أعمدة سقف عليها كما هو مشاهد الآن بمقام الامام المازرى وبمقام أبى على السماط وغيرهما وبعضها مكسر لا يمكن حصول نفع منه بحال

عود الى الكلام على قصر السيدة

فى المؤنس ان بنى زيرى دار ملكهم أولا المنصورية ثم انتقلوا الى المهدية فى زمن المعز ابن باديس ومدفنهم بالمنستير بقصر السيدة وكان لهم قاموس عظيم وعساكر عديدة وبلغوا رتبة السلاطين وقال ابن خلكان نقلا عن كتاب الجمع والبيان لابى محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز انه جرت العادة ان كل أمير من هذا البيت يدفن فى قصره ثم ينقل بعد سنة الى قصر السيدة بالمنستير (قلت) ومن المقبورين بهذا القصر الذى مر وصفه قريباً وقبرها غير معروف أم ملال قال ابن العذارى هى أخت نصير الدولة باديس بن منصور عمة المعز ، وهى أول من بايعته وهنأته بالولاية فى المهدية ، وتوفيت سنة ٤١٤ . انتهى . ومن المقبورين بالقصر وقبرها معروف لهذا الوقت فى مقصورة بمسجد يزار يعرف بالسيدة ، قال ابن العذارى وفى سنة ٤١٢ توفيت السيدة زوجة نصير الدولة وكفنت فيما لم يذكر ان ملكا من الملوك كفن بمثله فحكى من حضره من التجار ان قيمته مائة ألف دينار وجعلت فى تابوت من عود هندى قد رصع بالجواهر وكانت جنازتها لم ير مثلها وكانت مسامير التابوت بألفى دينار وفى سنة ٤١٣

أعرس المعز فكان له عرس ما تهيأ لأحد قط من خلفاء الاسلام وشرحه الرقيق فى كتابه تركناه اختصاراً . انتهى . وفى المؤنس انها جدة المعز توفيت سنة ٤١١ وكفنها بما قيمته مائة ألف دينار وعمل لها تابوتاً من العود المندى مرصعاً بالجوهر وصفائح الذهب وسمر التابوت بمسامير الذهب وزنها ألف مثقال وأدرجت فى مائة وعشرين ثوباً وذر عليها من المسك والكافور مالا حد له وقلد التابوت باحدى وعشرين سبحة من نفيس الجوهر وحملت الى المنستير ودفنت بها وأمر المعز بخمسين ناقة ومائة رأس من البقر وألف شاة فنحرت وفرق فى مأتمها على النساء عشرة آلاف دينار . انتهى

(قلت) ماصرح به ابن المذارى من انها والدة المعز مخالف لما فى المؤنس من انها جدته والذى صرح به ابن عذارى هو الصواب وما فى تاريخ الشيخ مقديش يؤيده ومحل الحاجة منه كتب الشيخ سيدى محرز بن خلف كتاباً الى باديس ولما وصل اليه قرأه وعمل بما فيه من النصائح ثم بعثه الى السيدة وقال لحامله قل لها هذا كتاب سيدى محرز فاحتفظى عليه وامل بركته تعود عليك ولما وصل لها قرأته ثم طبيته وخرزت عليه وكانت حاملا فولدت المعز فى جمادى الاولى سنة ٣٩٨ انتهى . والمعز تقدمت ترجمته فى التتمة وكان ملكاً جليلا عالى الهمة محباً لاهل العلم كثير العطاء وكان واسطة أهل بيته ولما توفى نقل من قصره ودفن بقصر السيدة وذكرنا قريباً ان المسجد المعروف بالدز محرف والصواب المعز ومن المقبورين بالقصر وقبره غير معروف أبو يحيى تميم بن المعز كانت له فضائل وأشعار كثيرة ومن شعره قوله :

ان نظرت مقلتى لمقلتها تعلم مما أريد نجواه
كأنها فى الفؤاد ناظرة تكشف أسراره وفحواه

وقوله :

فكرت فى نار الجحيم وحرها يا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربى أن خير وسيلتى يوم المعاد شهادة الاخلاص

ولابن رشيق فيه مدائح وكان يجيز الجوائز السنية ويعطى العطاء الجزيل وقصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار كابن السراج السورى وأنظاره مولده سنة ٤٢٢ وتوفى سنة ٥٠١ ودفن بقصره ثم نقل لقصر السيدة بالمنستير وخلف من البنين أكثر من مائة ومن البنات ستين على ماذكر حفيده عبد العزيز بن شداد بن تميم ومن المقبورين بقصر السيدة أبو الطاهر يحيى بن تميم المذكور لما تمت له البيعة قام بالامر وعدل فى الرعية وفى أيامه وصل للمهدية محمد بن تومرت قادما من الحج فنزل بالمهدية وشرع فى تغيير المنكر ثم انتقل الى المنستير ثم الى بجاية، وقيل ان اقامته بالمهدية كانت فى أيام تميم المذكور وتقدم بعض خبره فى ترجمة يحيى المذكور فى التتمة وفى ترجمة أبى بكر بن العربى فى المقصد وكان الامير يحيى المذكور كثير المطالعة لكتب الاخبار

والسير عارفاً بها مقرباً لاهل العلم والفضل وله نظر حسن فى صناعة النجوم والأحكام وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه وخلدوا مدحه فى دواوينهم ، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز . وتوفى يوم عيد النحر سنة ٥٠٩ ، ودفن بقصره ثم نقل لقصر السيدة على ما جرت به العادة وقام مقامه ابنه أبو الحسن على وكان جواداً مفضالا من الاذكياء محباً للعلم والعلماء . وتوفى سنة ٥١٥ بالمهدية ثم نقل لقصر السيدة على ماجرت به العادة . ولابى الصلت المذكور منزلة جليلة عنده . ومن شعر أبى الصلت فى أبى الطاهر يحيى المذكور القصيدة التى مستهلها :

قضى الله أن تفنى عداك وأن تبقى ... وتخلد حتى تملك الغرب والشرقا

قال : أنشدت يحيى بن تميم هاته القصيدة وخاصته بين يديه وعبد العزيز بن عمار فى الجملة وكان فى هاته الصناعة أبصر الجماعة . فقال له يحيى : كيف ترى ما تسمع ؟ قال : حسن الحوك محكم السرد . فقال له أتعرف قائله ؟ قال : لا . قال : هو ذلك الجالس يشير الىَّ . فعلاه بسبب ذلك فتور ونفور عن الاستماع بحسب ما يعرض من العوام الرعاع عند ما ينشدون لمن جمعهم واياه مكان وزمان وانما عنوا بامتداح القديم وتعظيم العظم الرميم وسببه الحسد وكثيراً ما يعدون الصواب محالا والصداء آلا والقوام اعوجاجا والعذب ملحاً اجاجا . أنتهى

(قلت) : قال بعضهم : المعاصرة أصل المنافرة . وقال شيخنا حسين بن أحمد : المعاصرة حجاب

وأبو الصلت هذا مقبور بالمنستير وقبره غير معروف وهو ابن الصلت أمية بن عبد العزيز ابن أبى الصلت الاندلسى يكنى بالاديب الحكيم . فى صلة ابن الآبار : خرج من بلاده ابن عشرين سنة يطلب العلم فتفنن فى العلم والآداب والعروض والتاريخ وسجن أثناء ذلك ثم تخلص من اعتقاله فنزل بالمهدية على رأس الخمسمائة فى كنف أمرائها الصنهاجيين يحيى بن تميم ابن المعز وولده على عشرين سنة وكان من أفراد العلماء وفحول الشعراء والادباء وله تآليف فى فنون شاهدة بفضله ودالة على سعة علمه ، وقد أوردت له فى تأليفى تحفة القادم كثيرا من شعره وكتب الى أبو جعفر بن عات أن أبا الحسن بن المفضل أنشده بالاسكندرية قال أنشدنى عبد الله بن يوسف القضاعى قال أنشدنى أبو الصلت أمية بن عبد العزيز قال أنشدنى أبو محمد التكريتى من تلامذة الغزالى لابى حامد هذا ولم أسمعه من غيره ، ولا ذكره أبو الصلت ، فى الحديقة :

جملت عقارب صدغه فى خده ... قمراً يجل سنى عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها ... فمن العجائب كيف حلت فيه

أفادنى أكثر خبره بعض أصحابنا عن أبى عبد الله عبد الخالق الخطيب بالمنستير توفى سنة

٥٢٠ أو بعدها فنسى انتهى . وفى حسن المحاضرة : أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الدانى الاندلسى قال فى العبر كان ماهراً فى علوم الاوائل رأساً فى معرفة الهيئة والنجوم والموسيقا والطبيعى والرياضى والالهى كثير التصانيف بديع النظم مات سنة ٥٢٨ عن ثمان وستين سنة انتهى . وقال ابن خلكان : أبو الصلت أقام تحت كنف الامير يحيى بعد أن جاب الأرض وتقاذفت به البلدان وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن وله أيضاً مدائح فى ولده أبى الحسن على وولد ولده الحسن وأخذ عن جماعة من أهل الاندلس وغيرها منهم أبو الوليد الوقشى قاضى دانية وسابق فضلاء زمانه وأهل عصره وأوانه يقال : ان عمره ستون عاما عشرون باشبيلية وعشرون بافريقية عند أمرائها الصنهاجيين وعشرون فى مصر محبوساً فى خزائن الكتب فخرج فى فنون من العلم اماما وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين وله فى ذلك وغيره تآليف تشهد بفضله منها كتاب الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبى وكتاب ذيل به كتاب الرقيق فيما وقع فى دولة باديس وأبيه وجده وكان له شعر جيد رقيق جمعه فى ديوان خاص وصنف وهو فى اعتقال الافضل وهو بمصر رسالة العمل بالاسطرلاب وكتاب الوجيز فى علم الهيئة وكتاب الادوية المفردة وكتاب تقويم الذهن فى المنطق وكتاب الانتصار فى الرد على ابن رضوان فى رده على حنين بن اسحاق فى مسائله وله الرسالة المشهورة التى وصف بها مصر وعجائبها وله غير ذلك وكانت له منزلة جليلة بالمهدية على صاحبها على بن يحيى بن تميم وولد له بها ولده عبد العزيز وكان شاعراً ماهراً وله فى الشطرنج يد بيضاء وتوفى ببجاية سنة ٥٤٦ وتوفى أبو الصلت سنة تسع أو ثمان وعشرين وخمسمائة ونظم أبياتاً أوصى أن تكتب على قبره :

سكنتك يادار الفنـاء مصدقا ... بأنى الى دار البقاء أصير
وأعظم مافى الأمر أنى صائر ... الى عادل فى الحكم ليس يجور
فياليت شعرى كيف ألقاه عندها ... وزادى قليل والذنوب كثير
فان أك مجزيا بذنبى فاننى ... بشرّ عقاب المذنبين جدير
وان يك عفو منه عنى ورحمة ... فثم نعيم دائم وسرور

انتهى باختصار . وانظر معه نفح الطيب ورحلة التجانى

أما نصير الدولة باديس فقد قال ابن خلكان توفى فى ذى القعدة سنة ٤٠٦ عقب سرور حصل له عند عرض عساكره عليه وهو فى قبة السلام جالس الى وقت الظهر وسره حسن عسكره وأبهجه زيهم وما كانوا عليه وانصرف الى قصره ثم ركب عشية ذلك النهار فى أجمل مركوب ولعب الجيش بين يديه ثم رجع الى قصره شديد السرور فلما مضى مقدار نصف الليل توفى وفى كتاب الدول المنقطعة ان سبب موته انه قصد طرابلس ولم يزل على قرب منها عازما على قتالها وحلف ان لايرحل عنها حتى يعيدها قال فاجتمع أهل البلد عند ذلك الى المؤدب محرز

وقالوا ياولى الله قد بلغك ماقاله باديس فادع الله أن يزيل عنا بأسه فرفع يديه الى السماء وقال : يارب باديس أكفنا باديس . فهلك فى ليلته بالذبحة . انتهى

(قلت) لعل المؤدب محرز كان فى تلك الايام بطرابلس والا فهو من أهل تونس و سكانها وهى بعيدة عن طرابلس مسيرة نحو عشرة أيام والذى فى المؤنس انه توفى بالغرب فى قتال زمانة تأمل . وباديس ووالده وجده مدفنهم صبرة وملوك هذا البيت مرت ترجمتهم فى التتمة وكان المعز ابن باديس يعظم الشيخ محرز بن خلف ويكاتبه من ذلك كتاب فاتحته : هذا ظهير كريم من القائم الناصر لدين الله المعز بن باديس الى الشيخ الصالح الكبير القدر محرز بن خلف الى آخره وكانت بينه وبين باديس مكاتبات وقد مر قريباً الاشارة الى ذلك وسترى مايؤيد ما ذكرناه . انتهى ماقصدناه وتم بفضل الله ما أثبتناه بعد ما استعنت به فى الاسعاف والاسعاد واستجرت به نعم المجير فى المبدأ والمعاد وانجر الحديث وهو شجون يجر بعضه بعضاً الى الشيخ محرز فخر الاسلام ومعتقد الخاص والعام ناسب أن نختم هاته الشجرة وختامها مسك بذكر البعض من فضيلته والمرجو من الله الحصول على شيء من بركة من ذكرناه بالشجرة وبركته ومعلوم انه عند ذكر مثل أولئك السادات تنزل الرحمات والمرجو أيضاً انزال رحمته ودوام نعمته واليك ترجمته ومحرز هو أبو محفوظ محرز بن خلف بن رزين بن يربوع بن حنظلة بن اسماعيل بن عبد الرحمن ابن سيدنا أبى بكر الصديق رضى الله عنهم وأفاض علينا من أنوارهم وكسانا بعض حلل أسرارهم الشيخ المعتقد المشهور لدى الخاصة والجمهور بالعلم والعمل والفضل المؤدب المربى العارف بالله الواصل الولى الكامل الكثير الكرامات والمناقب والحسنات كانت له اليد البيضاء في اعزاز السنة واخماد البدع مع الدين المتين والزهد والورع نفعه الله بنيته وتغمده برحمته . كان مجلسه مجلس وعظ مع كرم أخلاق وحلم يقول الشعر ويجيده وكان فى ابتداء أمره يسكن بالمرسى لا يألفه الا أصحابه فلما سكن تونس انبسط للفقراء والغرباء حتى كثر أتباعه فصار منهم من يصافحه ومن لم يصل اليه فيلتمس أثوابه بيده ويمسح بها على وجهه . أخذ عن واصل بن عبد الله القيروانى المشهور بالعلم والصلاح وروى عن أبى اسحاق الدينورى وكتب اليه أبو بكر الابهرى وروى عنه حاتم الطرابلسى ومن لا يعد كثرة وكانت وفاته سنة ٤١٣ وقد ناف عن السبعين وضريحه بتونس عليه بناء غاية فى الاحتفال والدعاء عنده مجرب الاجابة وهو الذى دعا أبا محمد عبد الله ابن أبى زيد لتأليف مايجب تعليمه لأبناء المسلمين وأجاب دعوته وألف الرسالة واليه الاشارة فى خطبتها بقوله فانك سألتنى الى آخره فأجبتك الى ذلك وفى المدارك جاء بعض طلبته اليه طالباً منه أن يكتب كتاباً الى باديس يعرف عنه ماهو فيه فأخذ قرطاساً وكتب بسم الله الرحمن الرحيم حقق الله الحق فى قلوب العارفين من عباده ونقل المذنبين الى ما افترض عليهم من طاعته أنا رجل عرف كثير من الناس اسمى وهذا من البلاء وأنا أسأل الله أن يتغمدنى برحمة منه وفضل

وربما أتانى المضطر يسأل الحاجة فان تأخرت خفت وان ساعدت فهذا أشد وقد كتبت اليك فى مسألة رجل من الطلبة طولب بدراهم ظلماً ولا شىء له وحامل رقعتى يشرح اليك ما جرى فعامل فيه من لا بد لك من لقائه واستح ممن بنعمته وجدت لذيذ العيش واحذر بطانة السوء فانهم انما يريدون دراهمك وشاور فى أمرك من يتق الله ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ومن يتق الله يجعل له مخرجا واستعن بالله فان من يتوكل عليه فهو حسبه انتهى . هذا وما قصدت جمعه بهذه الشجرة قد انتهى و بلغت فيه ولله الحمد سدرة المنتهى وأدركت الغاية من ذكر سادات مداركهم سامية ومعارفهم راقية وأنفاسهم زاكية روح الله أرواحهم وأسكننا جوارهم فى جنة عالية قطوفها دانية لاتسمع فيها لاغية ونسأله وهو لاتخفى عليه خافية الاخلاص فى النية سراً وعلانية وله الحمد باطناً وظاهرا أولا وآخرا . وصل اللهم وسلم و بارك على أشرف النبيين سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وكان الفراغ من ترتيبه وتهذيبه فى المحرم سنة ١٣٤٠ ثم وقعت زيادة جمل اقتضاها الحال ونسأله خلوص النية فى الاقوال والافعال



استدراك

نظراً لما وقع فى الاربعين حديثاً الثنائية المذكورة فى المقصد ـ آخر الطبقة الثالثة ـ من تحريف ونقص أعيد تحريرها هنا بعد مزيد التحرى والاهتمام ، ومقابلتها بفسخ من كتاب الموطأ . والعمل على نصها هذا ، ولا عمل على ما كتب بآخر الطبقة الثالثة

تنبيه

أخذ مالك بن أنس رضى الله عنه عن أعلام من أئمة الدين وهم كثيرون جداً واقتصرنا على ذكر شيوخه المذكورين بالطبقة الثالثة وشيوخ شيوخه المذكورين بالطبقة قبلها لانهم المروى عنهم ثنائيات الموطأ وهى تنيف عن مائة حديث ، وأثبتنا أربعين حديثاً منها هنا تبركا واتباعا لقوله ﷺ « من قرأ على أمتى أربعين حديثاً كنت له شفيعاً يوم القيامة » وفى رواية « من حفظ على أمتى أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها اليهم كما سمعها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة » والاعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى . وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

ماجاء فى صفة النبى ﷺ

١ — مالك عن ربيعة بن عبد الرحمن عن أنس بن مالك أنه سمعه يقول : كان رسول الله ﷺ ليس بالطويل البائن ولا بالقصير وليس بالابيض الأمْهَق ولا بالآدم ولا بالجَعْد القَطِط ولا بالسَّبِط بعثه الله على رأس أربعين سنة فاقام بمكة عشر سنين وبالمدينة عشر سنين وتوفاه الله على رأس ستين سنة وليس فى رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء

ماجاء فى الرؤيا

٢ — مالك عن اسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة الانصارى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »

حديث نبع الماء من تحت أصابعه

٣ — وبه أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتمس الناسُ وَضُوءاً

فلم يجدوه ، فأتى رسول الله ﷺ بوضوء فى اناء فوضع رسول الله ﷺ فى ذلك الاناء يده ثم أمر الناس يتوضون منه . قال أنس : فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضوا من عند آخرهم

الترغيب فى الصدقة

٤ — وبه أنه سمع أنس بن مالك يقول : كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالا من نخل وكان أحب أمواله بيرحاء . وكانت مستقبلة المسجد ، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب . قال أنس فلما أنزلت هذه الآية ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ قام أبو طلحة الى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله ان الله تبارك وتعالى يقول ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ وان أحب أموالى إلى بيرحاء وانها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله فضعها يا رسول الله حيث شئت قال : فقال رسول الله ﷺ : بخ ذلك مال رابح ذلك مال رابح وقد سمعت ما قلتَ فيه وانى ارى أن تجعلها فى الاقربين . فقال أبو طلحة افعل يا رسول الله فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه

ماجاء فى المهاجرة

٥ — مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله اخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهاجر أخاه فوق ثلاث ليال »

السنة فى الشراب ومناولته عن اليمين

٦ — وبه أن رسول الله ﷺ أتى بلبن قد شيب بماء وعن يمينه اعرابى وعن يساره أبو بكر فشرب ثم أعطى الاعرابى وقال : الايمن فالايمن

ماجاء فى النهى عن تأخير صلاة العصر

٧ — مالك عن العلاء بن عبد الرحمن أنه قال : دخلنا على أنس بن مالك بعد الظهر فقام يصلى العصر فلما فرغ من صلاته ذكرنا تعجيل الصلاة أو ذكرها فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « تلك صلاة المنافقين تلك صلاة المنافقين تلك صلاة المنافقين يجلس أحدهم حتى اذا اصفرت الشمس وكانت بين قرنى الشيطان أو على قرن الشيطان قام فنقرها أربعاً لا يذكر الله فيها الا قليلا

ماجاء فى الوليمة

٨ — مالك عن حميد الطويل عن أنس بن مالك أن عبد الرحمن بن عوف جاء الى رسول

الله ﷺ وبه أثر صفرة فسأله رسول الله ﷺ فأخبره أنه تزوج فقال رسول الله ﷺ : كم سقت اليها ؟ فقال زِنَةَ نواة من ذهب فقال له رسول الله ﷺ : أولم ولو بشاة

ماجاء فى الحجامة واجارة الحجام

٩ — وبه أنه قال : احتجم رسول الله ﷺ حَجَمَه أبو طيبة فأمر له رسول الله ﷺ بصاع من تمر وأمر أهله أن يخففوا عنه من خراجه

ماجاء فى الغزو

١٠ — وبه أن رسول الله ﷺ حين خرج الى خيبر أتاها ليلا وكان اذا أتى قوماً بليل لم يغُر حتى يُصبح فخرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم فلما رأوه قالوا محمدٌ والله محمدٌ والخميس فقال رسول الله ﷺ الله أكبر خربت خيبر انا اذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين

قطع التلبية

١١ — مالك عن محمد بن أبى بكر الثقفى أنه سأل أنس بن مالك وهما غاديان من منى الى عرفة كيف كنتم تصنعون فى هذا اليوم مع رسول الله ﷺ قال كان يهلل المهلل منا فلا ينكر عليه ويكبر المكبر فلا ينكر عليه

ماجاء فى تحريم المدينة

١٢ — مالك عن عمرو مولى المطلب عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ طلع له أحد فقال هذا جبل يحبنا ونحبه اللهم ان ابراهيم حرم مكة وانى أحرم ما بين لابتيها

ماجاء فى وباء المدينة

١٣ — مالك عن نعيم بن عبد الله المجمر عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله ﷺ على أنقاب المدينة ملائكة لايدخلها الطاعون ولا الدجال

ماجاء فى سفر النساء

١٤ — مالك عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تسافر مسيرة يوم وليلة الا مع ذى محرم منها

فى جامع ماجاء فى الطعام والشراب

١٥ — مالك عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن أبى شريح الكعبى أن رسول الله ﷺ

قال : من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته يوم وليلة وضيافته ثلاثة أيام فما كان بعد ذلك فهو صدقة ولا يحل له أن يثوى عنده حتى يحرجه

ماجاء فى سكنى المدينة والخروج منها

١٦ — مالك عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ على الاسلام فأصاب الاعرابي وعك بالمدينة فأتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله أقلنى بيعتى فأبى رسول الله ﷺ ثم جاءه فقال أقلنى بيعتى فأبى ثم جاءه فقال أقلنى بيعتى فأبى فخرج الاعرابى فقال رسول الله ﷺ انما المدينة كالكير تنفى خبثها وينصع طيبها(١)

فى جامع ماجاء فى الطعام والشراب

١٧ — مالك عن أبي الزبير المكى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال أغلقوا الباب وأوكئوا السقاء واكفئوا الاناء أو خمروا الاناء وأطفئوا المصباح فان الشيطان لا يفتح غلقاً ولا يحل وكاء ولا يكشف إناء وان الفويسقة تضرم على الناس بيتهم

فى جامع ماجاء فى تعجيل الفطر

١٨ — مالك عن أبي حازم بن دينار عن سهل بن سعد الساعدى أن رسول الله ﷺ قال : لايزال الناس بخير ما عجلوا الفطر

ماينفى من الشؤم

١٩ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : ان كان فى الفرس والمراة والمسكن . يعنى الشؤم

ماجاء فى رؤية الهلال للصوم والفطر

٢٠ — مالك عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال الشهر تسع وعشرون فلا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه فان غم عليكم فاقدروا له

قدر السحور من النداء

٢١ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : ان بلالا ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى ينادى ابن أم مكتوم

---

(١) قوله ينصع من النصوع الخلوص أى يخلص

مكيلة زكاة الفطر

٢٢ — مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ فرض زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين

ماجاء في القرآن

٢٣ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : انما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الابل المعقلة ان عاهد عليها أمسكها وان أطلقها ذهبت

النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وغروبها

٢٤ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : لايتحر أحدكم فيصلي عند طلوع الشمس ولا عند غروبها

فضل صلاة الجماعة على صلاة الفذ

٢٥ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة

غسل يوم الجمعة

٢٦ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : اذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل

الصلاة في البيت

٢٧ — وبه أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة بن زيد وبلال بن رباح وعثمان ابن طلحة الحجبي فاغلقها عليه ومكث فيها قال عبد الله فسألت بلالا حين خرج ماصنع رسول الله ﷺ فقال : جعل عموداً عن يمينه وعمودين عن يساره وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى

مواقيت الاهلال

٢٨ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : يهل أهل المدينة من ذى الحليفة ويهل أهل الشام من ذى الجحفة ويهل أهل نجد من قرن قال عبد الله بن عمر وبلغني أن رسول الله ﷺ قال ويهل أهل اليمن من يلملم

من جامع الايمان

٢٩ — وبه أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب وهو يحلف

بأبيه فقال رسول الله ﷺ ان الله ينها كم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت

ماجاء فى التعفف عن المسألة

٣٠ — وبه أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر وهو يذكر الصدقة والتعفف عن المسئلة : اليد العليا خير من اليد السفلى . واليد العليا هى المنفقة والسفلى هى السائلة

فى جامع الجنائز

٣١ — وبه أن عبد الله بن عمر قال ان رسول الله ﷺ قال : ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ان كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة وأن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال له هذا مقعدك حتى يبعثك الله الى يوم القيامة

تحريم الخمر

٣٢ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : من شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يتب عنها حرمها فى الآخرة

ماجاء فى الخيل والمسابقة بينها

٣٣ — وبه أن رسول الله ﷺ قال : الخيل فى نواصيها الخير الى يوم القيامة

٣٤ — وبه أن رسول الله ﷺ سابق بين الخيل التى قد أضمرت من الحيفاء وكان أمدها ثنية الوداع وسابق بين الخيل التى لم تضمر من الثنية الى مسجد بنى زريق وان عبد الله بن عمر كان فيمن سابق بها

ماجاء فى الكلاب

٣٥ — وبه أن رسول الله ﷺ قال من اقتنى إلا كلبا ضاريا أو كلب ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان (١)

ماجاء فى قتل الحيات

٣٦ — مالك عن نافع عن أبي لبابة أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الحيات التى فى البيوت

(١) قوله « من اقتنى الا كلباً ضاريا » كذا فى رواية يحيى ، وروى غيره : من اقتنى كلباً الا كلبا ضارياً، اي معلما للصيد منقاداً

بيع الذهب بالورق تبراً وعيناً

٣٧ — مالك عن نافع عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال لا تبيعوا الذهب بالذهب الا مثلا بمثل ولا تشفوا بعضها على بعض ولا تبيعوا الورق بالورق الا مثلا بمثل ولا تُشِفُّوا بعضها على بعض ولا تبيعوا منها شيئاً غائباً بناجز (١)

ما يكره من الكلام بغير ذكر الله

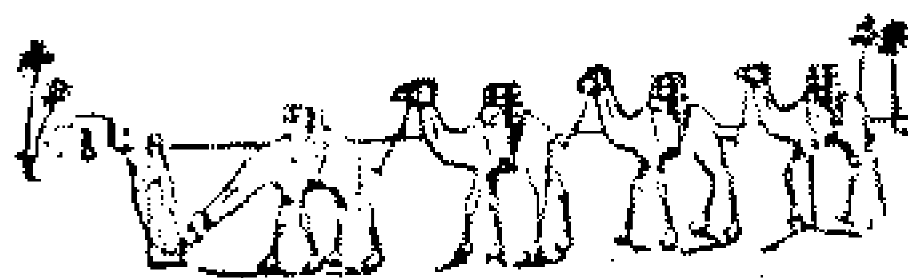
٣٨ — مالك عن زيد بن أسلم عن عبدالله بن عمر انه قال قدم رجلان من المشرق فخطبا فعجب الناس فقال رسول الله ﷺ ان من البيان لسحراً أو قال ان بعض البيان لسحر

ماجاء فى اسبال الرجل ثوبه

٣٩ — مالك عن نافع وعبد الله بن دينار وزيد بن أسلم كلهم يخبره عن عبد الله بن عمر ان رسول الله ﷺ قال لاينظر الله يوم القيامة الى من يجر ثوبه خيلاء

ماجاء فى الطعام والشراب

٤٠ — مالك عن أبي نعيم وهب بن كيسان قال أتى رسول الله ﷺ بطعام ومعه ربيبه عمر بن أبي سلمة فقال له رسول الله ﷺ سم الله وكل مما يليك



(١) قوله تشفوا من الاشفاف أي لا تفضلوا

التقاريظ

الحمد لله . يقول العبد الفقير الى ربه اللطيف ، محمد مخلوف الشريف : ان من الواجب عليّ اسداء الشكر ، ونشر ألوية الثناء وجميل الذكر ، الى أعلامٍ نبهاء ، وأئمة فضلاء ، منّوا عليّ بتقاريظهم وأتحفوني بمعانيهم الرائقة ، وأشعارهم الفائقة . واليك ماورد لى من جنابهم ؛ شكر الله سعيهم ، وأحسن جزاءهم ، فازدان جيد كتابي بما نظموه ، وافترّ ثغره بما نثروه ، فمنها ما لحضرة صديقنا الملاطف ، مطرز لطائف المعارف ، بطوارف الطرف واللطائف ، روض الادب الزاهر ، والحسب الباهر ، الشيخ المفتى بالمستير محمود ابن الشيخ المفتى بها أحمد موسى مخلوف الشريف

ظَهَرَ الكِتَابُ كأَنَّهُ صُبْحٌ بَلِجْ (١) ... يَاحُسْنَهُ بِمَحَاسِنِ الدنيا امْتَزَجْ
أَهْدَى صَبَا نَجْدٍ فأَنْعَشَ مُدْنَفاً ... أمسى وأَصْبَحَ مِثْلَ مَيْتٍ مندرجْ
وبدا السُّرُورَ به فَعَمَّ وخصَّني ... فكأَنَّ يومَ ظهوره لى يومُ حَجْ
هذا كتابٌ ضمّ تاريخَ الأُلَى ... قامتْ لِمذْهَبِ مَالِكٍ بهمُ الحججْ
فهمُ الفطَاحِلُ لايُشَقُّ (٢) غُبَارُهُمْ ... وبهم إِمامهمُ الحِجازِيُّ ابْتَهَجْ
أَنْشَاهُ نُخْبَةُ عَصْرِهِ قاضي المُسْـــتِيرِ الذى بذكائِهِ ملكَ المهجْ
الشيخُ مَخْلُوفٌ وما أَدْرَاكَ ما ... حَدِّثْ عن البحر المحيط ولا حَرَجْ
جَمَعَ المفـــرق واعتنى وأَظُنُّهُ ... لِسَماءِ تحقيقِ الحقائقِ قد عَرَجْ (٣)
فَأَتَى به أُعْجُوبَةً فى بَابِهِ ... يشفي الفُؤَادَ ويشرحُ الصدر الحرجْ (٤)
يشفي ويكفي أنني عاينْتُهُ ... فرأَيتُ كلّ الصَّيْدِ فى الضِّمْنِ اندَرَجْ
وشَّى (٥) مقاصده ببعض زوائدٍ ... زانتْ محيَّاهُ كما زانَ الدَّعَجْ

---

(١) بَلَجَ وتَبَلَّجَ : أضاء (٢) لا يُشَقُّ غبارهم : يقال فلان لا يشق غباره أى لا يدرك شأوه وأصله السابق من الخيل (٣) عَرَجَ : ارتقى (٤) الحرج : الضيق (٥) وشَّى : زيّن

جرَّ الحديثُ لها فجاء كأنَّهُ ثغرُ المليحةِ زادَ حُسْناً بالفَلَجْ(١)
وبحسْنِ آداب تَضَوَّعَ نَشرُهُ(٢) فكأنَّ نفحَ الطيبِ من ذاك الأرَجْ
قُلْ لِلَّذينَ تَحَيَّرُوا مِنْ بعضِ ما وجدوه في تلكَ المهَامِه(٣) من عوَجْ
وَتَشَكَّكُوا في معضلاتٍ يالَها: قد جاءكم قولُ المبشّر بالفَرَجْ
هذا طِرازٌ ليس يُدرِكُ شأوَهُ يُزْرِي بألحانِ المزَاهِرِ والهزَجْ(٤)
لِمَ لايفوقُ على سواه وربُّهُ فاق السِّوى والمسكُ بعض دَمٍ لزِجْ(٥)
أكبَرْتُهُ وأخذْتُ في تقريظهِ وعليَّ أُرتِجَ فانثنيتُ كَمُرتَجِ(٦)
ثم ادَّكَرْتُ فكانَ تنويهي بهِ مِشْارَ مافي باطني منه اختلج
لله ناسجُ بُرْدِهِ كم جَدَّ في تنقيحه لِلّهِ كم خاضَ اللُّجَجْ
سَهِرَ الليالي باحثاً ومفكراً وأنيسُهُ فيها كتابٌ مُنبلِجْ
ولنَا لقَدْ أهدَى نتيجةَ عُمْرِهِ في لحظةٍ مِنْ غيرِ تعويضٍ خَرَجْ

(١) الفلج في الأسنان تباعد ما بين الثنايا والرباعيات (٢) تضوع نشره: ضاع المسك من باب قال تحرك فانتشرت رائحته وتضوع أيضاً وتضيع مثله والنشر بوزن النصر الرائحة الطيبة فمعنى تضوع نشره تحركت رائحته الطيبة (٣) المهامه جمع مهمه والمهمه المفازة البعيدة (٤) يزري الازراء التهاون بالشيء يقال أزرى به اذا قصّر به والمزاهر جمع مِزهر بالكسر وهو العود الذي يضرب به والهزج ضرب من الأغاني له ترنم وصوت مطرب واسم جنس من العروض (٥) لزج سيأتي بيانه (٦) وَعَلَيَّ ارتِجَ: ارتج بالبناء للمفعول وتخفيف الجيم المعجمة يقال ارتج على القارئ اذا لم يقدر على القراءة كأنه أطبق عليه كما يرتج الباب وفي القاموس رتج الباب أغلقه كأرتجه وكفرح استغلق عليه الكلام كارتج عليه. وفي المختار: رتج الباب أغلقه وارتج على القارىء على مالم يسم فاعله اذا لم يقدر على القراءة كأنه أطبق عليه كما يرتج الباب وكذا ارتج عليه على مالم يسم فاعله أيضاً. وفي المصباح: ارتجتُ الباب ارتاجا أغلقته اغلاقا وثيقاً ومنه قيل ارتج على القارىء اذا لم يقدر على القراءة كأنه منع منها وهو مبني للمفعول مخفف وقد قيل ارتج بهمز وصل وتثقيل الجيم وبعضهم يمنعها انتهى. وعلى المنع درج في المختار ثم قال صاحب المصباح وربما قيل ارتج بالبناء للمفعول أيضاً ويقال رتج في منطقه رتجا من باب تعب اذا استغلق عليه والمرتعج المرتعد وفي القاموس ارتعج ارتعد

لا أنتهي لا أرعوي عن مدحه ... بالحق أصدع دون شك أو مرج(١)
مالط حق الناس إلا جاهل ... يهذي على البسطاء بالقول السمج(٢)
ولقد خشيت بأن أموت ولا يرى ... منى له يوماً عبوساً ذا هرج(٣)
يارب هب عمراً طويلاً يجتلي ... حرب البسوس به على بعض الهمج
من لا يقر لفاضل بفضيلة ... فأنا له أضع المزج(٤) على الودج
أسكنت أهل العلم فى ثبج الحشا ... وطعنت فى أعدائهم طعناً بزج(٥)
وأنا الذى عرف الحقوق لأهلها ... ولتلك شنشنتى على طول الأبج(٦)
ولذاك قرظت الكتاب بغادة ... تسبي العقول بحسن منظرها البهج
زينتها منه بجيم جماله ... وجعلت خاء الخال فى الخد الضرج(٧)
فإليكها من كامل فى كامل ... مامثلها فى مسمعى يوماً ولج(٨)
حق على فعلته ولربه أسديته فالبشر عندى مزدوج
ياحضرة الأستاذ إن كتابكم ... بلغ النهاية وارتقى أعلى الدرج(٩)
لله درك لاعدمتك صاحبا ... يضع الدوا فى موضع النقب اللزج(١٠)
برح الخفاء وود كل مؤرخ ... لو أنه حاذى نسيجك مذ نسج
ما كان أحسن ماصنعت وحبذا ... تاريخك الروض الأريض المفترج
رقت شمائله ورق حديثه ... نفع الإله به على مر الحجج

---

(١) مرج اختلاط (٢) لط جحد والسمج القبيح (٣) الهرج الوقوع في الفتنة والقتل
(٤) المزج الرمح (٥) ثبج الشيء وسطه والزج الحديدة فى أسفل الرمح
(٦) الشنشنة الطبيعة والخلق والابج الابد (٧) الضرج الشديد الحمرة (٨) ولج يلج: دخل
(٩) الدرج المراقي الواحدة درجة مثل قصب وقصبة (١٠) اللزج لزج الشيء من باب تعب اذا كان فيه ودك يعلق باليد فهو لزج وفى القاموس لزج كفرح تمدد وتمطط انتهى: وقوله يضع الدوا فى موضع النقب معناه يضع الشيء فى محله

وجزاك عنهُ جزاءه سُبحانَه   فعَطاؤهُ هيهاتَ تحكيه اللجج
ولكَ الهناءُ به كتاباً سامياً   يحظى به مَنْ كانَ في الذوق اندمج(١)
قرتْ به عينُ الوَدُودِ وزادَ في   كَمَدِ الحسودِ فباتَ يلتقمُ الحدَج(٢)
والكونُ أشرقَ من ضياء كماله   والشمسُ إن طلعتْ فاضوءُ السُّرج(٣)
تاريخه شمسٌ وعَرْفُ ختامِهِ   مسكٌ تأرَّجَ نفحُهُ من كُلّ فج
ثم الصلاةُ معَ السلامِ على النبيّ   والآلِ والاصحابِ ما بَرقٌ رَعَج(٤)
وبجاهه وبجاههم يا ربَّنا   أقِلِ العِثارَ ونجِّ من حَرِّ الوَهج

****

ومنها ما لفضيلة العلامة الاديب، الآتى من سحر البلاغة بكل عجيب. ذى الرأى الصائب، والفكر الثاقب. الشيخ محمد بوشارب باش مفتى قفصه والمكلف بقسم الحساب بوزارة العدلية:

نحمدك اللهم كما ينبغى لجلال وجهك وامظيم سلطانك، ونشكرك شكراً يؤذن بازدياد برك وبجزيل امتنانك. ونسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن ترسل سحائب صلواتك وتسليماتك، وسوابغ رحماتك وبركاتك، على روح سيدنا محمد فى الارواح، وعلى جسده فى الاجساد، وعلى قبره فى القبور. ثم على أرواح آل بيته الطاهرين، وأصحابه حماة الدين، وعلى أرواح أتباعهم وأتباع أتباعهم من كل من رفع للعلم رمحا، وأبدى به لدى الظلماء صبحا. أما بعد، فأقول: اقراراً بأيدى ذوى الجد واكباراً لجدوى أولى المجد: انى طالعت الانموذج المحتوى على سبع فرائد من

---

(١) اندمج فى الشىء دخل فيه وتستر به وفى القاموس دمج دموجاً دخل فى الشىء واستحكم فيه كاندمج   (٢) الحدج الحنظل   (٣) السرج جمع سراج وهو المصباح ككتاب وكتب   (٤) رعج فى القاموس ورعج ماله كسمع كثر وكمنع أقلق كارعج والبرق تتابع. انتهى

الكتاب القيم الذى ألفه حديثاً أستاذ المحققين ، وممن تلقوا راية العلم باليمين . عين أعيان قطره ، وفخر قضاة عصره . أبو الفضل المولى **محمد بن محمد مخلوف** المنستيرى أدام الاله حفظه ، وأجزل من المثوبة حظه . فألفيته بحراً طامياً وقف الكاتبون بساحله وكوكباً هادياً قصرت أيدى المؤرخين عن تناوله . لا جرم أنه أنهل فاروى ، وجمع فأوعى . ولقى من الشعب ، ما يلقى الحبيب من المحب . وحلّ من ذوى الفضل محلا لم يكن حل من قبل . فرأيت ـ على ما أنا عليه من الشغل المحتدم ، والفكر الغير المنتظم ـ أن أعلق عليه بالأبيات الآتية تنويهاً بشأن جماله ، واطراء لواضعه بذكر البعض من خصاله . فقلت :

يصون عتيق المجد متقد العزم ... ويحمى حمى الاسلاف مستكمل الحزم
ويعنى بآثار الذين تقدموا ... أخو همة ترمى الى قمة النجم
أصيل معالى النفس أكبر همه ... مسابقة الاقران فى حلبة العلم
ألا قل لمن خص النهوض بمن مضوا ... وأعلن أن الجد مخلوق الرسم
رويدك ما هـــذا الغلو فانه ... من الخطأ المحض التسرع بالحكم
فكم فى الزوايا من خبايا لباحث ... وكم من بقايا في أساتذة اليوم
قفنْ بحمى فخر القضاة محمـــد ... أبى الفضل مخلوف تجد أيما شهم
يريك مثال الجد فى طلب العلا ... وساطع نور الفكر فى الاعصر الدهم
وتشهد أن العلم ما زال شاغلا ... لاهل النهى عن كل ذى شرف وهمى
همام رأى أن استمالة شعبه ... لاحيائهم فخر الجدود من الحتم
وآنس فى التاريخ أعظم كافـــل ... بنيل المنى فانساب فى ذلك اليمّ
وخاض به تلك المخاطر تاركاً ... بساحله من كان مستضعف العزم
وآب وقد حازت يداهُ فرائدا ... تراءت لنا فى سلك مختصر فخم
كتاب جلا نهج الاوائل وانطوى ... على حجج أخنت على لدد الخصم

حوى من سراة الدين كل سميدع ... أقرّ له بالفضل متسع الفهم
وبات به مفتى المدينة آمنا ... على المذهب السامى البناء من الثلم
فلا عجب ان حلّ من كل ناظر ... اليه حلول البرء من صاحب السقم
وذاد عن الأوساط نومة ذاهل ... وسورة أيام حزن الى المظم
تطلع من أفق الاجادة فانبرى ... اليه بفرط المدح ذو الادب الجم
وصار حديث القوم فى كل منتدى ... يقدر حق القدر جدوى أولى العزم
واصبح بين النـــاقدين وبينه ... من البعد ما بين الاباطح والعصم
أبا الفضل ان عز الثنـاء بمـا يفى ... بحقك فالاغضاء شأن أخى الحلم
قضى الله أن يلقى صنيعك فوق ما ... نود من الاطراء بالنثر والنظم
كتبت فألهمت الشبيبة رشدها ... وقمت لوجه الله بالواجب القوى
وأحييت ذكرى الغابرين من الألى ... بهم بلغ الاســـــلام مبلغه العلمى
وجئت بوضع سابغ النفع لم تزل ... بفضلك بين الناس أنباؤه تنمى
تبارك من أوحى اليك بصنعه ... وخصك بالابداع فى البدء والختم

****

ومنها ما جادت به قريحة شمس المعارف، وملمع بروز الاسرار واللطائف . الغنى بنسبه الطاهر عن التعريف، شيخنا عبد الحى الكتانى الشريف مذيلا بأجازة عامة، مرت الاشارة اليها بالمقصد ومحل الحاجة :

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه * الحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى . أما بعد، فقد وقفت على هذا المدون الجامع ، والتاريخ الذى يتدفق افادة بلا مدافع . فشكرت سعى مؤلفه العالم النحرير ، وهمة جامعه الدراكة البدر المنير . ولعمرى ان الاعتناء بجمع تراجم أعيان الملة ، وفضلاء الامة . لمن المتعين على الخلف ، قياما ببعض ما يجب لرجال السلف . فهم آباؤنا في الدين ، والوسائط بيننا وبين سيد المرسلين . فحفظ آثارهم يعين على الاقتداء بمناهجهم . ولذا ورد أن من أرخ مؤمنا فكأنما أحياه وذلك لان

باحياء ذكره وهممه يقوى الانبعاث على الاقتداء بهداه . فنعم السفر المسطور ، والعمل المبرور . فما على المؤلف حفظه الله تعالى بعد التعب ، وطويل النصب ، الا إذاعة هذه المجموعة ، وعدم ابقائها عن الاستفادة ممنوعة . فان الخير النافع يجرى مجرى المياه فى تعميمها ووقوع الحياة بها من غير مدافع . وبما تحقق لى من فضل المؤلف وبراعته وسمو مدار كه وحسن سمعته قات اجابة لطلبه واسعافا لرغبته : أجزت العلامة القاضى المؤرخ الاديب محمد بن محمد مخلوف . . .. انتهى محل الحاجة

****

ومما جادت به قريحة فضيلة شيخى بالاجازة العلامة النظار كريم النجار الشيخ سيدي بلحسن النجار المفتى المالكى بقطر افريقية حفظه الله وشكره

نحمد الله ونشكره ، ونصلى على سيدنا محمد وآله وصحبه صلاة طيبة مباركة ، ونسلم تسليما .

أما بعد ، فان همم عظماء الرجال تتجلّى فى آثارهم ، وتتبيّن من اخلاصهم فى عملهم وان تأليفك الجليل ، وصنعك الجميل المسمى « شجرة النور الزكية فى طبقات المالكية » قد تمثّلت فيه نفسك العالية ، ومعارفك الفياضة ، واخلاصك السامى فى أجلى المظاهر وأجملها .

طالعته فوجدت منه معلمة فى رجال المذهب المالكى ، من أحسن ما أخرج للناس من كتب الفهارس والتراجم والطبقات فى أسلوب مبتكر ولفظ منسجم

بيّنت فيه ، أيدك الله تعالى ، تاريخ انتشار المذهب المالكى وحلقات اتصال الخلف بالسلف طبقة فطبقة ، ودورا فدورا ، وهو مع ذلك تاريخ متسع لقسم عظيم من علماء المسلمين وأئمتهم :

ان سعة اطلاعك ، واتقان ضبطك ، ورجاحة تحريرك ، واحسانك الى قومك تدعو الى الاعجاب بك . وتعيد فينا ذكريات سلفنا الصالح وما لهم من احاطة وعناية وانقطاع للصالح العام . فشكرا لك شكرا

كتبه فقير ربه

بلحسن النجار الشريف

خادم العلم بجامع الزيتونة لطف الله به

٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٠

فهرس
التتمة والخاتمة

التتمة فى فتوحات الخلفاء الراشدين

وفى طبقات أمراء افريقية والسلاطين

صحيفة
٢ تمهيد به بيان وجه ربط طبقات التتمة بطبقات المقصد وبيان فضيلة العلم والعلماء وفضيلة الملوك والامراء
٧ فائدة فى تقسيم الفضائل
الطبقة الاولى
٧ ذكر من أرسل رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وان القرآن فيه بيان كل شىء الجامع لكل فضيلة الناهى عن كل رذيلة لقوله تعالى ﴿ وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا ﴾ ولقوله تعالى ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾
٩ الكلام على القانون الشرعى والقانون الوضعى
١١ صلة بها أن القرآن هو الحكمة البالغة والحجة الكاملة مع الابانة عن فضل المعنى الذى به باين سائر الكلام
١٢ أشهر معجزاته ﷺ القرآن وما فرط القرآن فى شىء من الآداب
١٣ جرت عادة الله أن أوامره لا تخلو من حكمة
١٣ جوهرة فى كون القرآن نزل بلغة العرب
١٤ فريدة فى أنه ﷺ بعث رحمة للعالمين وان صفة العبودية فى القرآن هى مدح له ﷺ
١٦ خلاصة فى العلوم التى تفرعت من القرآن أو نشأت لخدمته
١٨ فضيلة الخطابة فى الجاهلية والاسلام
١٩ فصل فى الوازع والحرية
٢٠ البشارة بالسعادة
٢٠ النذارة بالشقاوة

صحيفة

٢١ خلاصة فيما حصل لرسول الله ﷺ وهو بمكة عند ما أعلن بالرسالة وما حصل لمن آمن به
٢٣ وظيفة الرسل تبليغ الشرائع وتقريرها على وجه يجمع اليه شملهم ويتكفل بسعادتهم
٢٤ أول آية نزلت فى الاذن بالقتال قوله تعالى ﴿ اذن للذين يقاتلون ﴾ الآية
٢٤ خطبته عليه الصلاة والسلام فى حجة الوداع
٢٥ ذكر مرضه ﷺ ووفاته
٢٦ الحالة الاجتماعية على عهده عليه الصلاة والسلام

الطبقة الثانية

طبقة الصحابة رضى الله عنهم

٢٨ فضائل أصحاب النبى ﷺ
٢٩ شرح قوله عليه الصلاة والسلام « ان الله لا يجمع أمتى على ضلالة »
٣١ فصل فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ونبذة من فضائله
٣٣ تعريف البيعة
٣٣ خطبته لما استقرت بيده الخلافة
٣٤ انفاذه جيش اسامة
٣٥ فصل فى الكلام على أهل الردّة
٣٦ عقد الالوية لقتال أهل الردّة
٣٧ جغرافية جزيرة العرب
٣٧ التفاته للفتوحات بعد اخضاعه أهل الردة
٣٨ أول ما التفت اليه فتح العراق العربى
٣٨ التفاته بعد فتح العراق لفتح الشام وعقده الالوية وتسييره الجيوش
٣٩ وصيته ليزيد بن أبى سفيان عند تسيير تلك الجيوش
٤٠ الفتوحات التى حصلت لتلك الجيوش
٤١ فصل كان أبو بكر كثيراً ما يعمل بما يشير به عليه على رضى الله عنهما وكان من العلم بقوانين الشريعة والخبرة بوجوه السياسة فى منزلة لا يطاولها سماء
٤١ من مناقبه الكريمة ومآثره العظيمة جمعه القرآن العظيم
٤٢ مرضه ووصيته بالخلافة لعمر رضى الله عنهما وكتب له عهداً فى ذلك
٤٢ خطبة على فى تأبين أبى بكر
٤٣ ﴿ تنبيه ﴾ ثبت عن على ما يفيد صحة خلافة أبى بكر وعليه الاتفاق من أئمة السنة والجماعة
٤٣ الحالة الاجتماعية على عهد أبى بكر

صحيفة	
٤٤	خلافة عمر رضى الله عنه ونبذة من سيرته
٤٧	فتوح الشام
٤٨	فتح دمشق وغيرها من المدن والقرى وذكر القواد الذين حضروا هذا الفتح
٤٩	جغرافية سوريا
٤٩	انتدابه لفتح العراق العجمى وفارس
٥١	وصيته لسعد بن أبى وقاص عند تسييره الجيوش المنتدبة
٥١	فتح القادسية والمدائن والاهواز وغيرها وأخذ الهرمزان أسيرا
٥٣	تدويخه ملك الروم وفارس والاخلاق التى كان عليها والكلام على الهرمزان المذكور
٥٣	فتح الجزيرة وقاعدتها الموصل
٥٤	« مصر وبرقة وطرابلس الغرب
٥٥	﴿ تنبيه ﴾ على أن العرب أمة حربية لها معرفة بأساليب القتال وتعبئة الجيوش
٥٦	كيفية تعبئة الجيوش عند فتح اليرموك والقادسية
٥٨	أوّلياته : منها كتابة التاريخ الهجرى وتدوين الدواوين وفرض العطاء
٥٩	ومنها اتخاذ دار الدقيق ، وضرب النقود ، وقيام شهر رمضان ، وجمع الناس لصلاة الجنائز والجلد فى الخمر ثمانين ، ووضع البريد ، وتمصير الامصار ، واقامة الجسور ، والطرق ، وحفر الترع ، وارشاد الضالّ
٦٠	قضاؤه وكتابه فى القضاء لابى موسى الاشعرى
٦١	نبذة من فضائله
٦٢	استشهاده
٦٣	وصيته لمن يخلفه
٦٤	الحالة الاجتماعية على عهده
٦٥	خلافة عثمان رضى الله عنه والشورى ونبذة من فضائله ومقتله والحالة الاجتماعية على عهده
٧١	خلافة على بن أبى طالب ونبذة من فضائله والفتنة التى حصلت فى مدته واستشهاده
٧٢	الكلام على الفتنة المذكورة
٧٣	خلاصة ما عليه أهل السنة فى الفتنة المذكورة
	فضائل السنة بقية العشرة المبشرين بالجنة رضي الله عنهم
٧٤	أبوعبيدة عامر بن الجراح
٧٥	عبد الرحمن بن عوف
٧٥	طلحة بن عبيد الله القرشى

صحيفة

٧٥ الزبير بن العوّام
٧٦ سعيد بن زيد
٧٦ سعد بن أبي وقاص

ذكر البعض من أعيان علماء وأمراء الصحابة الفاتحين الذين قاموا بنصرة الدين ونشر الدعوة والنصح للمسلمين رضي الله عنهم

٧٧ حمزة بن عبد المطلب
٧٨ أخوه العباس
٧٨ جعفر بن أبي طالب
٧٩ زيد بن حارثة
٧٩ عبد الله بن رواحة
٨٠ خالد بن الوليد
٨١ خالد بن سعيد
٨١ سالم مولى أبي حذيفة
٨١ معاذ بن جبل
٨٢ يزيد بن أبي سفيان
٨٢ أبيّ بن كعب
(الكلام على القرّاء الاربعة)
٨٢ عبد الله بن مسعود
٨٣ أبو ذر الغفاري
٨٤ المقداد بن الاسود
٨٤ عبادة بن الصامت
٨٤ أبو الدرداء
٨٤ حذيفة بن اليمان
٨٥ سلمان الفارسي
٨٥ عمار بن ياسر
٨٦ عمرو بن العاص
٨٧ زيد بن ثابت
٨٨ سعيد بن العاص

صحيفة	
٨٨	أبو موسى الاشعرى
٨٩	الحسن والحسين
٨٩	أسامة بن زيد
٩٠	عبد الله بن سعد بن أبى سرح
٩٠	معاوية بن أبى سفيان
٩٠	مسلمة بن مخلد
٩١	مروان بن الحكم
٩١	عبد الله بن العباس و شقيقه عبيد الله
٩٢	عبد الله بن عمرو بن العاص
٩٢	عبد الله بن الزبير
٩٣	عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وقد مر ذكر بعض أعيان الصحابة فى صدر المقصد
٩٣	الفتوحات الاسلامية امتدت و اتسعت بالجهات الشرقية والغربية بواسطة الصحابة ثم التابعين
٩٤	الفتوحات الآتى ذكرها هى فى الجهة الغربية فقط
٩٤	أول أمير تأمر على جيوش أفريقية هو عبد الله بن سعد بن أبى سرح بعهد من الخليفة الثالث و غزاها ومعه جماعة من أعيان الصحابة
٩٥	ثم معاوية بن حديج بعهد من الخليفة معاوية بن أبى سفيان و غزاها ومعه جماعة من أعيان الصحابة
٩٦	ثم عقبة بن نافع ومعه جماعة من الصحابة ثم مسلمة بن مخلد بواسطة مولاه أبى المهاجر ثم رجوع عقبة بن نافع
٩٧	ذكر جماعة من الصحابة دخلوا أفريقية
١٠١	جغرافية أفريقية الشمالية الغربية
١٠١	الكلام على قرطاجنة
	افريقية تداولها قبل الاسلام دول أربع ويعبر عنها بالاطوار الاربعة
١٠٣	الاول دولة قرطاجنة
١٠٣	الثانى دولة الرومان
١٠٤	الثالث دولة الوندال
١٠٤	الرابع البزنطيون
١٠٥	الكلام على نسب البربر وهم ينقسمون الى شعوب وقبائل وهم من أعظم الاجيال وأعزها ولهم فخر لا يجهل وذكر لا يهمل

صحيفة

١٠٦ الطبقة الثالثة

طبقة التابعين رضى الله عنهم

١٠٧ ولاية زهير بن قيس البلوى بعهد من عبد الملك بن مروان

١٠٧ ولاية حسان بن النعمان بعهد من عبد الملك المذكور ثم ولاية موسى بن نصير بعهد من الوليد بن عبد الملك

١٠٨ ولاية محمد بن يزيد ثم اسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ثم يزيد بن أبى مسلم ثم بشر ابن صفوان ثم عبيدة بن عبد الرحمن ثم عبد الله بن الحجاب ثم كلثوم بن عياض ثم حنظلة بن صفوان ثم تغلب عبد الرحمن بن حبيب على افريقية

١١٠ خلاصة فيما حصل مدة الدولة الاموية

١١٠ الطبقة الرابعة

وفيها ظهر مذهب مالك رضى الله عنه

١١٠ ذكر انقراض دولة بنى أمية واستقرار دولة بنى العباس واستقلال الاندلس بعد ان كان نظر الخلفاء منسحباً عليه

١١٠ ولاية محمد بن الاشعث الخزاعى بعهد من الخليفة المنصور العباسى وتوجيه ابن الاشعث لافريقية أبا الاحوص البجلى ثم توجه لها بنفسه ثم ولاية الاغلب بن سالم ثم عمر المهلبى ثم يزيد بن حاتم المهلبى ثم ابنه داود ثم روح المهلبى ثم نصر المهلبى ثم الفضل بن روح ثم هرثمة بن أعين ثم محمد بن مقاتل

الكلام على افريقية زمن العباسية

١١٢ ذكر سيرة الملوك الذين أتوا بعد الخلفاء الراشدين من بنى أمية و بنى العباس

١١٢ نظر هؤلاء الخلفاء كان منسحباً على المغرب حين كان أمر الخلافة متحداً وحكمها مجتمعا وكلمتها نافذة ثم صار أمر الوحدة الى الكثرة وحكم الاجتماع الى التفرقة

١١٥ ذكر ما وصلت اليه بغداد فى عهد العباسية

١١٦ ذكر الشوكة التى استعملها الصدر الاول من خلفاء بنى العباس فى تزكية العقول وبث سائر العلوم والفنون وتنمية المعاش وترويج التجارة

الطبقة الخامسة

١١٨ ولاية ابراهيم بن الاغلب ثم ابنه أبى العباس عبد الله ثم زيادة الله بن ابراهيم ثم أخيه أبى عقال الاغلب وذكر الحوادث التى وقعت فى مدتهم منها الدعوة التى قام بها ادريس العلوى مؤسس فاس

صحيفة

١١٨ ولاية أبي محرز محمد بن عبد الله الكناني قضاء القيروان بمشاركة أسد بن الفرات

١١٩ ذكر الاحتفال الواقع لاسد بن الفرات حين توجه لصقلية وهو أمير الجيش وقاضيه

الطبقة السادسة

١٢٠ ولاية أبي العباس محمد ثم ابن أخيه أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الاغلب ثم زيادة الله ابن أحمد بن محمد ثم أخيه أبي الغرانيق محمد ثم أخيه ابراهيم ثم ابنه أبي العباس عبد الله ثم ابنه زيادة الله وهو آخر ملوك هذه الدولة ولهم ذكر جميل وفتوحات بصقلية وغيرها وفى أيامهم استقل المغرب الاقصى

١٢١ أمراء افريقية من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم كانوا على السذاجة همهم الجهاد وبث الدعوة وحفظ ما فتحوه واقامة العدل ، وجرى على منوالهم بنو الاغلب وفى أيامهم وقع تقدم فى احياء العلوم والصنائع والتجارة والفلاحة وغير ذلك بافريقية وصقلية

الطبقة السابعة

١٢٢ ولاية عبيد الله المهدى الشيعي ثم ابنه أبي القاسم ثم ابنه المنصور أبي الطاهر اسماعيل ثم ابنه المعز وما لهم من الفتوحات بصقلية وغيرها ولهم حروب مع الثائرين منهم مخلد بن كيداد واستيلاء المعز على مصر وغيرها بواسطة وزيره جوهر وتأسيسه القاهرة والازهر ورحلة المعز لمصر واستقلاله بالملك هناك وممن صاحبه فى رحلته الشاعر المفلق أبو القاسم محمد بن هانى الاندلسى وتوفى بالطريق

الطبقة الثامنة

١٢٤ استخلاف المعز المذكور على المغرب يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجي ثم توفى وبويع لابنه أبي الفتوح منصور ثم لابنه أبي مناد باديس

١٢٤ ﴿ تنبيه ﴾ بنو عبيد كان اشتغالهم بالحروب وبث الدعوة فى الاقطار والزيادة فى المملكة وعمالهم من ملوك صنهاجة مثلهم وقانون الملك الاسلامى القرآن العظيم وسنة النبي الكريم وكان لهم التفات للعلماء وتعظيم وكانوا يلاقون من شدة العلماء عليهم مايتجرعون به مرارته

١٢٥ فصل به خلاصة ما حصل بالاندلس من تاريخ استيلاء عبد الرحمن الاموى عليه وعقبه من بعده الى انقراض دولتهم أوائل المائة الخامسة وفى أيامهم استفحل الاندلس واستبحر بالعلوم والمعارف والصنائع وغيرها كالطب مع عمران زاهر وتمدن باهر

الطبقة التاسعة

١٢٨ ولاية المعز بن باديس وحمله الناس على التمسك بمذهب مالك وقطع ماعداه حسما لمادة

الخلاف بالمذاهب وذكر الحوادث التى وقعت فى مدته وغالبها مواسم بواسم ثم فى أواخرها آلت الى محن وكوارث وأحزان أدت الى خراب القيروان
١٢٩ الكلام على ماوصلت اليه افريقية و بالخصوص القيروان من الحضارة والتمدن والعمران والاستبحار فى العلوم والمعارف والصنائع وغيرها

الطبقة العاشرة

١٣٢ ولاية تميم بن المعز واستيلاء جباره على سوسة والعدو على صقلية وذكر الآثار الحسنة التى خلدها الاسلام بها مدة الاحتلال

الطبقة الحادية عشر

١٣٣ ولاية يحيى بن تميم ثم ابنه على ثم ابنه الحسن وهو آخر ملوك هاته الدولة
١٣٤ استيلاء صاحب صقلية على جربة وصفاقس وقرقنه وطرابلس ثم على المهدية
١٣٤ قدوم الامير عبد المؤمن بن على من مراكش بجيوشه لافريقية واستيلاؤه على المهدية وغيرها من مدن افريقية وهو أول ملوك الدولة الموحدية التى أسسها مهديهم محمد بن تومرت

الطبقة الثانية عشر

١٣٧ ذكر أمراء افريقية الذين تولوا من قبل عبد المؤمن المذكور ومن جاء بعدهم من ملوك هذه الدولة

الطبقة الثالثة عشر

١٣٨ ولاية أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ثم ابنه أبى يزيد ثم ادريس من بنى عبد المؤمن ثم ابنه أبى يزيد ثم عبد الله بن عبد الواحد المذكور ثم أخيه أبى زكرياء وهو الذى وافته بيعة أهل الاندلس وغيرها واتسع بذلك نطاق سلطانه وفى مدته أخذ العلم والتعليم فى التقدم
١٣٩ فصل به خلاصة الكلام على الأندلس من أوائل المائة الخامسة الى عهد أبى زكرياء المذكور والكلام على حالتها الاقتصادية والسياسية وتقدمها فى العلوم والمعارف وغير ذلك حتى ظهر بذلك تحكم التمدن العربى المتسع ونشأ عن ذلك العمران الزاهر ثم ضعف أمر الخلافة وصارت الممالك بيد ملوك كثيرة وتغلب العدو على غالب الاندلس
١٤٣ الكلام على غرناطة التى انحاز اليها المسلمون بعد تغلب العدو على غالب الاندلس

الطبقة الرابعة عشر

١٤٤ ولاية محمد المنتصر بن أبى زكرياء ووفود بيعة أهل مكة اليه فبلغت بذلك دولته شأو

صحيفة

المظفرة ثم ولاية إبنه يحيى الواثق ثم عمه اسحق ثم الدعى أحمد بن مرزوق المسيلى ثم عمر أخى أبى اسحق ثم أبي زكرياء بن أبى اسحق ثم أبى عصيدة بن الواثق بإشارة من معتقده الشيخ أبى محمد المرجانى

١٤٥ ﴿ تنبيه ﴾ الظفر فى الحروب من قبيل البخت والاتفاق

الطبقة الخامسة عشر

١٤٦ ولاية أبى بكر الشهيد ثم خالد بن أبى زكرياء ثم أبى يحيى زكرياء بن أحمد اللحيانى ثم ابنه أبى ضربة محمد ثم أبى بكر بن أبى زكرياء ثم ابنه أبى حفص وفى مدته وصل افريقية سلطان المغرب أبو الحسن المرينى فى أسطول ضخم وجيش عرمرم ومعه جماعة من أعيان العلماء واستقام أمره بإفريقية ثم دارت عليه الدوائر ورجع للمغرب بعد تكبده مصائب وفي مدة اقامته بتونس كان وباء جارف واستقل بأمر افريقية بعده أبو العباس الفضل بن أبى بكر

١٤٧ ﴿ تنبيه ﴾ به الاشارة الى الفضائل التى لبعض هؤلاء الامراء والرذائل التى ارتكبها بعضهم

الطبقة السادسة عشر

١٤٨ ولاية أبى اسحق بن أبى بكر ثم ابنه أبى البقاء خالد ثم ابنه أبى العباس احمد بن محمد بن أبى بكر وهو من مفاخر هاته الدولة

الطبقة السابعة عشر

١٤٩ ولاية أبي فارس بن أبى العباس المذكور ومن حسناته الكتب التى جعلها بجامع الزيتونة ومنها تعظيم المولد الشريف وشأن العلم والعلماء ثم ولاية حفيده محمد بن المنصور بن أبي فارس

الطبقة الثامنة عشر

١٤٩ ولاية أبى عمرو عثمان بن محمد بن المنصور وهو آخر رجال هاته الدولة له مآثر جليلة منها خزائن الكتب التى جعلها بالمقصورة الشريفة من جامع الزيتونة وعلى عهده كان وباء جارف بأفريقية .

١٥٠ فصل فيه استيلاء الاسبان على بقية الاندلس غرناطة وغيرها وحل بالمسلمين البلاء العظيم

صحيفة

بعد هذا الاستيلاء منها اعدام جميع آثار المسلمين والامر باحراق ثمانين الف كتاب بطرقات غرناطة وبسبب ذلك هاجر منها الكثير الى أفريقية الشمالية ثم أكره الباقى على التنصر أو الخروج

الطبقة التاسعة عشر

١٥١ ولاية أبي زكرياء يحيى بن محمد بن المسعود بن عثمان ثم عمه عبد المؤمن ثم رجوع ابي زكرياء المذكور ثم محمد بن الحسن بن محمد المسعود ومن مآثره جمع كتب كثيرة وجعلها بمقصورة بجامع الزيتونة، وهى المعروفة الآن بالعبدلية.
ثم ولاية ابنه الحسن ثم ولاية خير الدين باشا وخطب للسلطان العثماني وكان من رجال الدنيا والآخرة ثم الحسن المذكور باعانة الاسبان بعد حروب ومصائب وأهوال فى أخبار طوال
١٥٢ ﴿ تنبيه ﴾ بانتهاء المائة التاسعة أخذ العلم بتونس القهقرى بعد ان كانت سوقه نافقة فى دولة أبي عمرو عثمان وحسن بعده والعلماء كثيرون ثم آل الامر الى انقطاع الخبر عن العلم والعلماء لما دهم افريقية من الفتن والمصائب ورحل بسببها العلماء والفضلاء الى مصر وفاس وتلمسان وغيرها

الطبقة العشرون

١٥٣ ولاية أبي العباس بن الحسن واستعانة الحسن على ابنه المذكور بالاسبان ثم ولاية على باشا والى الجزائر بعد فرار أبي العباس واستنجاده بالاسبان واجابته لطلبه على شروط لم يقبلها وقبلها أخوه محمد وباثر ذلك دخل الاسبان تونس وقاسمه مقاسمة الغالب للمغلوب واشتد الخطب بالعتو والفساد بما تقشعر منه الجلود فى خبر طويل الذيل ثم احتلتها العساكر العثمانية وأميرها سنان باشا وهلك محمد المذكور وبهلاكه انقرضت دولة بنى أبي حفص
١٥٥ خلاصة فيما كان عليه ملوك بنى حفص وما لهم من المآثر وسيرتهم مع العلماء وكيفية تنفيذ الاحكام الشرعية وذكر خزائن الكتب التى كانت بجامع الزيتونة

الطبقة الحادية والعشرون

١٥٦ التراتيب التى وضعها سنان باشا بعد استقرار جيش الاحتلال، ثم ولاية عثمان دايا وعلى

صحيفة	
	عهده كان قدوم الامم الجالية من الاندلس الى أفريقية ثم ولاية صهره يوسف دايا وولاية مراد باشا
١٥٧	الكلام على العلم والعلماء أواخر الدولة الحفصية وأوائل الدولة التركية وعلى القضاة الذين يأتون من تركيا وكيفية تنفيذ الاحكام الشرعية

الطبقة الثانية والعشرون

١٥٨	ولاية حموده باشا بن مراد باشا وماله من المآثر ثم ابنه مراد باشا ثم تداول الولاية ابناه محمد وعلى وعمهما محمد الحفصي واستقرت أخيراً بيد محمد أحد الاخوين بعد حروب مع أخيه وعمه ومحمد بن شكر فى أخبار طويلة الذيل

الطبقة الثالثة والعشرون

١٦٠	ولاية رمضان باى واستبداد مغنيه مزهود وسوء سيرته مع العلماء وغيرهم ثم ابن أخيه مراد بن على باى وسوء سيرته وسفكه الدماء ثم هلك وبهلاكه انقرضت دولة بنى مراد ثم ولاية ابراهيم الشريف
١٦٢	الكلام على مايطلب من الامير والرعية وان توفرت المطالب استقام الحال وإلا فلا والكلام على العدل والظلم
١٦٣	ولاية حسين بن على تركى بانى الملك الحسينى وماله من المآثر وذكر الحوادث التى وقعت فى أيامه منها ماوقع بينه وبين ابن أخيه الباشا على

الطبقة الرابعة والعشرون

١٦٤	ولاية على باشا وماله من المآثر والحوادث التى وقعت فى مدته منها ماوقع له مع أبنائه وأبناء عمه حسين ثم ولاية ابن عمه محمد بن حسين ثم أخيه على وما لهما من المآثر

الطبقة الخامسة والعشرون

١٦٧	ولاية حموده باشا ابن على باشا وماله من المآثر
١٦٨	ذكر الوزير يوسف صاحب الطابع مؤسس الجامع الحنفى بالحلفاوين
١٦٨	وفاة حموده باشا وولاية أخيه عثمان ثم ولاية ابن عمه محمود باشا بن محمد باشا بن حسين باشا
١٦٩	الكلام على الكرنتينة

١٧٠ | ذكر من تولى دايا بالحاضرة من عهد الاحتلال التركى الى سنة ١٢٥٨

الطبقة السادسة والعشرون

١٧٣ | ولاية مصطفى باشا ابن محمود باشا ثم ولاية ابنه المشير احمد باشا ثم ابن عمه المشير محمد ابن حسين باشا ثم ولاية أخيه المشير محمد الصادق باشا وذكر الحوادث التى وقعت فى مدته منها ثورة بن غزام ومنها نصب فرانسا حمايتها على تونس وذكر القوانين التى أحدثها هؤلاء الامراء

الطبقة السابعة والعشرون

١٧٨ | ولاية على باشا ابن حسين باشا ثم ابنه محمد الهادى باشا ثم ابن عمه محمد الناصر ابن المشير محمد باشا ثم ولاية محمد الحبيب باشا ثم ابن عمه المولى احمد باشا باى الامير فى هذا الزمان أدام الله هاته الدولة ماتجدد الجديدان

١٨١ | خلاصة الادوار التى حصلت لدول أفريقية فى الاسلام وقبله

١٨٢ | الكلام على ماقيل فى طاعة الملوك

١٨٢ | الكلام على أن الدولة قد تسعد بشخص وتشقى بآخر

١٨٣ | أسماء الكتب التى اقتطف منها ما جمع بكتاب الشجرة

١٨٥ | جغرافية إيالة تونس

١٨٩ | خاتمة فى الكلام على فضيلة المنستير

١٩١ | الكلام على القصر الكبير بالمنستير وترجمة عبد الله البكرى

١٩٥ | جغرافية مدينة المنستير وما بها من السكان وعوائدهم ومن أقبر بها وبالقصر والمقبرة من الامراء والعلماء والفضلاء ومنهم الامام ابن يونس والامام المازرى والكانشى وابن الحداد وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز وباديس وابنه المعز ووالدته السيدة وبقية ملوك هاته الدولة

٢٠٢ | ترجمة أبى محفوظ محرز بن خلف

٢٠٤ | اعادة تحرير الاربعين الثنائية بعد مزيد التحرّى

٢١١ | التقاريظ

٢١٨ | فهرس التتمة والخاتمة

الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٤	١٢	المراحات	الجراحات
٦	١٣	هناك	هنالك
٦	٢١	والمول	المول
٦	٢٩	ويسط	وبسط
٩	٥	وترفع	وتدفع
١٠	٢٢	المتاج ان	المتاج للامام ان
١٢	٤	تنبه	تنبيه
١٣	١٣	بهتدى النصير	يهتدي البصير
١٥	٧	ما لكتاب	ما الكتاب
١٥	١٤	دن و	دون
١٧	٢٣	أوو غيرهم	أو غيرهم
١٩	١٩	أمرأ	آمرأ
١٩	١٩	بقيه	بقيدين
١٩	٢٦	تترك	تتحرك
٢٢	٢٠	وبين	وبينه
٢٢	٢٦	المصدقين	المصلو ذين
٢٣	٤	نيتوب	فينوب
٢٣	٧	فى الاخبار	فى الاختار
٢٥	١٦	وصية أكثر	وصية فى أكثر
٢٦	٤	ان من آمن الناس	ان من أمن
٢٩	١١	المذهب	الوصف
٣٠	٦	الحسن	الحسين
٣٥	١٥	بجاهد	بجاهد
٣٦	١١	الواضح	النواضح
٣٧	١٧	عصبية	هبة
٣٧	٢٨	والامصار	الامصار
٣٨	١١	يموت	يفوت
٣٩	٦	لن	بمن
٤٠	٩	وطرفه	وطرفاه
٤١	١١	يطاولها	تطاولها
٤٢	٢٩	بريد	يريد
٤٣	٧	يجرم	يجزم
٤٤	٢٥	رضي الله تقدم	رضي الله عنه تقدم
٤٧	٢	لما	لمن
٤٧	٩	صوقال	صوحان
٥٥	١٣	ناواكم	ناوا كم
٥٦	١١	مردا	مددا
٦٢	٢	جليها	جليلها
٦٤	١١	البزار — بزره	البذار بذره
٦٥	٢١	ثمرات	ثمرات
٦٦	١	أن يرتق	أن يدفن
٦٦	٢	أن يرتق	ان يدفن
٦٦	٢٢	فأمكث	فسكت
٧٠	٧	وترفر أسباب	وتوفر أسباب
٧١	٥	خلى الراجح	على الراجح
٧١	٧	غيره	غيري
٧٣	١٠	منبتاً	فيئا
٧٥	١٢	فنائه	فناقبه

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٧٥	١٧	وأجريا	وأجريها
٧٧	٧	صوت السلام	صوت السلاح
٨٤	٢٢	الميسي	العبدي
٨٥	٢٣	المنيسي	المنذي
٨٧	٢٦	من الراغبين	من الراسخين
٩٠	٧	وغزوة	وغزوه
٩٣	١٥	أذكى	از كي
٩٦	١٧	مقراوة	مغراوة
٩٩	٢٣	الصفة	الصنة
١٠٠	٢	سنة ٧٧	سنة ٧٤
١٠٠	٢٤	وقتلة	وقتله
١٠١	٩	تافليلات	تافيلات
١٠٣	٧	٨٨	٨٨٠
١٠٣	٧	ديرون	ديدون
١٠٣	١٥	تغالى فى قرطاجنة	تغالى قرطاجنة
١٠٥	٢٤	وأوينة	واوريغة
١٠٧	١٤	وعقرت	وتعضدت
١٠٩	٨	سكن كل أمير	سكني كل أمير
١١٥	٦	تناوىء	تناطح
١١٦	٢٤	فانه	بأنه
١١٩	٥	أنى	ان
١١٩	٢٠	خير الدنيا	خيري الدنيا
١١٩	٢٦	المتبوع	المبتدع
١٢٢	٢٣	سنة ٣١٣	سنة ٣٢٣
١٢٣	٦	السأي	السياءى
١٢٣	١٤	سنة ٣٥٨	سنة ٣٠٧
١٢٣	٢٧ ٢٨	أهالى على المهدي	أهالي المهدية
١٢٤	٦	سنة ٣٧٣	سنة ٣٧٢
١٢٤	١٢	المعروف بابن الرقيق	المعروف بالرقيق
١٢٥	٢٧	موته	بمدته
١٢٦	١٥	اليه	اليها
١٣٠	١٨	ومنافسه	ومناقبه
١٣٢	٥	السبوري	السوري
١٣٤	١١	فرمى	فدمر
١٣٤	٢٢	اثنا عشر	اثنى عشر
١٣٤	٢٥	السكوفى	السكوي
١٣٤	٢٨	وقاس	وقابس
١٣٥	١	السكوفى	السكوي
١٣٩	٢	نافعة	نافقة
١٤٤	٢٢	فافتتاح	بافتتاح
١٥٢	٢٠	البنوفى	البنوني
١٥٥	٦	اعماله	اقفاله
١٥٥	٢٣	وأبو العباس	وأبو فارس
١٥٩	٢١	بجملة عظيمة وانضمت له حلة	بحملة عظيمة وانضمت له محلة
١٥٩	٢٣	الراى	الداى
١٥٩	٢٥	بحملة	بمحلة
١٥٩	٢٧	بحملة — له حلة أخرى	بمحلة — محلة أخرى
١٦١	١٣	وبينه	وبنيه

تابع الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
١٦١	٢٤	وقام بقصره	وقام بقصره
١٦١	٢٥	رسلات	وسلات
١٦٢	٢٣	راجلهم	وابلهم
١٦٥	١	بد	نبذ
١٦٥	٢٧	المشرع المكى	المشرع المكى
١٦٦	٢٧	شعنهم	شيعتهم
١٦٨	١٠	من ربهم رحمة	من ربهم ورحمة
١٦٨	٢٨	بالسكر	بالسكرم
١٧٠	٧٦	كروية ــ والسكروية	كورية ــ والسكورية
١٧٠	٩	السكروية	السكورية
١٧٢	١٤	السنة بعده	السنة وبعده
١٧٤	٣٠	أهل الملك	أهل الملل
١٧٦	١٤	مشتين فصلا	ستين فصلا
١٧٧	٥	المروف	المرونة
١٧٧	٩	وصل بين المماسكة	واصل بين المماسكة
١٨٠	١٩	الباشا حسن	الباشا حسين
١٨٤	٣	الفاشي	العياشي
١٨٤	٦	النفيسة	النقية
١٨٤	١٣	السندسي	السنوسي
١٨٧	٢٠	السقف	السفن
١٨٦	٢٧	واجم الذبابة	واجم الذي به
١٨٩	٩	يلزم حذف (حرم الله شعره بالثلاث حجج) بين قوله حجج وبين قولهقالوا	
١٨٩	١٠	حدثنا	حدثت
١٩٠	٨	الصبري	المبدى
١٩٠	١٧	مالك قال	مالك قال قال
١٩١	١	يلزم حذف (ان يربط هؤلاء خيولهم وهؤلاء خيولهم بحيث يكون) الواقعة بين قوله والمرابطة وبين قوله ملازمة	
١٩١	٧	بشقاقس	بشقانس
١٩٣	٢٢	بمسجد الوز	بمسجد الرز
١٩٤	٢	ولم ضاق	ولما ضاق
١٩٤	١٩	جرايتها	جرايتهما
١٩٥	٦	خضارة	غضارة
١٩٥	١٦	الدعانى	الدهانى
١٩٥	١٨	الجامع الحنفي	الجامع الحنفى
١٩٥	٢٩	محمود المربى	محمود الخزرجي قيل هو جد الحافظ هبة الله المتقدم الذكر بصحيفة ١٨٩
١٩٦	٢٤	ديون	ديوان
١٩٨	٢	بطلبة	بطليلة
١٩٨	١٢	القشاشى	القشاش
١٩٨	١٩	لهم قاموس عظيم	لهم ناموس
٢٠١	١	فنى	يسير
٢٠٢	٤	بالغرب	بالمغرب
٢٠٢	٥	زمانة	زناتة
٢٠٤	٢٢	وفاتت	وماتت
٢٠٩	١٥	الحيقاء	الحفياء
٢١١	١٤	الآنستير	الأنستير
٢٢٣	٧	الحجاب	الحبحاب